زين نور الدين زين

نشوء القومية العربية

مع دراسةٍ تاريخيّة في العلاقات العربيّة التركيّة

دار النهار للنشر

A
323.153
Z 46 1n

زين نور الدين زين

B.U.C. LIBRARY
21 MAY 1993
RECEIVED

نشوء القوميّة العربيّة

مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية

الطبعة الرابعة

دار النهار للنشر

الطبعة الأولى ١٩٦٨
الطبعة الثانية ١٩٧٢
الطبعة الثالثة ١٩٧٩

جميع الحقوق محفوظة

دار النهار للنشر
بيروت ١٩٨٦

المحتويات

مقدمة		٧
الفصل الاول	العثمانيون وفتوحاتهم في الشرق الادنى	١٣
الفصل الثاني	الحكومة العثمانية في البلدان العربية	٣٠
الفصل الثالث	الحركا ت الاستقلالية في الاقطار العربية	٤١
الفصل الرابع	الحركات الثورية العربية وجمعية تركيا الفتاة	٥٥
الفصل الخامس	نشوء القومية العربية (١)	٨١
الفصل السادس	نشوء القومية العربية (٢)	١١٠
الفصل السابع	خلاصة وكلمة اخيرة	١٢٩
ملاحق الكتاب		١٤٧
الحواشي		
المراجع		

مقـدمـة

صدرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب باللغة الانكليزية في ١٩٥٨ ثم صدرت طبعة جديدة منقّحة ، وباللغة الانكليزية ايضاً ، في ١٩٦٦ . وها نحن نقدّم للقارىء ترجمة الطبعة الثالثة الى اللغة العربية بعد تنقيحها واضافة حقائق اخرى اليها .

ان الغاية من هذه الدراسة هي عرض طبيعة العلاقات العربية التركية في القرن التاسع عشر ، وعند مطلع القرن العشرين ، واعادة النظر في تعليلها ، ومن ثمّ توضيح نشوء القومية العربية وتفهّم هذه العلاقات كما كانت عليه في تلك الفترة الخطيرة ، وذلك لاستجلاء بعض المشكلات السياسية المعاصرة في الشرق الأدنى العربي ، ولادراك حقيقة اليقظة العربية والوعي العربي السياسي في هذه المنطقة . ومؤلف هذه الدراسة يتوخّى ازالة ما علق في اذهان بعض الناس من مغالطات في طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين العرب والأتراك ، ومن معتقدات خاطئة حول نشوء القومية العربية .

بعد صدور الطبعة الأولى لهذه الدراسة في ١٩٥٨ ظهر ما لا يقل عن خمسة وعشرين مؤلّفاً باللغة العربية عالجت جميعها موضوع القومية العربية وعلاقتها بالاسلام . وواضعو هذه المؤلفات عرب مسلمون من سكان منطقة الشرق الأدنى . وقد أجمعوا في الرأي مع صاحب هذه الدراسة على أن القومية العربية ، في طورها التكويني والتاريخي وفي أطوار نموّها لا يمكن أن تفصل

عن الاسلام . وقد أضفنا عناوين هذه المؤلفات إلى قائمة المراجع الخاصة بهذه الدراسة .

كذلك أضفنا عدداً من الوثائق الجديدة الموجودة في «السجلات العامة » (Public Record Office) التابعة لوزارة الخارجية البريطانية ، وبعضها باللغة العربية ، مما لم ينشر قبلا ، الى المتن والى ملاحق هذه الطبعة المنقّحة . واني مدين بالشكر العميق للدكتور صلاح المنجّد الذي تكرّم وسمح لي بأن أصور وأنشر اربع وثائق تحتويها مكتبته الخاصة .

ان كتابة التاريخ مسؤولية كبرى فيها من المشاكل والمخاطر ما لا يعد ولا يحصى . فالحاضر وثيق الارتباط بالماضي ، والمستقبل رهن بالحاضر ، ولكن كيف الوصول إلى الحقيقة واستجلاؤها ؟ وكيف يزول الابهام والاوهام والغشاوة والمغالطة في كتابة التاريخ ؟ الجواب اولا في الاسلوب العلمي وفي البحث والتنقيب عن المستندات والوثائق والمصادر الاولية للتاريخ ، وثانياً في الاخلاص للتحري عن الحقيقة ، وثالثاً في الجرأة الادبية على اداء هذه الحقيقة ، ورابعاً في النزاهة عن كل تعصب شخصي او قومي ، سياسي او ديني عند وصف الاحداث التاريخية ، وخامساً في الانصاف في تأويل النتائج المترابطة بهذه الاحداث وتفسيرها .

ويأمل مؤلف هذه الدراسة ان يكون قد نجح ، ولو بقدر محدود ، في تأدية الرسالة وتوضيح حقبة مهمة من تاريخ العرب والترك في منطقة الشرق الأدنى ، وان يكون قد أزال الشكوك والمغالطات حول نشوء القومية العربية ، متكلا على رحابة صدر القارىء في ان يتقبّل ما صفا وما كدر من الاخبار والحوادث ، وان يحكم على النتائج بموازين عادلة . وعسى ان تكون هذه الدراسة في عون الباحث الذي يرغب في ان يدرس هذه الحقبة دراسة اشمل تفصيلا بعد ان تكون الوثائق قد توفرت لديه ، ولاسيما الوثائق التركية .

واحب ان ارفع خالص شكري وامتناني الى بعض قادة العرب

البارزين الذين عاصروا الحقبة الاخيرة من الحكم العثماني ، للمعلومات الوثيقة التي زوّدوني بها وللاختبارات القيمة التي اختبروها في اثناء تمرّسهم بالأحداث السياسية المعاصرة ، وأخص بالذكر منهم فارس نمر باشا ، والسيد علي جودت الايوبي ، وفارس بك الخوري ، والشيخ عارف الزين ، والسيد توفيق الناطور ، والأمير عادل ارسلان ، والسيد ساطع الحصري ، والشيخ عبد القادر المغربي . وانّي مدين بالشكر ايضاً لشخصيتين تركيتين بارزتين هما الجنرال علي فؤاد باشا جبسوي لتزويدي بتوضيح بعض القضايا الخطيرة الشأن في العلاقات العربية التركية التي كان يعرفها عن كثب في اثناء الحرب العالمية الاولى لكونه رئيس اركان حرب جمال باشا في سوريا ، والاستاذ انور ضيا قارال ، استاذ التاريخ الحديث في كلية اللغات والتاريخ والجغرافيا في جامعة انقره . كذلك اقدّم لبعض زملائي وافر الشكر والامتنان لما ابدوه لي من عون ومشورة ، اخص بالذكر منهم الاستاذ ألبرت حوراني ، والاستاذ شارل عيساوي ، والدكتور فؤاد صروف ، والسيد عبد الرحمن عدره ، والاستاذ جورج كرك . لكنني اسارع ، حرصاً منّي على انصافهم ، إلى القول إنّ تحمل وحدي مسؤولية ما جاء في الكتاب من آراء ومن نظريات .

واخيراً ، فانني ارفع كلمة اعتراف بالجميل إلى « هيئة الدراسات العربية » في كلية الآداب والعلوم في الجامعة الاميركية في بيروت ، التي كان يشرف على ادارتها المرحوم الدكتور نبيه امين فارس ، وذلك لما هيأته لي من ظروف موآتية للتفرّغ لهذه الدراسة .

الجامعة الاميركية في بيروت

زين نور الدين زين

الفصل الاول
العثمانيون وفتوحاتهم في الشرق الادنى

انشأ الاتراك بعد ظهور الأسلام ، اعظم امبراطورية اسلامية واقواها، عرفت بالامبراطورية العثمانية . كانت هذه الامبراطورية تمتدّ ، في عهد من عهودها الزاهرة ، من مداخل فينّا إلى مضايق باب المندب ، ومن بلاد القفقاز ، عبر شمالي افريقيا ، إلى مشارف شواطىء الاوقيانوس الاطلسي . ففي سلسلة متلاحقة من الفتوحات أحرز الاتراك سلسلة من الانتصارات الحاسمة دفعت بهم إلى ذروة مجدهم وقوّتهم العسكرية [١] . ويعود الفضل في ذلك إلى تعاقب عشرة من عظماء سلاطينهم الدهاة الذين أنشأوا في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر امبراطورية مترامية الاطراف ، وهم : عثمان الذي قبيل وفاته استولى الاتراك سنة ١٣٢٦ على مدينة بروسّه ؛ واورخان ، موّسس الجيش الانكشاري (ينى — جري) الذي استولى على نيقوميديا ونيقيا وبرغموّم ؛ ومراد الأول الذي عبر البوسفور واحرز في القارة الاوربية انتصارات عديدة ، لاسيما في ادريانوبل ، سنة ١٣٦١ ، التي اصبحت عندئذ عاصمة الممتلكات العثمانية ، وفي كوسوفو سنة ١٣٨٩ . ثم بايزيد الاول الذي انتصر انتصاراً عظيماً في معركة نيقوبوليس الشهيرة [٢] (١٣٩٦) واستولى على بلاد اليونان (سقطت مدينة اثينا سنة ١٣٩٧) ومن بعده جاء محمد الأول الذي استطاع ، بفضل حكمته وشجاعته ، ان يعيد توحيد الامبراطورية عند مستهل القرن الخامس عشر عندما اشرفت على شفا انهيار محتّم . ثم مراد الثاني

الذي احرز انتصاراً حاسماً في فارنا سنة ١٤٤٤ على الجيش المسيحي الذي كان « اعظم جيش انشىء بعد ان هاجم جيش الفرسان الافرنسي والهنغاري بايزيد الاول في نيقوبوليس » [٣] . ثم محمد الثاني الملقب بابي الفتح ، او الفاتح ، الذي استولى على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وجعل منها « حبّة العقد في الامبراطورية التركية » . ثم بايزيد الثاني الذي غزا اسطوله شواطىء اسبانيا وخربّها نزولا عند طلب المغاربة العرب في غرناطه اليه مساعدتهم . وفيما بعد ، هزم اسطول البندقية واصبح اعظم خطر يهدد الأساطيل المسيحية . ثم سليم الأول الذي قاد جيشه الظافر جنوباً ، وفي أقل من سنتين ضمّ سوريا ومصر والجزيرة العربية (١٥١٦ — ١٥١٧) إلى امبراطوريته العثمانية . واخيراً ، السلطان سليمان القانوني « سيّد عصره » و « متمّم العدد التام [٤] » الذي استولى على مدينة بلغراد ، وغزا هنغاريا ، وانتصر انتصاراً حاسماً في معركة موهاج (١٥٢٦) واحتل مدينة بودابست وضرب الحصار على فينّا (١٥٢٩) وبعد ذلك ضمّ الموصل وبغداد (١٥٣٥) إلى الامبراطورية العثمانية . وفي عهد سلطنته كانت الامبراطورية العثمانية « امبراطورية تضم اغنى مناطق الدنيا واجملها ... مناطق لم يتوافر لسلطان عثمانيّ بعده ان يحتفظ بالثروة والقوّة والازدهار الذي كانت تنعم به في عهد القانوني ، من سلالة آل عثمان [٥] . »

كان لاحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وما تلاه من توسّع في الفتوحات العثمانية المذهلة في اوربا ، وفي منطقة الشرق الأدنى ، في أثناء النصف الثاني من القرن الخامس عشر والربع الاول من القرن السادس عشر وقع عميق في كل العالم المسيحي الغربي — البابا ، ومجمع الكرادلة ، والأمراء المسيحيين — اذ ظهر لهم هول الخطر الذي كان يتهدّدهم . ولذا تتالى عقد المؤتمرات في روما لبحث الخطر التركي ولاقتراح « القيام بعمل ما » ضدّ الاتراك .

في ١٦ نيسان ١٥٢٣ بعث شارل الخامس إلى سفيره في

انكلترا برسالة يقول فيها : « نبعث اليك بكتاب اعتماد خاص مرسل الى هنري و ولزي ترفعه اليهما اولا .... وعليك ان توضح للملك وللكاردينال مبلغ الخطر الذي يتعرض له العالم المسيحي والذي نشأ عن سقوط جزيرة رودس بيد الاتراك . ونكاد نعتقد ان الاتراك سينوون مهاجمة العالم المسيحي هذه السنة ، وستكون ارض المعركة اما في ايطاليا او في هنغاريا او في البلدين معاً وفي الوقت ذاته . ومن الراجح لدينا ان ضربتهم الأولى ستكون موجهة ضدّ ايطاليا ، وسينقضّون علينا وعلى مملكتنا من ناحية نابولي وصقلية ، وبالتالي سيهاجمون ممتلكات الكنيسة وامارات الحكام المسيحيين . ولكن أنّى هاجم الاتراك في العالم المسيحي فان ذلك من شأنه ان يعرض كرامتنا ، بصفتنا امبراطوراً وحامياً للكنيسة ، إلى الامتهان ؛ كما انه يعرّض كرامة أخينا ، حامي الايمان ، اذا نحن تغاضينا عن مثل هذا التعدي في حياتنا . واذا سمحنا للعدو بان يقوم بمثل هذا العمل العدائي فانه سيكون بمثابة وصمة عار تلحق بنا إلى الأبد ، هذا فضلا عمّا سنتعرّض اليه من بؤس وشقاء . اما من جهتنا فاننا نتردّد كثيراً في امر ايقاف الحرب التي أعددنا لها ضد فرنسا ؛ ولكن الآن ، وبالنظر إلى الضرورة القصوى للوقوف في وجه الاتراك ، وبالنظر إلى الخطر الداهم الذي يتعرّض له العالم المسيحي ، ذلك الخطر الذي نشعر بان مسؤوليته تقع على عاتقنا ، فاننا سنسأل الفرنسيين اذا كانوا يرون رأينا في انّ الحكمة تقضي الآن بعقد هدنة لمدة سنوات عديدة ... اما فيما يتعلّق بعقد هذه الهدنة فيجب اعداد معاهدة ، اذا كان الأمر ميسوراً ، للدفاع عن القسطنطينية ضدّ هجمات الأتراك .... [٦] .

فلا عجب ، إذن ، من قول ريتشارد نولز (Knolles) انه « ... في الوقت الحاضر ، إذا اعتبرت قيام هذه الامبراطورية العثمانية ، وتقدمها ، وامجادها المستمرة ، فانك لن تجد في هذا العالم امراً يثير الاعجاب والدهشة اكثر مما تثيره هذه الامبراطورية .

واذا اعتبرت عظمتها وشهرتها المتألّقة فانك لن تجد في هذا العالم امراً يثير الاعجاب والدهشة اكثر مما تثيره هذه الامبراطورية . واذا اعتبرت عظمتها وشهرتها المتألّقة فانك لن تجد شيئاً يضاهي هذه العظمة وهذا التألق . واذا نظرت في قوتها ومضائها فانك لن تجد ما يفوقها رهبة وخطراً ... هذه الامبراطورية التي تهزأ بالدنيا وترعد فتمطرها دماً وخراباً . وهي شديدة الاقتناع بانها ستسود العالم بأسره ، وبأنها هي التي ستضع حدوداً لملكها ، ولن تكون هذه الحدود الاّ في اقاصي المعمورة ، من مشرق الشمس إلى مغربها » [٧] .

ان تاريخ نشأة الأتراك الذين اسسوا امبراطورية كهذه الامبراطورية ، وتاريخ مقدمهم من أواسط آسيا إلى بلاد الأناضول عند منتصف القرن الثالث عشر ودخولهم في خدمة السلاجقة ، امور غامضة تكتنفها حجب من الأساطير [٨] . غير اننا نعرف ان مؤسس السلالة التركية الملكية كان عثمان بن ارطغرل (١٢٨٨ — ١٣٢٦) الذي عرفت الامبراطورية باسمه[٩] فيما بعد ، والتي عاشت قرابة ست مئة سنة واعتلى عرشها ستة وثلاثون سلطاناً . وامبراطورية هذا شأنها لا يمكن ان تكون من صنع طغمة من الرجال المغامرين او رهط من الرحّل « الهاربين من جبال آسيا الوسطى امام هجمات المغول العنيفة » . وها هو السيد ف . كوبريلي (Koprulu) يوجّه النقد إلى هـ . ا جبنز (Gibbons) لانه اعتمد في كتابه الموسوم « تأسيس الامبراطورية العثمانية » ما ما ورد من اساطير تتعلق بتاريخ العثمانيين . ويعتقد كوبريلي انه من الخطل ان نعزو الفضل في تأسيس الامبراطورية إلى الحماسة الاسلامية ، وإلى حميّة قبيلة تتألف من أربع مئة خيمة نزلت في القرن الثالث عشر في الزاوية الشمالية الغربية من بلاد الاناضول . كذلك يرى كوبريلي ان الدولة السلجوقية كانت قد بلغت في النصف الأول من القرن الرابع عشر الذروة في السياسة وفي الثقافة ، وكانت إلى جانب هذا تتمتع بافضل الانظمة الاقتصادية والاجتماعية

التي عرفتها العصور الوسيطة . ولقد نمت الامبراطورية العثمانية وتطورت نتيجة للتركيب الاجتماعي والسياسي الذي كان يضم جميع العناصر التركية في بلاد الاناضول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر [١٠] .

اما فيما يتعلق باعتناق العثمانيين الاسلام ديناً ، وكيف تم ذلك ، وفي أية حقبة ، فيبدو ان هنالك تبايناً في الرأي عند المؤرخين . فيقول جبنز ،الذي مرّ بنا ذكره، ان ليس هناك اي اثبات تاريخي يدل على ان القبيلة التي ينتمي اليها عثمان كانت قبيلة اسلامية ، بل هنالك ما يدل على ان هذه القبائل النازحة إلى بر الاناضول اعتنقت الاسلام بعد ان استوطنت اراضي تقع ضمن الدولة السلجوقية التركية ، وكان السلجوقيون آن ذاك مسلمين . ولا يظن كوبريلي انه من الصواب ان نستنتج من الاساطير ان عثمان لم يكن مسلماً بل اعتنق الاسلام فيما بعد . وهو يضع حدّاً للجدل القائم حول اعتناق العثمانيين الاسلام ديناً بقوله : « ان هذه القبائل التركية كانت بوجه عام قبائل اسلامية ، لكنها لم تكن على شيء من التعصب الديني . فان تعاليم الدين في نظرهم كانت على كثير من التعقيد مما جعل القيام بشعائر الدين امراً مستحيلا ، فظلوا على اخلاصهم وولائهم للتقاليد القومية التي لم يكن الاسلام سوى غطاء رقيق لها [١١] ويظن بعضهم ان الاسلام انتشر بين القبائل التركية الضاربة في بلاد ما وراء النهر (Transoxiana) في فترة من الزمن تتراوح بين سنة ٨٢٠ وسنة ١٠٠٠ ميلادية [١٢] عندما حصل الاتصال بين العرب والأتراك . وكان المنصور ، الخليفة العباسي الثاني (٧٥٤ — ٧٧٥ م) اول خليفة عباسي أدخل فرقة عسكرية صغيرة من الاتراك في جيشه . وفضلا عن هذا فان مدناً كثيرة مثل بخارى وسمرقند وفرغانة واشروسنه درجت ، كنتيجة للحروب التي شنها المسلمون في بلاد تركستان ، على ارسال ابناء البدو الرحّل في تركستان كجزء من ضريبة الأعناق . وكان هؤلاء الفتيان الذين كانوا يرسلون إلى

الخليفة من الاسرى الذين ، حسب العرف والتقاليد في ذلك الزمن ، كانوا يعتبرون عبيداً ارقاء . ولكن في خلافة المعتصم ، الابن الثالث لهارون الرشيد (٨٣٣ – ٨٤٢) دخل الاتراك في خدمة الخليفة على مستوى واسع [١٣] . وبما ان المعتصم كان يخشى بأس الفرس الذين اصبحوا في أيام اخيه الأمين قوة يخشى جانبها ، وبما انه كان قد فَقَدَ ثقته بالعرب « لان العرب كانت قد زايلتهم عصبيتهم وافسدتهم حياة المدن المترفة وضعفت ريحهم » ، فانه اتجه ناحية الاتراك ليجعل منهم جيشاً يعضده ويحمي ملكه . هذا إلى جانب كون امه تركية الأصل . وهكذا تسرّبت جموع تركية غفيرة، في اثناء القرن الثالث عشر ، الى الامبراطورية الاسلامية، ولاسيما إلى بلاد الفرس وايران وسوريا في عهد السلاطين الاتراك السلجوقيين . وكان على العثمانيين الأتراك، بناة هذه الدولة الجديدة، ان ينتزعوا البلدان العربية في منطقة الشرق الادنى من ايدي المماليك الذين كانوا يحكمون مصر وان يضمّوها الى امبراطوريتهم .

كانت الدول الثلاث التي تسيطر على منطقة الشرق الأوسط عند مستهل القرن السادس عشر هي الدولة العثمانية والدولة الايرانية ودولة المماليك في مصر وسوريا . وكانت الدولة الايرانية آخذة بالتوسّع بقيادة السلطان الصفوي شاه اسماعيل . أما دولة المماليك فكانت قد وهنت من جرّاء الحروب التي كانت تشنها ، لاسيما ضد المغول . وكان جيشها قد فقد قوّته وحيويته فأصبح اضعف من الجيش العثماني في عدّته وفي تدريبه . وعندما تسنّم السلطان « ياووز » سليم – السلطان الصارم الذي لا يعرف اللين – عرش الامبراطورية رجحت كفة العثمانيين في ميزان القوى في الشرق الأوسط . وإلى جانب العوامل السياسية والجغرافية المختلفة التي أدّت إلى نشوب الحرب مراراً بين الاتراك والفرس كان هنالك عامل قديم العهد ، اعني الصراع الديني بين الشيعة والسنة . كانت ايران بلداً شيعياً ، وكان شاه اسماعيل ، الذي كان يتّبع سياسة شيعية عنيفة ، قد جعل

المذهب الشيعي دين الدولة الرسمي . وقد عقد ، سنة ١٥١٤ ، معاهدة مع المماليك كان من جرّائها ان قطع المماليك علاقاتهم الديبلوماسية مع السلطان سليم ، ومن جهة ثانية كان السلطان سليم يعتبر نفسه حامي السنة ، فراح يعمل السيف في ألوف من الشيعة في انحاء سلطنته . وفي سنة ١٥١٤ جرّد السلطان سليم حملة عسكرية ضد ايران وهزم الجيش الايراني في سهل جالديران (Chalderan) الواقع بين بحيرة اورميا وتبريز . وقد اسفر هذا الانتصار العسكري عن ضمّ اناطوليا الشرقية والجزء الشمالي من العراق ، بما في ذلك كردستان ، إلى الامبراطورية العثمانية .

كان همّ السلطان سليم بعد ذلك القضاء على المماليك الذين ، كما ذكرنا آنفاً ، كانوا قد عقدوا معاهدة مع شاه اسماعيل ، وقطعوا العلاقات السياسية مع الحكومة العثمانية . وفي اواخر سنة ١٥١٦ سار السلطان سليم على رأس جيش كبير نحو سوريا . في هذه الأثناء غادر السلطان قانصو الغوري القاهرة على رأس جيش قوي واتجه نحو شمالي سوريا . وفي الرابع والعشرين من شهر آب سنة ١٥١٦ التقى الجيشان في سهل مرج دابق شمالي حلب . فكان النصر حليف الجيش العثماني . ولم تدم المعركة سوى ساعات قليلة – من شروق الشمس حتى العصر . وقتل السلطان قانصو الغوري في ساحة المعركة . وكانت نار المدفعية التركية سبباً في الذعر الذي حلّ بين صفوف الفرسان في جيش المماليك فولوا الأدبار . وسقطت مدينة حماة في العشرين من ايلول ، وحمص في الثاني والعشرين منه ، ودمشق في ٩ تشرين الأول . وفي ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧ ، بعد ان اجتازت الجيوش العثمانية صحراء سيناء وهي في طريقها إلى القاهرة، اشتبك الاتراك مع المماليك في معركة الريدانية. وكان النصر الحاسم فيها حليف الاتراك . وبعد انقضاء عشرة أيام ، أي في اليوم السابع عشر من شهر نيسان ، وقعت القاهرة في قبضة الجيش التركي . اما طومان باي ، آخر السلاطين المماليك ، فقد لاقى حتفه بيد

سياف السلطان سليم ، واصبحت مصر جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، وزالت دولة المماليك التي حكمت مصر والبلدان العربية في الشرق الادنى منذ عام ١٢٥٠ — وقد كتب ابن اياس يقول في موت السلطان قانصو الغوري :

« وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة اشهر وخمسة وعشرين يوماً، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدّون ... وزالت دولة الغوري كأنها لم تكن . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير على طول المدى [١٤] . »

انه من العسير علينا ان نتعرف ، على وجه اليقين ، إلى طبيعة العلاقات العربية التركية في الحقبة الأولى من حكم العثمانيين غير اننا نلحظ ان جميع التعاميم والعبارات الجارفة التي صدرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن اولئك الذين يعنون بهذا الأمر ، والتي تتعلق بالكراهية والشحناء التي كانت تتميز بها العلاقات بين هذين الشعبين ، التركي والعربي ، مبالغ فيها كثيراً ، كقول احدهم ، مثلا : « كان العرب يبغضون الاتراك ولا يثقون بهم ، كما ان الاتراك كانوا يبغضون العرب ولا يثقون بهم » فضلا عن ان مثل هذه الأقوال الجارفة لم تكن لتنطبق على واقع العلاقات كما كانت عليه في القرون الأولى للحكم التركي . انّ معظم الذين ألّفوا في التاريخ التركي لم يكونوا يجهلون وفرة الوثائق التاريخية التي يجب ان يطلع عليها الباحث في هذا الحقل وحسب وانما كانوا ، بصورة عامة ، على كثير من التحيّز والتعصّب . فقد كتب هارولد بوون (Harold Bowen) يقول: «لعلّة ما تثير تركيا والاتراك في نفوس المؤرخين الذين كتبوا عنهما شعوراً مشحوناً بالحماسة.فاذا صدرت عن جهة تهجّمات واقوال فيها تشهير انبرى لها من يدافع ويردّ التهم بشيء من الغضب . واذا شكت فئة من الناس الذين عانوا من الاتراك ضروباً من القسوة والخداع راحت

تكذّبها فئة اخرى تعجب بالعظمة التركية ، وباللطف التركي ، وبالدماثة التركية . والأمثلة على هذا النوع من سوء التفاهم عديدة ، وكل حقيقة يمكن تعليلها على أكثر من وجه واحد تصبح ، آخر الأمر ، قضية جدلية تثير الغضب . اما فيما يتعلق بالتعاميم الجارفة التي كانت تصدر عن بعض الكتاب الذين عالجوا هذه القضية فاننا نلاحظ ان معظمهم كانوا يخبطون خبط عشواء او ان التعصب كان يخفي الحقيقة عن ابصارهم [١٥]. ويقول الاستاذان هرولد جب (Harold Gibb)وهارولد بوون (Harold Bowen) في مقدمة كتاب « المجتمع الاسلامي والغرب »(Islamic Society and the West) «ان كثيراً من الآراء الشائعة فيما يتعلق بتاريخ تركيا ومصر في القرن الثامن عشر هي آراء خاطئة ، آراء كنا نحن ايضاً نأخذ بها عندما أقدمنا على كتابة هذا البحث . ولذا نرى ان واجبنا الأول هو عرض الوثائق والمعطيات التي جعلتنا نبدّل رأينا في هذا الأمر تبديلا تامّاً » .

لم يحاول الأتراك تتريك الاعراق البشرية التي دخلت في نطاق امبراطوريتهم ، وقد كان العرب اكثرها عدداً . والواقع ان الاتراك ظلّوا « غرباء » في المناطق العربية التي اصبحت جزءاً من امبراطوريتهم ، والذين توطّنوا منهم الولايات العربية كانوا قلة . انما كان الاتراك الموظفون في الحكومة التركية يرسلون إلى الاجزاء العربية ، لكن إلى مدد قصيرة من الزمن ، لان الحكومة كانت دوماً تستدعي موظفيها لاستبدالهم بآخرين . وقد اشار إلى هذا ج. و. ف ستريبلنغ (Stripling) بقوله : « بعد هذا كله ، لنا ان نقول ان المماليك نشأوا وترعرعوا في سوريا ومصر وبالتالي كانت تربطهم بالبلدين اواصر من شأنها ان تجعلهم حريصين على سمعة اوطانهم وعلى المظهر الخارجي اللائق بها . اما الموظفون الاتراك فانهم كانوا يرسلون إلى مدة قصيرة لم توفر لهم متسعاً من الزمن لكي يتعرفوا إلى الظروف والاحوال السائدة في المناطق التي

اوكل اليهم امر ولايتها . وفي كثير من الاحيان كان الموظفون الاتراك ، بعد اقامتهم مدة قصيرة في البلدان العربية ، يعودون إلى تركيا ليقضوا بقية حياتهم هناك ، او انهم كانوا يرسلون إلى مناطق عربية أخرى حيث كانت الظروف والاحوال تختلف كثيراً عمّا ألِفوه في المناطق العربية التي خدموا فيها ... وظاهر ان الدمج العنصري في ظروف كهذه لم يكن بالأمر الميسور » (١٦) .

لكننا عندما نتناول قضية العلاقات العربية التركية ، يجدر بنا ان نتذكر عدداً من الأمور الهامة . وهي ان العثمانيين لم ينتزعوا البلدان العربية من ايدي العرب انفسهم، بل من ايدي المماليك. وليس لدينا اي برهان على ان العرب في بادىء الأمر كانوا يبالون بأمر اسيادهم الجدد . فقد كانت الامبراطورية العربية والخلافة العباسية من الانحلال والتجزؤ ، بحيث اصبح العرب في حالة ضعف ووهن ، حتى ليصحّ القول بان الحكم العثماني حمى الاقطار العربية والاسلام من التعدّي الخارجي قرابة اربع مئة سنة . بل اننا نستطيع القول ، على وجه العموم ، ان العثمانيين كانوا يمنحون المقاطعات العربية شيئاً من الاستقلال الذاتي ، اللهمّ باستثناء العهد الحميدي الذي كان عهداً من الظلم وفساد الادارة ، وباستثناء الفترة التي ظهرت فيها القومية الطورانية التي كانت تنادي بها جمعية تركيا الفتاة . وبالرغم من ان اللغة التركية كانت اللغة الرسمية للدولة وفي دوائر الحكومة ، وبالرغم من ان غالبية الاتراك لم يتعلموا العربية اطلاقاً ، فان عدداً كبيراً من المفردات العربية دخلت اللغة التركية ، فضلا عن ان الصلاة وقراءة القرآن الكريم في جوامع القسطنطينية وفي سائر المدن التركية كانت دوماً باللغة العربية . وكان العرب يفخرون ببقاء اللغة العربية — وهي ، بعد الدين الاسلامي ، اثمن ما لديهم من ارث حضاري — لغة الدين عند الاتراك .

وكان للعرب اليد الطولى في وضع النظام القضائي للامبراطورية العثمانية . فكان لهم اثر بارز في الادارة الداخلية في هذه الامبراطورية.

ولم يكن للشريعة الاسلامية المقدّسة — وهي بمثابة السلسلة الفقرية للحكومة العثمانية — ان تبقى بدون معرفة اللغة العربية . فالقرآن الكريم عربي ، وجميع المصادر التي تستقى منها الشريعة عربية . وكانت جامعة الازهر في القاهرة والمدارس الدينية السنية في دمشق وطرابلس وحلب مركزاً لتخريج عدد كبير من علماء الدين والقضاة ورجال الافتاء الراسخين في معرفة العربية ودقائق الشريعة الاسلامية . فكانوا يشغلون مراكز رفيعة في المحاكم الدينية في مختلف ولايات الامبراطورية ، على ما لهذه المراكز الخطيرة من أهمية بعيدة الأثر (١٧) . وكان « شيخ الاسلام » رئيس التشريع الاسلامي والمرجع الثقة في امور الشريعة المقدسة . ويبدو ان لقب « شيخ الاسلام » قد اطلقه اولا محمد الثاني . وكان شيخ الاسلام في بادىء الأمر مفتي القسطنطينية.«وكان يمثل السلطة التي يحق لها تفسير القرآن ، بحيث تحرّم على اية سلطة اخرى ، سواء أكانت تشريعية ام تنفيذية ، ان تصدر قراراً نافذ المفعول بدون موافقته ، وذلك بفتوى يؤكد فيها ان هذا القرار ، او ذاك ، لا يتعارض مع الشريعة الاسلامية ».(١٨)

كانت هذه الوظيفة من الأهمية ، بحيث كان صاحبها ، اي شيخ الاسلام ، يطلب الطاعة من السلطان نفسه . والواقع ان خلع السلطان كان يتطلب موافقة شيخ الاسلام ، بفتوى تجعل خلع الخليفة امراً « قانونياً » يرضى عنه المسلمون . وقد صدرت عن شيخ الاسلام فتاو من هذا النوع عندما خلع السلطان سليم الثالث (١٨٠٧) وعبد العزيز (١٨٧٦) ومراد الخامس (١٨٧٦) وعبد الحميد الثاني (١٩٠٩). وكان السلطان ذاته هو الذي يعيّن شيخ الاسلام ، ومقرّه القسطنطينية . وكان شيخ الاسلام ، إلى جانب الصدر الاعظم (رئيس الحكومة) ، الموظّفين الاولين النافذين ، اكثر من سواهما ، في تصريف شؤون الامبراطورية (١٩) .

وكان هنالك غير ذلك من الدلائل العديدة التي طبعت الامبراطورية العثمانية بطابعها الاسلامي ، واظهرت ما كان للغة العربية من شأن

عظيم في تلك الامبراطورية . فاننا نلاحظ ، اولا ، ان اسماء جميع السلاطين — وعددهم ستة وثلاثون — باستثناء اورخان ، كانت اسماء عربية ، وان معظم اختامهم الملوكية وتعرف بالمهر الهمايوني ، كان عليها كتابات عربية . وتحتوي مجموعة الاختام الكبيرة المحفوظة في متحف قصر طوب قابي في مدينة الاستانة على « اقدم ختم ... وهو الخاتم الذهبي الذي امر سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠) ان يختم به باب خزينة القصر . » وقد نقش في وسط الجوهرة هذه الكلمات « السلطان سليم شاه » وحولها نقش بالعربية : « توكلي على خالقي » [٢٠] . وهنالك عدد كبير من المساجد في الاستانة كتب على جدرانها وعلى سقوف قبابها آيات قرآنية . وعلى جدران القصر القديم وعلى عتبات بوّاباته ، وهو القصر المعروف بقصر طوب قبو ، حيث كان يقيم السلطان — كتابات قرآنية عديدة . ونجد فوق البوابة الوسطى المعروفة بـ « اورطا قابي » عبارة : « لا اله الاّ الله ومحمد رسول الله » . وفي المتحف العسكري النمساوي في مدينة فينّا احدى عشرة راية عثمانية استولى عليها النمساويون من الجيوش العثمانية في القرن السابع عشر ، وذلك عندما قام الأتراك بمحاولاتهم الفاشلة الثانية لافتتاح مدينة فينّا . وتتفاوت أحجام هذه الرايات وتتعدد ألوانها ، فمنها الاحمر والابيض او القرمزي والأخضر . لكنّ هنالك امراً واحداً مشتركاً بينها ، وهو ان على حواشي الرايات آيات قرآنية عربية مطرزة مثل « بسم الله الرحمن الرحيم » ، او « لا اله الاّ الله ومحمد رسول الله » ، او « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ، او « نصر من الله وفتح قريب » . فليس في هذه الرايات أثر او طابع تركي ، بل عربي اسلامي .

واذا اردنا ان نسوق دليلا آخر على اهمية اللغة العربية ومنزلة الاسلام في التاريخ العثماني — اذا كان هنالك من حاجة إلى المزيد من الأدلة — فما علينا سوى ان ننظر في اللوحات التي كانت تكتب عليها اسماء السفن والبواخر العثمانية . ففي الاستانة اليوم قرابة

ثلاثين لوحة نقشت عليها اسماء عربية « سليمية » و « فتحيّة » و «مجيدية » و « محمودية » . ويبدو ان سفن السلطان سليمان القانوني كانت ترفع رايتين خضراوين ، واحدة على راس السارية في وسط السفينة ، والثانية على رأس عمود قطري يبرز مائلا في منتصف السارية . وعلى الراية الاولى صورة سيف طويل ذي حدّين باللون الابيض وفوقه « لا اله الاّ الله ومحمد رسول الله » ، وعلى زوايا الراية الأربع اسماء الخلفاء : ابو بكر وعثمان وعمر وعلي .

مما لا شك فيه ان الاسلام كان اهم عامل يجمع العرب والاتراك في رابطة متينة ، طيلة اربعة قرون . فقد كان العثمانيون الاتراك مسلمين ، وكان السلطان يلقّب « بالغازي » ، او « بالمجاهد في سبيل الدين » ، او «بسيف الله»، او « بحامي المؤمنين وملاذهم »[٢١]. وقد وجد العرب أنفسهم جزءاً من اعظم واقوى امبراطورية اسلامية عرفت منذ ظهور الاسلام . وبالرغم من ان الظروف التي دفعت بالمتوكل على الله ، آخر خليفة في عهد المماليك في مصر — وكان دمية في ايديهم — لتسليم الخلافة إلى السلطان سليم ، اذا كان هنالك حقاً من تسليم ، كانت ظروفاً غامضة ولم يتعرّض لذكرها مؤرخ معاصر [٢٢] ، فان هنالك حقيقة ظاهرة وهي ان السلاطين العثمانيين اصبحوا ورثاء للخلافة مدة اربع مئة سنة [٢٣] . كذلك اصبحوا « حماة » الحرمين : مكة والمدينة . وكان السلطان منهم يدعو نفسه « خادم الحرمين الشريفين » وذلك بعد ان تسلّم السلطان سليم مفاتيح المدينتين من يد شريف مكة ، السيد بركات ، كرمز للطاعة والولاء .

وإذن ، فان كون الامبراطورية العثمانية امبراطورية «تركية » لم يكن في نظر العرب المسلمين حتى مطلع القرن العشرين ، وبعد ان اصبحوا يشعرون سياسياً بقوميتهم العربية ، امراً ذا بال ، ما دامت هذه الامبراطورية التي يعيشون في كنفها امبراطورية اسلامية . فان الاتراك وغالبية العرب الساحقة كانوا يشعرون انهم اعضاء في

امة اسلامية عظيمة يربط بينهم دين واحد وولاء لحاكم مسلم هو السلطان العثماني ، البادشاه الخليفة الذي كان « نائب الله على الأرض » ، و« امام المسلمين » ، و« عالم بناه » — اي ملاذ العالم ، و « ظل الله » ، و « خادم الحرمين الشريفين » ، و « حامي القدس الشريف وحاكمها » (٢٤) . وقد استبدل اسم عاصمة هذه الامبراطورية ، القسطنطينية ، باسم آخر : « اسلامبول » (عوضاً عن استانبول التي ربما كانت كلمة اغريقية : « ايس— تن — بولن ومعناها إلى المدينة) اي حيث « يزخر » او « يغزر » الاسلام (٢٥) . والجدير بالملاحظة ان لفظة « تركي » في اذهان الاوربيين الذين تناولوا الامبراطورية العثمانية بالدرس كانت تشمل جميع المسلمين الذين يقطنون في الامبراطورية بقطع النظر عن اصلهم العرقي (٢٦) . وكانت لفظة « عربي » تطلق بنوع خاص على البدو الرحل في الصحراء .

وليس صواباً القول إن العرب المسلمين ظلوا طوال اربع مئة سنة امة مستضعفة تحت نير الاتراك ، او ان البلدان العربية نهبت خيراتها وخيّم عليها الفقر من جرّاء الاحتلال التركي . كذلك ليس صواباً القول ان العرب المسلمين لم يكن يسمح لهم ان يتقلدوا سلاحاً او ان ينضووا تحت العلم العثماني للخدمة العسكرية . ذلك لان جيوشاً عربية وضباطاً عرباً من ذوي المراكز العسكرية العالية كانوا يعملون في الجيش العثماني ، وقد برهنوا على قدرة ومهارة في المعارك الحربية (٢٧) . وقد شغل عدد كبير من العرب وظائف عالية حساسة في الامبراطورية العثمانية ، لكن من العسير وضع قائمة باسمائهم ، وما ذلك إلا لان دينهم وتربيتهم التركية واسماءهم كانت تحول دون تمييزهم عن الاتراك . فقد كتب الجنرال نوري باشا السعيد ، الذي كان رئيساً للوزارة العراقية مراراً عديدة ، يقول : « كان العرب ، كمسلمين ، يعتبرون شركاء للاتراك . كانوا يشتركون معهم في الحقوق والواجبات بدون تمييز عنصري .

وكانت الوظائف العليا في الدولة ، سواء العسكرية أم المدنية ، مفتوحة للعرب . وقد كان للعرب ممثلون في مجلسي البرلمان العثماني ، أصبح كثيرون منهم رؤساء وزارة . ومنهم من كان « شيخ الاسلام » ومن اصبح قائداً عسكرياً او والياً ، فكنت ترى الموظفين العرب في جميع دوائر الدولة » (٢٨) . والواقع ان الاتراك كانوا ، عندما يتكلمون عن العرب ، يقولون عنهم انهم « قوم نجيب » . كذلك كان العثمانيون ، في بادىء امرهم ، ينظرون إلى الولايات التي يتكلم اهلها العربية « نظرة اكرام لم ينظروا بها إلى سائر الولايات التي دخلت في امبراطورية السلطان — وذلك لسبب واضح وهو ان سكان الولايات العربية يتكلمون اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، واكثرهم كانوا مسلمين » (٢٩) .

وليس هنالك من دليل تاريخي على صحة ما يشاع في القرن العشرين بان الاتراك وحدهم المسؤولون عن « التخلف » وعن « التأخر الحضاري » الذي ألمّ بالاقطار العربية ، طوال اربع مئة سنة . بل يبدو ان بعض البلدان العربية أفادت في القرون الأولى من الاحتلال التركي . ويقول جب وبوون (Gibb and Bowen) « ان سوريا ، اكثر من اية ولاية اسيوية اخرى ، افادت مادياً من ضمّها إلى الامبراطورية العثمانية نتيجة للعلاقات التجارية التي اقامتها مع بلدان اخرى . وكانت سوريا ايضاً تتمتع بنظام اجتماعي واقتصادي وفّر لها شيئاً من الحياة المزدهرة » (٣٠) . وقد يكون الواقع ان مصائب العرب ، حتى في عهد السلطان عبد الحميد ، لم تكن متأتية من شدّة الحكم التركي وقسوته بقدر ما كانت نتيجة لعدم سطوة الحكم التركي وقدرته على اثبات وجوده . ومن الانصاف القول ان الاتراك لم يحاولوا قط دمج العنصر العربي او تتريكه الاّ بعد استيلاء جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم سنة ١٩٠٨ . وبصورة عامة يبدو ان العرب كانوا ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، يعانون ضروباً من البلاء على ايدي رجال

الاقطاع ، ويقاسون الشقاء بسبب مشاحناتهم الداخلية وصراعهم ضد الباشوات . فكانت الانقسامات الداخلية ، والانظمة القبلية ، والاقطاع ، والتنافس بين العائلات التي كانت تتولى الحكم ، فضلا عن الفردية المتطرفة ، من اسباب التفرقة والضعف . ثم ان الأسس التي قامت عليها المؤسسات السياسية والاجتماعية في البلاد العربية كانت اسساً اسلامية دينية ، وان ايمان العرب المسلمين بقدسية اللغة العربية وتفاخرهم بذكرى « ماضيهم الذهبي » وبفتوحات عسكرية مذهلة في الفترة الأولى بعد ظهور الاسلام ، قد خلق في العربي شعوراً بتفوق العرب وعظمتهم ، مما دفع به إلى نوع من العزلة الاجتماعية والسياسية ، واقعده عن الرغبة في تغيير تفكيره واسلوب حياته وفلسفته واستبدالهما بتفكير جديد واسلوب جديد . إذ كان يعتبر كل جديد بدعة غير مرغوب فيها ، تهب عليه من اقطار غير اسلامية .

يقول الاستاذ برنارد لويس : « كانت الامبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرّس قواها في سبيل تقدّم شوكة الاسلام وحمايته ضدّ اعتداء خارجي . وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون تقريباً في حرب مستمرة ضدّ الغرب المسيحي ، اولا لمحاولة فرض حكم اسلامي على جزء كبير من اوربا ، وهي محاولة رافقها النجاح ، وثانياً لشنّ حرب دفاعية تأخيرية مديدة تقف في وجه الهجوم المعاكس الذي قام به الغرب . وكانت الامبراطورية العثمانية ، في نظر الرجل العثماني التركي ، بمثابة الاسلام ذاته .وفي التواريخ العثمانية ، عندما يتكلم المؤرخون عن ولايات الامبراطورية يشيرون اليها بقولهم انها « دار الاسلام » وعندما يذكرون جيوشها يقولون عنها انها جيوش الاسلام ،

ورئيسها الديني « شيخ الاسلام » . وكانت الشعوب التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية تعتبر ذاتها ، أولا وآخراً ، شعوباً اسلامية . وكانت لفظة « عثمانية » تعني اسم السلالة المالكة ، كما نستعمل نحن الدولة الاموية والعباسية نسبة إلى العائلة المالكة . ولم تصطبغ لفظة « عثمانية » بصبغة قومية ذات مدلول قومي الاّ في القرن التاسع عشر ، وذلك تحت تأثير الفكرة الليبرالية الاوروبية » (٣١) .

الفصل الثاني
الحكومة العثمانية في البلدان العربية

لكي يفهم المرء طبيعة الادارة الحكومية في الامبراطورية العثمانية ، سواء أكانت هذه الادارة في البلدان العربية ام في سواها من الولايات العثمانية ، عليه ان يذكر ، اولا ، ان الحكم العثماني كان في روحه وفي مبادئه حكماً اسلامياً ، وعليه ان يذكر ، ثانياً ، انه كان ينبغي للحكام ان يسنوا شرائع وان يضعوا قوانين خاصة لحكم الرعايا من غير المسلمين وتنظيم امورهم ، ولحكم الجاليات الأجنبية التي كانت تعيش في كنف الامبراطورية العثمانية . وليس لنا في هذه الدراسة المحدّدة الاهداف ان نسهب في وصف الادارة الحكومية المعقدة التي كانت تتمشى عليها الامبراطورية العثمانية ، كالمؤسسات الحكومية المركزية الشديدة التعقيد — فضلا عن سلطة السلطان ووزرائه ونفوذ البلاط الملكي — والموظفين الكتبة ، اي « اهل القلم » و « أهل السيف » ، والمؤسسات الدينية التي كان يرئسها شيخ الاسلام ، يعاونه في ذلك العلماء ، وهو الذي كان يعتبر حامي الشريعة الكريمة وحافظها الأمين ، والذي لم تكن رتبته تقلّ شأناً عن رتبة الصدر الاعظم [١] . لكن ينبغي لنا ان نلقي نظرة عجلى على الخطوط الرئيسية التي كانت تتميز بها الحكومة العثمانية .

كان الحكم العثماني يقوم اساساً على مبادىء الشرع الاسلامي بواسطة محاكم دينية يشرف عليها شيخ الاسلام الذي كانت له السلطة العليا في الامور الدينية . أما الشارع ، في الاسلام ، فهو الله ذاته . وقد أعلن الله شريعته هذه إلى الرسول الذي اعلنها إلى

البشر ، اولا بالقرآن الكريم ثم بالسنّة . وعليه ، فان الشريعة « مقدّسة معصومة لا تتغيّر » والحكومة الاسلامية حكومة من الله . ومن واجب كل مسلم ، دينياً واجتماعياً ، ان يخضع لهذا الحكم الذي يسوّي بين المسلم واخيه . « إن مبدأ الوحدة والنظام الذي يعرف في المجتمعات البشرية غير الاسلامية بمبدأ الاجتماع المدني ، او بالمبدأ المدني او بالدولة يتجسّد في الاسلام بالله . الله هو القوة العظمى التي تعمل للخير العامّ . فالخزينة هي خزينة الله ، والجيش هو جيش الله ، حتى ان الموظفين في الدولة هم عمّال عند الله » [٢] .

بعد وفاة الرسول ، وفي غضون مئتي سنة ، ظهرت اربعة مذاهب فقهية لتفسير القرآن والسنّة . وكان مؤسسو هذه المذاهب اربعة من عظام الائمة المتضلعين من الفقه . وتعتبر تعاليمهم الشرعية وتفسيراتهم اساساً لفهم الشريعة وتطبيقها في مختلف انحاء العالم الاسلامي . وقد عُرِف كل مذهب منها باسم مؤسسه ، وهي الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي . وعندما اصبحت الشريعة الاسلامية القانون الأساسي للامبراطورية العثمانية اتبع الاتراك المذهب الحنفي واقفلوا باب الاجتهاد [٣] .

غير ان السلاطين كانوا ، بين حين وآخر ، يصدرون ارادات سلطانية وفرمانات (اي اوامر سلطانية) وقوانين [٤] . ولم يكن لهذه القوانين — وهي مجموعة التشريع العلماني الوحيد في الامبراطورية العثمانية — ان تتعارض ، بأي شكل من الاشكال ، مع مبادىء الشرع ، بل كان ينبغي ان تنسجم معها . وكانت هذه القوانين مستمدّة من مصادر الشريعة الاسلامية الثلاثة ، اي الاجماع والقياس والاجتهاد . وكانت هذه تشكل مجموعة القوانين الثانية التي كانت بموجبها تحكم الامبراطورية رعاياها [٥] .

اما مجموعة القوانين في الفئة الثالثة ، فقد كانت « قوانين الامتيازات الاجنبية » التي كانت الامبراطورية العثمانية تنظّم

بموجبها امور الجاليات غير المسلمة ، والجاليات الاجنبية . ولهذه القوانين طابع دولي . ولم يكن الشرع الاسلامي يُطبّق على الجاليات غير المسلمة في الامبراطورية العثمانية الاّ في حالات نادرة ، لانها اعتبرت خارج النطاق الذي يشمله الشرع . وعندما احتلّ محمد الثاني مدينة القسطنطينية وجد ان للجاليات المسيحية والجاليات غير المسلمة في المدينة انظمتها القضائية الخاصة بها ، كما وجد ان لها محاكمها الخاصة بها ايضاً .وكان الرئيس الديني لتلك الطائفة ، او من ينوب منابه ، هو القاضي الذي يتقاضى عنده الناس . وكان بعض قوانينهم مبنيا على القانون الاغريقي الروماني ، وبعضها الآخر على القانون البيزنطي المدني الذي وضعه يوستنيان . كذلك وجد في المدينة عدداً كبيراً من الجاليات الاجنبية ، ولكل منها وضع قانوني خاصّ ، وامتيازات منحها اياها الامبراطرة البيزنطيون . وكان لهم كذلك محاكم خاصة وقوانين محاكمات خاصة ، إلى جانب تمتّعهم بمختلف الامتيازات والحصانات . (٦)

وفور فتح القسطنطينية ، أقر « الفاتح » ، بناء على اعترافه بالعرف الذي اخذ به اسلافه من السلاطين ، مبدأ الاستقلال الذاتي للطوائف الدينية من غير المسلمين ، ووضع احكاماً خاصة للمقيمين من الاجانب في امبراطوريته ، مما وفّر لهؤلاء تصريف امورهم بطريقتهم الخاصة (٧) . ومنح الجاليات الاجنبية الكبيرة التي كانت تتعاطى التجارة في الامبراطورية العثمانية امتيازات خاصة . وقد قضت المصالح الاقتصادية للامبراطورية ان تشجّع مثل هذه الجاليات (٨) . وهذه الضمانات والامتيازات اصبحت تعرف فيما بعد « بالامتيازات الاجنبية (٩)» . ومخطوطة اجرتون (Egerton) رقم ٢٨١٧ الموجودة في المتحف البريطاني تذكر الامتيازات الخاصة الممنوحة للتجار والمقيمين « في غلاطة (وهي ضاحية من ضواحي القسطنطينية) من أهل جنَوا بعد ان سقطت القسطنطينية في ٢٩ ايار ١٤٥٣ في ايدي الاتراك . وتاريخ اصدار هذه

الامتيازات هو الاول من شهر حزيران من السنة ذاتها (١٠) . وقد عقب هذا اعطاء امتيازات اخرى اهمّها الامتياز الذي اعطي لفرنسيس الأول ملك فرنسا سنة ١٥٣٥ — وهو اول ملك اوروبي اغدق عليه السلطان سليمان القانوني مثل هذا الامتياز — الذي بموجبه حصل الفرنسيون على امتيازات تجارية واسعة في الامبراطورية العثمانية (١١) . وبعد انقضاء ثماني سنوات ، راح فرنسيس الأول « يتعاون ، وبصورة عملية ، مع السلطان سليمان القانوني في المعارك البحرية ضد آل هبسبورغ في البحر الابيض المتوسط » (١٢) . وفي سنة ١٥٨٠ حصل البريطانيون رسمياً ، في عهد الملكة اليزابث ، على امتيازات خاصة ، عندما عيّن وليم هاربورن (William Harborne) اول سفير بريطاني لدى الباب العالي .

اما فيما يتعلق بالادارة التي تطبق الاحكام في الامبراطورية العثمانية ، فقد قضت الامتيازات الممنوحة للجاليات الاجنبية بتشكيل محاكم قنصلية خاصة ذات صلاحية تامة للنظر في الدعاوي بين الرعايا الذين ينتمون إلى هذه القنصلية او تلك . وكان رعايا الدول الاجنبية المقيمون في الامبراطورية العثمانية من غير المسلمين لا يخضعون للقوانين العثمانية ، بل كانوا يتمتعون باحكام خاصة بهم. وكان القاضي في هذه المحاكم القنصلية القنصل نفسه ، يعاونه مستشاران . وكانت الاحكام الصادرة عن هذه المحاكم تنفّذ على الارض التركية . وعلى هذا الاساس نستطيع ان نفهم لماذا طلب القنصل البريطاني في قبرص من حكومة بلاده ان تسمح له بان يبني سجناً بالقرب من مقرّ القنصلية (١٣) .

والواقع — إلى ان يظهر دليل جديد يناقض هذا الواقع — ان البلدان العربية التي انتزعها السلطان سليم من يد المماليك لم تكن تحكم ادارياً ، وبصورة مباشرة ، من القسطنطينية . يدل على هذا « دراسة ملفّات الدوائر الرسمية ، وقوائم تقدير الواردات المتعلقة بسوريا والعراق ومصر » (١٤) . وفضلا عن هذا فان

الجزيرة العربية ، مهد الاسلام ، لم تخضع للحكم العثماني المباشر . « ولم يكن الحرمان الشريفان ، مكة والمدينة ، يدفعان خراجاً بل كان الأمر على نقيض هذا ، اذ كانت الحكومة التركية ترسل اليها سنوياً إعانة مالية كبيرة على حساب مصر » (١٥) .

وقد أعطي الامراء الاقطاعيون والزعماء المحليون في البلدان العربية ، لاسيما في لبنان ، استقلالا داخلياً يكاد ان يكون استقلالا ناجزاً . وبعد ان أتمّ السلطان سليم فتح الديار المصرية ، رجع إلى دمشق حيث أقام الغزالي والياً على سوريا ، بما فيها ولاية القدس وغزة وصفد والكرك . اما في « جنوبي سوريا » — وكان جنوبي سوريا يشمل لبنان — فان جميع الزعماء الاقطاعيين ادّوا الطاعة له ، باستثناء الأمراء التنوخيين . اذ ظل هؤلاء على ولائهم للمماليك الذين حاربوا السلطان سليم في معركة مرج دابق . وقد تركت شخصية الامير فخر الدين الوقورة اثراً عميقاً في نفس السلطان . وكان لقب الأمير فخر الدين آن ذاك « سلطان البر » « واامير لبنان » ، فاقرّه السلطان سليم اميراً على الشوف . ومن جملة الامراء الذين اقرّهم السلطان على اماراتهم الاقطاعية الأمير عسّاف منصور التركماني في كسروان وجبيل ، وامراء بني سيفا في عكار وطرابلس (١٦) . وأجري هذا التدبير على سائر المناطق حيث ترك الامراء الاقطاعيون يتولون شؤون اقطاعهم . وعيّن السلطان سليم حكاماً على كلّ من حلب وحمص وطرابلس وغيرها من المدن الساحلية . وقد كتب جبّ وبوون (Gibb and Bowen) قائلين : « ان الطابع المميّز للادارة العثمانية كان المحافظة على القديم . وكانت جميع المؤسسات الحكومية تهدف إلى ابقاء الوضع الراهن على حاله . وبما ان القوانين التي سنّها السلطان سليم وسليمان كانت تعتبر تجسيداً لأسمى حكمة سياسية ، فلم يعد هناك من معنى لاي تعديل في القوانين ، اللّهم الاّ اذا كان الغرض من التعديل ازالة الفساد والشرّ الذي قد يحصل فيما بعد » (١٧) . لكن المحافظة على

الوضع الراهن كان يعني الابقاء على الاضطرابات الداخلية والمنازعات الثأرية الناجمة عن تنافس الأمراء وتحسادهم والتي كانت تؤدّي إلى الثورات والحروب الدامية . وكان السلطان العثماني ، في آخر الأمر ، يثبت سلطته بواسطة تدخله العسكري في مثل هذه المنازعات . وقد ظل هذا النظام من الحكومات المحلية الاقطاعية في سوريا ولبنان ، وعلى رأسه والي تركي يعضده جيش تركي ، هو النظام السائد حتى اواخر القرن التاسع عشر .

وفي القرن التاسع عشر ، ادخلت الدولة العثمانية عدداً من الشرائع والقوانين العلمانية وعمّمتها في طول البلاد وعرضها . وقد جاء هذا التشريع العلماني الحديث نتيجة لعدد من العوامل ، منها وقع الفكر الغربي على الامبراطورية العثمانية ، والضغط السياسي الذي كانت الدول الغربية تمارسه في علاقتها مع الاتراك ، والمحاولات المختلفة التي قام بها الاتراك انفسهم لاصلاح مؤسسات الدولة العثمانية ، لاسيما « التنظيمات » . اما قانون الاحوال الشخصية فقد بقي خاضعاً لاحكام الشريعة الاسلامية . وعند مستهل هذا القرن أنشأت الدولة العثمانية جمعية للتجار بموجب قانون كان يعرف باسم « براتلي » ، وذلك رغبة من الدولة العثمانية في مساعدة التجّار الوطنيين للوقوف في وجه المنافسة التي كان يقوم بها التجار الاجانب الذين كانوا يتمتعون بامتيازات وبضمانات ضمنها لهم قانون « الامتيازات الاجنبية » (١٨) . وقد منح هذا القانون التجار الوطنيين الامتيازات والضمانات ذاتها التي كان يكفلها قانون الامتيازات الاجنبية للتجار الأجانب . وفي سنة ١٨٤٠ صدر قانون الجزاء المبني على قانون الجزاء الافرنسي . وفي السنة ذاتها انشئت محكمة خاصة عرفت « بمجلس الاحكام العدلية » ، مهمتها النظر في الدعاوي التي تقام ضدّ كبار الموظفين في الدولة . وفي ١٨٥٠ صدر قانون التجارة ، وفي ١٨٦١ انشئت محاكم تجارية لتنفيذ احكام هذا القانون . وهنالك قانون مدني آخر يجب ذكره في جملة القوانين

المدنية التي أتينا على ذكرها آنفاً ، نعني به قانون الجنسية ، أو التجنّس ، الذي صدر في ١٩ كانون الثاني ١٨٦٩ ، والذي كان يحدّد الاحوال والظروف التي يستطيع الفرد بموجبها ان ينال الجنسية التركية او ، اذا كان تركياً ، ان يفقدها . وتنصّ المادة الأولى من هذا القانون على ان كل من كان والداه عثمانيين او كان ابوه وحده عثمانياً هو بحكم القانون عثماني (١٩) .

وفي سنة ١٨٦٩ قررت الدولة العثمانية تدوين احكام القانون المدني في مجلّد واحد اطلق عليه اسم « مجلة الاحكام العدلية » ووقفت على جمعه لجنة خاصة اسمها « جمعية المجلة » مؤلفة من علماء الدين وسواهم من علماء القانون . وقد احتوت المجلة ١٨٥١ مادة واتبعت اسلوب القوانين العلمانية الحديثة . ويقول الدكتور المحامي صبحي محمصاني : « وكانت مجلة الاحكام العدلية فتحاً جديداً في تاريخ تدوين الفقه الاسلامي وفي اسلوب دراسته ونمط التأليف فيه . فبعد صدور المجلة اخذ الفقهاء يعنون بدرسها وشرحها ... » (٢٠). واخيراً ، اي في سنة ١٨٧٩ ، تمتّ اعادة تنظيم السلك القضائي ، وذلك بانشاء وزارة للعدل ومحاكم نظامية (٢١). وقد بني هذا التنظيم الجديد للقضاء على النظام الافرنسي ، وكان في الوقت ذاته خطوة هامة نحو وضع الامبراطورية العثمانية على اسس عصرية .

ويقول الدكتور صبحي محمصاني : « وبما ان معظم سكان العالم العربي من المسلمين ، وبما ان الاسلام قد سنّ شريعة لا تزال برأي غالبية السكان مقدسة ، فقد خضعوا لهذه الشريعة كقانون عام في زمن الخلافة العربية وفي زمن الخلافة العثمانية قبل صدور القوانين العثمانية الجديدة ... وإلى جانب الشريعة الاسلامية اخذت معظم البلاد العربية تتأثر بالتشريع الغربي تأثراً مختلفاً باختلاف كل بلد من هذه البلاد . فمعظم البلاد العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني بدأت منذ أواسط القرن التاسع عشر تخضع لطائفة من

القوانين العثمانية الجديدة . وكان بعض هذه القوانين مقتبساً عن القوانين الاوروبية ، وكان بعضها الآخر مستمداً من الشريعة الاسلامية ... » (٢٢) . وكذلك شرع الباب العالي في اعادة تنظيم الوحدات الادارية في جميع انحاء الامبراطورية . فقد كان النظام الاداري العثماني الذي اقتبس الاتراك مبادئه الاساسية عن الفرس والبيزنطيين (الروم) والسلاجقة والمماليك يشبه هرماً على رأسه اصغر وحدة ادارية ، هي القرية ، اما قاعدة الهرم فقد كانت الأيالة التي اصبحت تعرف فيما بعد بالولاية . وكانت مجموعة من القرى تشكل ناحية على رأس ادارتها مدير ، ومجموعة من النواحي تشكل قضاء على رأس ادارته قائمقام . وكان قضاءان ، او اكثر ، يشكلان سنجقاً (او لواء) يحكمه متصرف . وكانت جميع هذه الاجزاء التي جئنا على ذكرها اجزاء من المقاطعة الكبيرة ، الولاية ، التي كان يحكمها وال يلقب بالباشا ويتمتع بصلاحيات قضائية واسعة . فقد كان « يجمع في شخصه السلطة العسكرية والسلطة المدنية . وكان من واجباته الحفاظ على النظام والأمن ، وجمع الضرائب ، ودفع الخراج المقدّر لتلك الولاية إلى الحكومة المركزية في استانبول ، كما انه كان مسؤولا ، بوجه عام، عن الادارة العامة » (٢٣) .

يعود الفضل في إعادة تنظيم الولايات العثمانية ، اولا إلى الاصلاحات الناجحة التي قام بها مدحت باشا في ولاية الدانوب عندما كان والياً عليها (١٨٦٥ — ١٨٦٨) . وبموجب هذه الاصلاحات اصبح التقسيم الاداري العثماني يشبه التقسيم الاداري الافرنسي وقد اعتبرت اصلاحات مدحت باشا هذه جزءاً من قانون الولاية الذي سنّ سنة ١٨٦٤ والذي عدّل سنة ١٨٧١ (٢٤) .

كانت الولايات العربية في الشرق الادنى ، حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، تشمل الموصل وبغداد وحلب وصيدا والشام . وكان عدد السكان في المدن الرئيسية يقدر بنصف مليون (٢٥).

اما ولاياتا الجزيرة العربية فكانتا الحجاز واليمن . وبعد الحرب الاهلية في جبل لبنان والشام سنة ١٨٦٠ ، لم تعد ولاية الشام تشمل لبنان . فانه بناء على « البروتوكول » الذي رفعه خمسة سفراء إلى الباب العالي — وهم سفراء بريطانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا — بشأن لبنان ، والذي وافق عليه الباب العالي ، فُصِل لبنان عن سوريا ، واصبح سنجقاً مستقلا استقلالا ذاتياً يحكمه متصرّف مسيحي (٢٦) . وكان البروتوكول يشمل ما عرف بـ « النظام الاساسي » (Règlement Organique) الذي صدر في ٩ حزيران ١٨٦١ والذي استعيض عنه بقانون ٦ ايلول ١٨٦٤ ، والذي عدّله الباب العالي في ٢٨ تموز ١٨٦٨ . وهكذا بدأ نظام المتصرفية وعهد المتصرفين في لبنان (٢٧) .

وفي ١٨٨٧ ، وبفضل المركز الخطير الذي تحتله مدينة القدس ، أنشأ الباب العالي الوحدة الادارية الجديدة في جنوبي فلسطين ، وهي سنجق القدس . وقد فصل هذا السنجق عن ولاية الشام ووضع تحت ادارة الباب العالي مباشرة . وفي هذه الاثناء ، كانت بيروت تتسع بسرعة وتزدهر ازدهاراً تجارياً واسعاً ، فأنشأ الباب العالي سنة ١٨٨٨ ولاية بيروت التي كانت تشمل سنجق اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس . وهكذا اصبحت سوريا ، منذ سنة ١٨٨٨ ، مجزأة إلى ثلاث ولايات (حلب والشام وبيروت) وإلى سنجقين منفصلين عنهما هما لبنان والقدس .

وبالرغم من ان « قانون التجنس » كان تغييراً خطيراً في نظرة الاتراك إلى فكرة القومية ، فان الفرد لم يكن مواطناً في الامبراطورية بل كان من رعايا السلطان . وفي حالات خاصة كان بعضهم من رعايا سواه ، او من اللائذين بالقنصليات الاجنبية للحماية (٢٨) . وكان رعايا السلطان فئتين : المسلمين وغير المسلمين . وكان الرعايا غير المسلمين ، لاسيما النصارى ، يعتبرون من اهل الذمة على انهم من اهل الكتاب . وكانوا يعرفون ايضاً

بالرعية ، وهي كلمة ، بحسب مدلولها اللغوي ، كلمة محترمة . فهي مشتقة من « رعى » ، والرعية هم الذين يتعهدهم الراعي (٢٩) .

لكن هذه اللفظة « رعية » التي كانت ، في يوم من الايام ، تطلق على جميع رعايا السلطان (٣٠) اصبحت ، عندما كانت تطلق على النصارى ، لاسيما في فترات التخلّف والضعف ، تعني ، في لغة القوم ، مركزاً اجتماعياً فيه شيء من الحطّة والمهانة اذا ما قيس بمركز المسلمين . كان النصارى ، في نظرهم ، طائفة تحتل مرتبة ثانوية ، انما كانت حياتها واموالها في « أمان » ، اي انها كانت بمأمن بفضل السلطة التركية وعطفها . ولم يكن بالامكان المساواة بين النصراني وبين المسلم . وبالرغم من ان هذه التفرقة ألغيت رسمياً بموجب « الخط الهمايوني » الذي صدر سنة ١٨٥٦ (٣١) فقد ظلّ نظام « الملّة » معمولا به طوال القرن التاسع عشر .

ليس للفظة « ملّة » ما يقابلها في المصطلح السياسي عند الغرب . اما في التاريخ العثماني فان لفظة « ملل » كانت تعني الطوائف الدينية من غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في الامبراطورية العثمانية ، والذين منحهم السلطان محمد الفاتح قسطاً كبيراً من الاستقلال الذاتي الثقافي والاجتماعي . وكان اهم « الملل » « ملة الروم » التي تشمل جميع الروم الارثوذكس الذين كانوا من رعايا السلطان . وتأتي بعدها الملة الأرمنية والملة اليهودية . اما « قومية » كلّ رعيةٍ في هذه الملل فقد كانت ديانة تلك الملة . وقد كتب شفريون (Chevrillon) يقول : « ان الافراد الذين ينتمون إلى عرق واحد في سوريا ينقسمون ، بفضل الاختلاف الديني والعقائدي بينهم ، إلى فئات متميّزة يطلقون عليها لفظة « شعوب » (Nation) . وهم يختلفون ، بعضهم عن بعض ، اختلاف الشعوب الاوروبية ، بعضها عن بعض (٣٢) » . ويقول اللورد دوفرن (Lord Dufferin) في رسالة مؤرخة في ٢٥ نيسان سنة ١٨٦١ بعث بها من بيروت إلى السير هنري بولور (Sir Henry Bulwer) « ... في جميع انحاء

الامبراطورية التركية تعتبر الجاليات الدينية (الملل) قوميات متميّزة [٣٣] » . وفي المراسلات السياسية الفرنسية المتعلقة بالولايات الاسيوية في الامبراطورية العثمانية نجد اشارات عديدة إلى « الأمة المارونيـــة » (La Nation Maronite) « وأمّة الروم الكاثوليك » . وعند الكلام عن البطريرك الماروني كانوا يشيرون اليه بقولهم « رئيس الامة المارونية » [٣٤] . وقد كتب السيد دي بتيتفيل (de Petiteville) ، القنصل الافرنسي العام في بيروت ، في احدى رسائله يقول : « ... في هذا البلد ، سوريا ، حيث لفظة « الدين » تعتبر مرادفاً للفظة « قومية » او لكلمة « وطن » [٣٥] . وهكذا ، فلم يكن العرق او « القومية » هو الذي يفرّق بين جماعة واخرى ، بل الدين . وكانت الهوية السياسية لكل الرعايا هي « العثمانية » ، اي اعتبار المواطن في الامبراطورية العثمانية « عثمانيّاً » ، امّا « قوميته » فكانت الدين الذي ينتمي اليه . ان فكرة القومية العلمانية في غربي اوربا كما كانت اوربا تفهمها في القرن التاسع عشر لم يكن لها بصورة اجمالية اي اثر في التفكير السياسي في الامبراطورية العثمانية [٣٦] .

الفصل الثالث

الحركات الاستقلالية في الاقطار العربية

في القرن التاسع عشر كانت الامبراطورية العثمانية قد دخلت في الطور الحاسم من تاريخها . هذه الامبراطورية العظيمة التي كانت في ذات يوم تمتد من ابواب فينّا إلى شواطىء بحر قزوين ، ومن الخليج الفارسي إلى عدن ، وعبر البحر الاحمر وشمالي افريقيا ، إلى مقربة من شاطىء الاوقيانوس الاطلسي ، وجدت نفسها في الطور الاخير من التقهقر والانحلال [١] . فقد برزت جميع نقائص نظامها الاوتقراطي وشروره . ولا يمكن لنا ان نفهم معنى تيقظ الوجدان العربي ، بالنسبة إلى مصيره ومستقبله ، ما لم نفهم اولا تلك الاوضاع التي سبقت عصر النهضة العربية فهماً واعياً . فقد وجدت الامبراطورية انها تسير بخطى حثيثة نحو الانحلال النهائي ما لم تتخذ اجراءات فورية لبعث حياة جديدة في تنظيمها الداخلي وفي نظام ادارتها . ومنذ الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وما بعده ، اخذت جماعة من الشبان الاتراك المستنيرين تشعر ، شيئاً فشيئاً ، بضرورة اعادة الحياة إلى المؤسسات الهرمة والادارة البالية في امبراطوريتهم . وكانوا يسمون انفسهم « العثمانيين المحدثين » . وتعرف تلك الفترة التي كان يكافح فيها «العثمانيون المحدثون » لاصلاح الحال بعهد « التنظيمات » او « تنظيمات الخيرية » . ويبدو انّ هذا المصطلح الذي اطلقه الاتراك قد استعمل اولا في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) ، غير ان مشاريع الاصلاح الجذرية لم تتحقّق [٢] .

والحقيقة هي اننا لا نعرف ان احداً من السلاطين الذين اصدروا « الخط الهمايوني » كان يفكر جدياً في ان يصبح هو نفسه ذات يوم سلطاناً دستورياً، او كان يرضى بان يرى الدول الغربية تتدخل بشؤونه الداخلية . فكيف كان للسلطان ان يوافق على وضع قيود تحدّ من سلطته ، وهو امر يتنافى مع مركزه السامي وألقابه العديدة ، امثال « أمير المؤمنين » و « ظلّ الله على الارض » و « خليفة الرسول » و « سلطان البحرين » و « خاقان البرّين » و « من تشرّف الوجود بوجوده واشرق بدر السعادة في منتهى سعوده » (٣) .

وقد كتب هرولد تمبرلي (Harold Temperley) يقول : « كانت سلامة الامبراطورية التركية تتوقّف على ثلاثة عوامل : قدرة الاتراك على الاصلاح ، وقبول الرعايا المسيحيين بالرضوخ لقوانين الاصلاح ، ومدى استعداد الدول الغربية العظمى لمساعدة الاتراك على التطور او اعاقتهم عنه . ولم يكن احد هذه العوامل الثلاثة وحده كافياً .... غير ان الدول العظمى لم تكن تستطيع مساعدة تركيا ، لان تركيا وحدها هي التي تستطيع ان تنجّي ذاتها مما كانت فيه ، وان تستميل الرعايا المسيحيين إلى جانبها بواسطة الاصلاح . غير ان الاتراك ، كما سنرى ، ازدادوا ضعفاً على ضعف ، كما ازداد النصارى قوة على قوة ... » (٤) . وقد جاء شعور العرب بالنقمة على الاتراك في القرن التاسع عشر نتيجة لعوامل مختلفة . اما الاسباب المباشرة ، فقد كانت اولا فساد الحكومة العثمانية ، ثم التيارات الفكرية الغربية المختلفة . فأساليب التربية الغربية ، وتسرب الافكار السياسية الغربية ، وتعزيز العلاقات التجارية مع الغرب ، وادخال السلع والادوات الجديدة وما استحدث في شؤون المأكل والمشرب والهندام ، وازدياد السياحة في البلدان الغربية ، واحتكاك الشرقي بالغربي ، قد ترك في سكان الشرق الادنى اثراً أيقظهم شيئاً فشيئاً على عالم جديد يتميّز بالتقدمية والمنعة ، ولا يقاس بحالة الجهل والضعف اللذين كانا يخيّمان على

الامبراطورية العثمانية .

لكن القرن التاسع عشر لم يعرف « قضية عربية » في المحافل السياسية الدولية . وقليلا ما كانت لفظة « عرب » ذاتها تطلق في الكتب والوثائق على سكان الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية ، وانما كانت تطلق على بدو الصحراء ، وعلى سكان الأرياف في الشرق الادنى . وكان الناس يستعملون لفظتي « مسلم » و « مسيحي » للتمييز بين الفئتين الكبيرتين من السكان في هذه المنطقة . اما غالبية رعايا السلطان من المسلمين ، سواء أكانوا عرباً ام اتراكاً ، فقد عرفوا « بأخوان في الدين » ، باعتبارهم مسلمين قبل ان يكونوا اتراكاً او عرباً . ويقول رشيد رضا في مقاله في « المنار » بعنوان « الجنسيات في المملكة العثمانية » : « لم يوجد دين من الاديان ألّف بين شعوب وقبائل مختلفة في جميع روابط الجنسية وجعلها أمة واحدة وجنساً واحداً الاّ الدين الاسلامي . وقد بينا هذا مراراً فلا نعيده الآن ... ان العصبية الجنسية في هذا العصر قد دخلت في طور سياسي جديد ، وكان العرب آخر الاجناس شعوراً بها . لأن سوادهم الأعظم مسلمون لا يكادون يشعرون بغير الجنسية الدينية ... » (٥) .

وكتب ايضاً عبد الرحمن عزّام ، الامين العام سابقاً لجامعة الدول العربية في كتابه « الرسالة الخالدة » ، يقول :

« فالمؤمنون في جميع اطراف الارض اخوان لا تفرقهم الاوطان ولا العصبيات ولا المذاهب ولا المنافع ولا الخوف ولا المنعة ولا العبودية ولا سبب من الاسباب . للمسلم حقّ الاخوة على المسلم اينما حلّ واينما كانت الدار فلا جنسية غير الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسوله » . ثم يقول : « والدعوة المحمدية لا تعرف الوطنية والعنصرية بالمعنى الحديث ، فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية ، فهو يمتد مع العقيدة ، بل هو في الحقيقة وطن معنوي كما ان الدين امر معنوي .... والمسلم

اخو المسلم اينما كان ، جاوره ام تباعدت به الارض ، والمسلم اينما حل في دولة اسلامية فقد حلّ في وطنه ... » [٦] . وفضلا عن هذا « فان الاعراق البشرية المختلفة التي كانت تتألف منها الشعوب والرعايا لم تكن لها ان تندمج وان تنصهر في امة واحدة . وهذا لان الطبقة الحاكمة كانت... من جهة، تمثل السيطرة السياسية للاسلام ، ومن جهة اخرى كانت ، بسبب تركيبها ، في عزلة تامة عن الرعية المحكومة ، لا فرق إلى اي دين انتمى افرادها. » [٧] وفي الوقت ذاته كانت الشعوب المحكومة ، بدورها ، منظّمة في مجموعات شبه مستقلة كان ولاؤها ، كما اشار جبّ وبوون (Gibb and Bowen) « دينياً اكثر منه سياسياً » [٨] .

ومهما يكن من أمر ، فان المطالبة بالاستقلال الذاتي بدت بوادرها في اجزاء مختلفة من الامبراطورية العثمانية ، لاسيما في الجزيرة العربية ومصر ولبنان وسوريا ، لكن لأسباب متباينة . وكانت الخطوات التي كان المطالبون بالاستقلال يتخذونها ، كما كانت الاساليب التي يتبعونها ، تتوقف على مقتضيات الزمن وظروفه . وقد كان الوهابيون في الجزيرة العربية هم الذين قاموا بمحاولة ناجحة للقضاء على سيطرة الاتراك هناك . وكانت حركتهم حركة اسلامية صرفاً ، ولاسباب اخرى حركة ضدّ الغرب .وكان غضب الوهابيين وسخطهم ينصبّان ، قبل كل شيء ، على ما كانوا يعتبرونه التحلّل الديني ، وعلى الفساد في الحكم العثماني ، وعلى السلطان ذاته ، وعلى الاتجاه الاثيم الذي كان الاتراك يتجهونه نحو ادخال الاصلاح على نمط غربي [٩] . هذا ولم ينبر احد بعد لدراسة الاسباب والعوامل التي ادّت إلى ظهور العداء نحو الاتراك في الجزيرة العربية . انها ناحية مهملة في تاريخ العرب الحديث . ومن الحقائق المنسية ان ضربة كبيرة نزلت بالامبراطورية العثمانية المتداعية على يد الامير محمد آل سعود ، عندما دخل مكة سنة ١٨٠٦ وأمر ان يكون الدعاء باسمه في الصلاة الجامعة ، لا باسم السلطان سليم

الثالث . ويقول جان ريموند (Jean Reymond) الذي كان في تلك الفترة قنصلا لفرنسا في بغداد : « ان روح الفتح استأثرت بقلوب الجماهير فراحت تستعيد ذكرى تاريخ العرب المجيد القديم ، واخذت الاحلام تراودها برؤية امرائها متربعين على كرسي الحكم . والفقرة التالية تدلّل على صحة رأيي : امس قال احد الوهابيين ، وبلهجة نبيّ يتنبّأ : (لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربياً على عرش الخلافة . وكم طال علينا الزمن الذي قاسينا فيه مرارة العيش تحت نير مغتصب)[١٠] .

وبالرغم من ان الوهابيين غلبوا على امرهم لمدة من الزمن ، بين سنة ١٨١٠ و ١٨١٧ ، على يد محمد علي باشا ، الاّ انهم استمروا في تنظيم صفوفهم واعداد قوتهم ، ولو بروح هجومية اخفّ ، إلى ان استعادوا نشاطهم عند مستهل القرن العشرين وتمكنوا مرة اخرى ، في ١٩٢٤ ، من دخول مكة ظافرين .

اما الخطوة الثانية التي كانت تستهدف فصل العالم العربي عن السلطة العثمانية فقد اتخذها محمد علي باشا المصري عندما احتلت جيوشه ، بين سنة ١٨٣٠ و ١٨٤١ ، سوريا وتابعت زحفها حتى كوتاهيا في آسيا الصغرى . لكن ليس هنالك من ادلة تاريخية قاطعة على ان هذه الحركة كانت حركة وطنية عربية . فلم يكن هدف محمد علي باشا — الذي كان هو ذاته من اصل تركي — انشاء امبراطورية عربية تحلّ محلّ الامبراطورية العثمانية . وذلك بالرغم مما كان يدعيه ، ولاسباب محض شخصية ، من ميول عربية ، ومن رغبة في مساندة العرب . ذلك ان « قيام حركة عربية عرقية في مصر وسوريا قبل مئة سنة كان امر يتنافى مع التيار الفكري الشرقي في تلك الايام . فالعالم الذي وجد محمد علي نفسه فيه كان عالماً ينتمي إلى العصور الوسيطة ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى . فقد كان جميع المؤمنين يشعرون بانهم اعضاء في اخوة دينية كبرى ، يحسّ كل فرد فيها انه يقف على قدم المساواة مع اخيه المؤمن » [١١]

كان محمد علي باشا ، بشخصيّته الفذة وطموحه البعيد ، يهدف إلى جعل مصر بلداً مستقلا عن السلطان . ولعله كان يهدف ايضاً إلى الاستيلاء على الامبراطورية العثمانية عن طريق الفتح .وبالرغم من استيلائه على ولاية سوريا وحكمها قرابة عشر سنوات ، فانه عجز عن بلوغ هدفه النهائي ، إلى ان ارغمته بريطانيا برّاً وبحراً على التراجع والعودة إلى مصر . لكن بموجب فرمان صدر في ١ حزيران ١٨٤١ ، وبموجب المعاهدة الثانية المعقودة في لندن في تموز ١٨٤١ ، اعترف بمحمد علي حاكماً على مصر ، على ان يكون الحكم وراثياً في عائلته . وكان من المفترض ان يكون محمد علي خاضعاً للسلطان العثماني ، لكن مصر ، في الواقع ، كادت ان تصبح بلداً مستقلا استقلالا كاملا في ادارتها وسياستها واقتصادها وجيشها ، مما جعل محمد علي سيد بلاده .

اما العوامل التي كانت تعمل في لبنان على خلق روح العداء نحو الاتراك ، فقد كانت متعددة الجوانب . منها انتشار التعليم الغربي ، وتغلغل آراء الثورة الافرنسية ، واحياء اللغة العربية وآدابها ، وتأسيس المطابع ، وانشاء الصحف ، والسياحة في الخارج ، وعودة بعض المهاجرين اللبنانيين من اميركا الشمالية . لكن العامل الرئيسي لهذا الشعور العدائي نحو الاتراك هو ان المسيحيين كانوا يعتبرون انفسهم مواطنين غرباء في بحر شاسع من السيادة التركية . وبكلام بسيط ، لم يشعروا في ظل الحكم العثماني بان الحكومة العثمانية حكومتهم . وعند منتصف القرن التاسع عشر ظهر عامل آخر دفع بهم للمطالبة باستقلالهم ، وهو نشوب الحرب الاهلية في لبنان سنة ١٨٦٠ ، المعروفة بسنة الحركة . وكان من الطبيعي بعد تلك الحوادث المريعة التي وقعت في تلك السنة ، ان يطالب موارنة لبنان بالانفصال التام عن الامبراطورية العثمانية . وفي الوقت نفسه كان اللبنانيون المسيحيون يشعرون بضرورة توفير نوع من الحماية الاجنبية ، إما عن طريق فرنسا او النمسا . لكنهم آثروا الحماية الفرنسية على

الحماية النمساوية لان فرنسا ، تقليدياً ، كانت حامية الموارنة في الشرق الادنى . وليس هناك من مبرر للاستنتاج ان حركة ١٨٦٠ « كانت الحادث التاريخي الحاسم في القرن التاسع عشر ، وان هذه الحرب الاهلية كانت حركة اثارتها الروح العربية القومية ، وان هدفها كان هدفاً قومياً وطنياً لا حرباً طائفية »[١٢] . فمثل هذه الاقوال الجارفة خاطئة ولا مبرر لها ، لان الحركة المناوئة للاتراك في لبنان في القرن التاسع عشر كانت ، بوجه الاجمال ، مارونية لبنانية ، ولا يمكن اعتبارها ثورة عربية وطنية في الشرق العربي ضدّ الحكم التركي . فلم تكن غالبية المسلمين الساحقة في الولايات التي يحكمها السلطان ترغب ، آن ذاك ، في الخروج على الحكومة الاسلامية والقضاء عليها .

وعلينا ان نذكر ايضاً ان اللبنانيين كانوا على صلات مع الغرب اوثق من الصلات التي كانت قائمة بين الغرب وسائر الأقطار العربية في الشرق الادنى . فكان لبنان اشبه بممرّ تعبره التيارات الفكرية الغربية إلى الولايات الاسيوية في الامبراطورية العثمانية، مما جعل من الطبيعي ان يكون اللبنانيون اول من تأثّر بالحضارة الغربية . وكان معظم المسيحيين يتجهون بانظارهم نحو الغرب المسيحي ، لاسيما فرنسا ، على انها منارة من منائر الحضارة الغربية .

وهنالك سبب آخر جعل من لبنان ممراً رئيسياً يعبره الفكر الغربي والحضارة الغربية إلى البلدان العربية في الشرق الادنى ، هو ان العلاقات التجارية مع الغرب كانت على اوثقها في لبنان . وما ذلك الا لموقعه الجغرافي ، ثم لتراثه التاريخي . فقد كان لبنان في زمن الفينيقيين اهمّ مركز تجاري بين بلدان الشرق الادنى والغرب . ويحسن بنا ان نذكر ان المسيحيين في المدن كانوا يتعاطون الاعمال التجارية ، وعلى مدى الايّام اصبحوا اغنى تجار الامبراطورية العثمانية . وعليه ، يقول المؤرخ توينبي (Toynbee) ، مشيراً إلى هذه الظاهرة ، « انهم ، كتجار من الطراز الاوّل ، اقاموا

علاقات تجارية مع العالم الغربي ، مما وفّر لهم الاطلاع اللصيق بالحياة الغربية وبالعادات الغربية إلى جانب تعلمهم لغات الغرب »[١٣].
ومما لا شك فيه ان نمو التجارة وازدهارها عجّلا في خلق الجوّ الملائم لتقبّل الحضارة الغربية في العالم العربي . وفي كلامه عن بيروت في منتصف القرن التاسع عشر ، يقول غرغوري ورتبات (Gregory Wortabet) [١٤] « ان مخازن هذه المدينة مليئة بالسلع من مصانع اوربا واميركا . ويكاد السائح يجد في كل شارع من شوارعها سلعاً وبضائع من جزر الهند الغربية . وعلى حبال ممتدة على شرفات المخازن يجد المرء اقمشة قطنية من انكلترا واجواخاً من منشستر ، واقمشة سكوتلندية ، وحرائر افرنسية ومناديل سويسرية ، الخ . وعلى هذه السلع والبضائع ختم المعامل التي صنعت فيها .... والذين يعرفون كيف كانت بيروت منذ عشرين سنة وكيف كانت الاحوال والظروف المعاشية لدى سكانها يعترفون ان الفرق بين بيروت كما كانت منذ عشرين سنة (١٨٣٥) وبيروت الآن (١٨٥٥) اشبه بالفرق بين منتصف الليل ومنتصف النهار [١٥] » .

وكتب لويس فارلي (Lewis Farley) الذي كان يقيم في بيروت ، سنة ١٨٦٣ ، يقول : « منذ سنوات قليلة كان التجار الكبار من الاجانب ، اما الآن فانهم من اللبنانيين . وهم يقومون بجميع معاملات الاستيراد والتصدير ، ويستقبلون في بيروت السفن المحملة بالبضائع باسمهم . ومنذ زمن ليس بالبعيد كانوا يعيشون في بيوت صغيرة زريّة لا يدخلها النور ... اما الآن فانهم اخذوا ببناء دور فسيحة جميلة تحيط بها الحدائق ، وموثّثة على الطراز الشرقي والغربي ... كذلك منذ سنوات لم يكن هنالك اختلاط بين الرجال والنساء ، اللّهم الاّ عند اجتماع العائلة مع الاقربين من الاهل ، اما الآن فقد اخذت العادات الاجتماعية الغربية تجد طريقها إلى الحياة اللبنانية .... ومنذ سنوات كان الشحن البحري يقتصر على نقل

الغلال المحلية والاسماك والفاكهة بواسطة اشرعة صغيرة كانت تمخر مياه الشاطىء جيئة وذهاباً .... اما الآن فانظر إلى ارصفة الميناء تر اكداساً من البضائع ، وانظر إلى عرض البحر تر بواخر كبيرة قادمة إلى ميناء بيروت من جميع موانىء المتوسط ... » [١٦] .

ويحسن بنا ان نذكر دليلا آخر على مدى التغيير والتحسين اللذين طرأا على الحياة اللبنانية . وهو مقتبس عن « تقرير سنة ١٨٩٣ — ١٨٩٤ » وعنوانه « المدارس اللبنانية » ، وضعه القس الدكتور كارسلو (Carslaw) من اعضاء البعثة التبشيرية في البلدان الاجنبية ، التابعة لكنائس سكوتلندا . وكان الدكتور كارسلو ، بصفته طبيباً ، قد عيّن مبشراً في قرية الشوير من قرى لبنان . وهذا التقرير الذي نشير اليه كتب بعد رجوعه — ٣٠ نيسان ١٨٩٤ — من سكوتلندا حيث قام بالقاء المحاضرات في اماكن مختلفة منها . يقول الدكتور كارسلو : « في طريقنا إلى الجبل لاحظنا تحسّناً ملموساً في معالم القرى التي مررنا فيها . فقد كانت اعمال البناء في قرى كثيرة على قدم وساق . كانت السقوف الترابية تُزال ويوضع مكانها سقوف من قرميد مرسيليا الأحمر . وكانت النوافذ تدهن بالدهان الاخضر ، وكان كل شيء يدل على الرخاء والسعة . وفي بلدة الشوير ذاتها رأينا اموراً مستجدّة . فهناك بيوت تبنى — والبيوت التي أتمّ بناؤها سقفت بالقرميد الاحمر . ومنذ ١٨ سنة لم يكن في هذه الناحية بيت واحد مسقوف بالقرميد . وفي الشوير كان هنالك بيتان في نوافذهما زجاج ، اما الآن فان الزجاج في النوافذ شيء عاديّ ، ينظر الناس اليه على انه ضرورة . وللشوير الآن بلدية تقوم باعمال في البلدة تدعو إلى الاعجاب والاكبار . فقد عبّدت الشوارع ، وانشئت عيون الماء ونظّفت مغاورها او حوّرت خوفاً من تلوّث الماء بالاقذار وجهّزت جميعها بمواسير من حديد . ومنذ زمن قصير جداً وضعت البلدية اربعة مصابيح تضاء بالكاز لانارة الشوارع الرئيسية ، وقد رأيناها ذات ليلة مضاءة . ولا يرضى العمال

الآن بالاجور التي كانت تدفع لهم منذ سنوات . ويبدو انه كلما ارتفع مستوى الاجور ارتفع معه كل شيء آخر . ويبدو ايضاً ان مظاهر هذا الغنى والازدهار مردّه إلى رجوع عدد غفير من الذين كانوا قد هاجروا إلى البرازيل والولايات المتحدة واوسترالیا لسنوات خلت . وبعد ان جمعوا ثروات عظيمة بشتى الطرق عادوا إلى اوطانهم ليتمتعوا بالعيش الهانيء ما دام عندهم المال الكافي . وكان من الطبيعي ، بعد ان طافوا في ارجاء الدنيا وشاهدوا الكثير من معالم الحضارة ألاّ يرتضوا بالبيوت التي عاش فيها آباؤهم والتي ولدوا فيها . وعليه يجب أن تهدم ليشيّد مكانها دور عصرية مؤثثة بالجديد ، وهذا من شأنه ان يكون عاملا يعجّل في تغيير العادات واساليب العيش » .

لقد رحّب العرب بهذه السلع والبضائع التي دخلت البلاد من الغرب لنفعها ولجدتها ولجمال صنعها . وقد اضفت على الحياة الشرقية شيئاً من الجمال والراحة ، ناهيك بانها كانت عاملا في تغيير الأذواق وفي رفع مستوى العيش . لكن ليس لنا ان نقول ان أثر الغرب المادي التجاري كان تحدّياً من شأنه ان يحدث تغييراً في تفكير الناس وفي معتقداتهم . ان هذه الامور الخطيرة الشأن لم تمسّ ، لا من قريب ولا من بعيد . وما كان لتأسيس المعاهد التربوية الغربية في البلدان العربية في الشرق الادنى ان تحدث مثل هذا التغيير .

يبقى لدينا سؤال خطير نحب ان نطرحه : اي اثر كان للتربية الغربية في تنمية الشعور العدائي نحو الاتراك في البلدان الاسلامية في الشرق الادنى ؟ يكاد كل كاتب عالج قضية « اليقظة العربية » ان يشدّد على اهمية التربية الغربية في ايقاظ العرب السياسي . ويعتقد هؤلاء الكتاب ان انتشار الافكار السياسية والديمقراطية الغربية في الولايات الاسيوية الداخلة في الامبراطورية العثمانية ناجم عن اثر المعاهد التربوية الغربية . لا نكران ان البعثات التبشيرية من افرنسية واميركية وروسية وغيرها ، كالارسالية الانكليزية في

سوريا والارسالية البروسية القيصرية ، كانت تعمل على تنشئة جيل جديد على اسس غربية في الشرق الادنى . فقد فتح اليسوعيون ، بعد سنة ١٨٣١ ، مدارس في بيروت وغزير وزحلة ودمشق وحلب . وأعاد الآباء اللعازريون فتح كليتهم في عينطورا . وكانت الارسالية المشيخية الاميركية ، التي قدمت لبنان سنة ١٨٢٠ ، قد فتحت حتى سنة ١٨٦٠ ، لا اقل من ٣٣ مدرسة . غير ان اكبر مؤسستين تربويتين كانتا الكلية السورية الانجيلية (وهي الآن الجامعة الاميركية في بيروت) التي تأسست في ١٨٦٦ ، وجامعة القديس يوسف اليسوعية التي تأسست في ١٨٧٥ .

ومهما يكن من امر ، فبالرغم من ان التربية كانت عاملا فعّالا في حركة الأحياء العربية في الشرق الادنى [١٧]، فان دور المدارس التبشيرية في توعية الجيل العربي قومياً وسياسياً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مبالغ في اهميته كثيراً . فقد قدم المبشرون منطقة الشرق الادنى وغرضهم نشر الدين المسيحي بين المسلمين واجتذاب بعض الطوائف المسيحية إلى عقيدتهم المسيحية الخاصة بهم ، فكانت مدارسهم مدارس مسيحية اولاً وآخراً . وها نحن نثبت فقرة كتبها الدكتور غرغوري ورتبات (Gregory Wortabet) وكان من افضل المبشرين في ذلك العهد ، يعرب لنا فيها عن روح المرسلين المخلصة وعن اهدافهم التربوية الحقيقية في انشائهم المدارس . يقول : « لقد تكلمت عن وسيلتين فعالتين ، اعني التبشير بالانجيل ، وتقديم الخدمات الطبية للمرضى ، لنشر المعرفة الحقيقية عن المسيحية التي نؤمن بها . وهما وسيلتان متلازمتان تكمّل الواحدة الاخرى ... لكن أثر هاتين الوسيلتين ، الوعظ والتطبيب ، يظهر في نفوس البالغين والمتقدمين في السنّ ... غير ان هنالك وسيلة ينحصر اثرها العميق في نفوس الصغار ، وسيلة قد تكون اذا أحسن استعمالها ، وبمعونة الله جلّ جلاله ، السبيل السويّ لبعث الحياة الجديدة في البلاد السورية ، اعني تربية النشء الصغير في هذه البلاد .

ولست اشير هنا إلى المدارس التي اسّستها الطوائف الدينية المختلفة والتي لا تعلّم الاّ الطقوس الدينية البالية ، انما اشير إلى المدارس المسيحية الحقيقية حيث تحتلّ فيها التوراة ، ذلك الارث الروحي للعالم بأسره ، المرتبة الأولى ، التوراة التي يجب ان ينهل الصغار من معينها الصافي . وحجّتي هي اننا اذا أسّسنا اليوم في جميع انحاء سوريا مدارس كالمدارس التي اشرت اليها آنفاً — لاسيما ان الحاجة ماسّة اليها ، والناس يطالبون بها — فمن منا يستطيع ان يتصور خطورة النتائج التي ستسفر عنها هذه المدارس في الاجيال الطالعة ، الاجيال التي تنشأ بخوف الله وتعليمه ؟ ومن منا يشك لحظة في قيمة الأثر الذي تتركه هذه المدارس في حياة سوريا الاجتماعية والخلقية ؟»(١٨) .

لم يقتصر اثر النشاط الديني الذي كانت تقوم به معظم الارساليات التبشيرية على اثارة الشك والريبة في نفوس غالبية السكان من المسلمين في هذه الديار ، بل كان سبباً في اثارة النزاع الطائفي لا بل في إذكاء نار العداوة والبغضاء بينها (١٩) ، فكان من الضروري احياناً ان يتدخل القناصل الأجانب في هذا النزاع لئلا يؤدي إلى مضاعفات سياسية خطيرة (٢٠) . والحقيقة التي يجب ان تقال هي ان ليس جميع الارساليات كانت تكرس جهودها واعمالها في حقل العمل الديني . اذ يبدو ان بعض الارساليات ، باستثناء الارساليات الاميركية (٢١) التابعة للدول الكبرى والتي كان لها مصالح في الشرق الادنى ، كانت ترى ان من واجبها تعزيز النفوذ السياسي لدولها في هذه المنطقة ، ورعاية مصالحها فيها ، تعضدها في ذلك دولها التابعة لها(٢٢). فكان افرادهايحاولون بنشاط وهمة غرس محبة اوطانهم في قلوب تلاميذهم الذين يؤمون مدارسهم (٢٣) .

لكننا اذا تغاضينا عن النشاط السياسي والوطني الذي كانت تقوم به بعض الارساليات حباً بمصالح اوطانها ، والقينا نظرة عجلى على المناهج الدراسية التي كانت تتبعها الارساليات الأخرى ، وعلى المواد التدريسية فيها ، فاننا نجد انها لم تكن تهدف إلى غايات سياسية

ولا إلى اهداف وطنية . فالتركيز الاوّل في المناهج كان على اللغة والأدب والرياضيات ، اي على المواضيع التعليمية الثلاثة الاولى . وطبيعي ايضاً ان يكون هنالك تعليم ديني إلى جانب هذه المواضيع. ومثال على ذلك منهاج الكلية السورية الانجيلية في سنتها الاولى ، ١٨٦٦ — ١٨٦٧ . فهو يشمل تدريس اللغات ، ومنها العربية والانكليزية والفرنسية والتركية واللاتينية ، ثم الرياضيات : الحساب والجبر والهندسة ، وتاريخ العرب القديم ، وتاريخ الديانات والتوراة (٢٤) . وكانت الهيئة التعليمية تتألف من ثلاثة عشر معلماً ، وعدد التلاميذ ستة عشر تليمذاً . وفي سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٩ كان منهاج الدرس في قسم الكلية هكذا : في السنة الاولى (ويسمونها فرشمن (Freshman) الصرف والنحو واللغة الانكليزية والأدب والجبر والهندسة والكتاب المقدس والموسيقى والانشاء والخطابة . وفي السنة الرابعة كانت الدروس تشمل الفلك والفلسفة العقلية والاخلاق والتاريخ وعلم طبقات الأرض وعلم النبات والحيوان والموسيقى والانشاء والخطابة والكتاب المقدس . وقد تغاضيت عن ذكر منهاجي السنة الثانية والثالثة لكي لا نرهق القارىء بهذه التفاصيل. وفي هذه الفترة كان عدد الطلاب ٤٨ طالباً قانونياً يتبعون المنهاج الرسمي للكلية و ٤٥ طالباً خصوصياً يأخذون بعض الدروس . وكان عدد الطلاب في السنة الرابعة ، اي الطلاب المؤهلين لنيل الشهادة ، خمسة طلاب .

لقد كانت الخدمة العظمى التي كان معظم المدارس الارسالية يرغب في اسدائها تعليم مبادىء القراءة والكتابة لعدد قليل من الجيل الطالع . فبعد ان تكلّم فولني (Volney) عن تأسيس الارساليات المسيحية ، لاسيما اليسوعية منها واللعازرية في لبنان ، كتب يقول — وكان ذلك عند منصرم القرن الثامن عشر — « ان اعظم نفع نجم عن جهود هؤلاء المرسلين البابويين هو ازدياد عدد الموارنة الذين اصبحوا يقرأون ويكتبون ، وبفضل تعلمهم غدوا في هذه البلاد فئة تشبه

الاقباط في مصر ، اعني انهم اصبحوا موظفين وكتبة « وكيخيا » يشغلون جميع المراكز العالية في الحكومة التركية (٢٥) . لكن ممّا يؤسف له انه لم يكن في الشرق الأدنى في تلك الايام عدد كبير من الكتب الاجنبية ليقرأها العرب (٢٦) ، إذ كانت الحكومة تراقب جميع الكتب الاجنبية الواردة من الغرب مراقبة صارمة (٢٧). والواقع ان معظم المدارس والمؤسسات الاجنبية كانت تبيعها « بضاعتها الخاصة بها » : وكانت تتنافس فيما بينها على اجتذاب اكبر عدد من الطلاب نحو غاياتها واهدافها القومية . وكانت الكلية السورية الانجيلية هي المؤسسة الوحيدة التي لا ينطبق عليها هذا الكلام لانها لم تحاول اطلاقاً « أمركة » طلابها (٢٨) .

لم يزدد شعور العرب عداء نحو الاتراك ، ولم يتفجرّ اخيراً عن ثورة حقيقية مكشوفة الاّ في عهد السلطان عبد الحميد . حتى في ذلك العهد ذاته لم تشترك غالبية العرب المسلمين في محاولة لفصل العالم العربي عن الامبراطورية العثمانية . فكان الذين يريدون الانعتاق من الحكم التركي فئة قليلة العدد تضمّ بعض اهل الفكر ، وبعض المغامرين الطامحين ، وفي اكثر الاحيان افراداً ينتمون إلى اقليات غير اسلامية . ومع ان هذه الاقلية يجب ان يعترف لها بالفضل ، فمن الواجب التوكيد على ان فكرتها الخاصة بالاستقلال لم تكن تمثل اطلاقاً رأي الغالبية الساحقة من العرب المسلمين الذين كانوا ينظرون إلى الامبراطورية العثمانية على انها امبراطورية اسلامية .

الفصل الرابع
الحركات الثورية العربية وجمعية تركيا الفتاة
١٨٧٦ — ١٩٠٩

ولد عبد الحميد في ٢٢ ايلول ١٨٤٢ في قصر دولمه باغجه الواقع على شاطىء البوسفور الاوروبي . و « ... نهار الخميس في الحادي والثلاثين من شهر آب ، سنة ١٨٧٦ غادر عبد الحميد بيت برستو هانم ، وهي السيدة التي تبنته الساعة الثامنة والنصف صباحاً ، يرافقه وزير الحربية ، ومئة وخمسون جندياً راكبين الخيل ، إلى القصر الامبراطوري في استانبول حيث كان بانتظارهم بقية الوزراء وكبار الموظفين . وفي الساعة العاشرة اطلقت مئة طلقة معلنة خلع السلطان مراد وتنصيب اخيه عبد الحميد . ثم ارتفعت الاصوات محيّية السلطان بالقول « بادشاه » . ثم ابحر من « رأس سراجليو » (Seraglio point) يتبعه عدد كبير من المراكب الصغيرة التابعة للبلاط ودخل قصر دولمه باغجه الذي غادره ، قبل ساعات ، السلطان مراد وعائلته . وهكذا نال عبد الحميد مبتغاه ، واصبح سلطان تركيا غير منازع » (١) .

شهدت القضية الشرقية في عهد السلطان عبد الحميد فترة من أسوأ الفترات التي مرت بالامبراطورية العثمانية ، من حيث المصائب والفواجع التي حلّت بها . ففي هذه الفترة انفصل عن الامبراطورية عدد من الولايات اكثر من ذي قبل . وكان الخوف من هذا التجزؤ الناجم عن الضغط الخارجي الشديد الذي مارسته الدول العظمى ، إلى جانب التخوّف من قيام الثورات الداخلية ، من العوامل التي جعلت حكم عبد الحميد حكماً استبدادياً طاغياً .

وكان عبد الحميد يعاني من عقدة الخوف الشديد من ان هناك من يتربص لاغتياله ، فتخامره الوساوس من الناس المحيطين به . ففي ذات يوم — في الثلاثين من شهر تشرين الاول سنة ١٨٧٨ — قال للسيد دي توري (de Torey) الملحق العسكري في السفارة الافرنسية في اسطنبول : « في هذه البلاد ، بلاد الدسائس والمؤامرات .... كيف يستطيع الانسان ان يكافح وان يناضل دوماً وضد كل انسان ؟ » (٢)

وفي عهد عبد الحميد ازداد الشكّ وتفاقمت الريبة بين العرب والاتراك . وداخل عبد الحميد قلق شديد للحركات المعادية للاتراك، لاسيما في لبنان ، ولكثرة المناشير الثورية واللافتات التي ظهرت في بيروت عندما كان مدحت باشا والياً على سوريا . وكان يعرف جيّداً ان شعوراً بعدم الرضا يسود الولايات الاسيوية . كان النشاط الثوري يرعبه . وكان يعلم في الوقت ذاته ان ادارة الحكم في الولايات كانت ادارة لامركزية ، فراح يحاول ضبط ادارة الامبراطورية من استانبول عاصمته ، بحيث يقبض على الادارة في تلك الولايات بيد حديدية . وبفضل اختراع التلغراف اصبحت عاصمته على اتصال وثيق بالمدن الرئيسية في الامبراطورية . وقد زاد في مخاوفه وارتيابه وجود اكثرية عربية تستطيع يوماً ان تزعزع اركان الحكم الذي كان يقوم على عناصر تركية ، وكون العرب يعملون على استعادة الخلافة من ايدي الترك وجعلها خلافة عربية (٣) . غير انه في بادىء الأمر حاول ان يستميل العرب اليه (٤) ، اما عن طريق الهبات السخية او عن طريق المبالغة في اكرام الزعماء العرب الذين كانوا يفدون على الاستانة ، او عن طريق تعيين موظفين من العرب في مراكز ادارية عليا ، او في مراكز عسكرية (٥) . واخيراً حاول استمالتهم عن طريق اعتبار نفسه حامي الجامعة الاسلامية الشاملة وزعيمها الاول .

كان توحيد العالم الاسلامي واعادة مجد الامبراطورية الاسلامية

املا يخامر افئدة قادة المسلمين وزعمائهم في جميع انحاء العالم . « وتزعّم المسلمين دينياً ، ثم استغلال هذه الزعامة لمآرب سياسية ، فكرة راقت السلطان عبد الحميد فلم يتوانَ في تبنّيها . ويُظنّ أن الذين كان لهم أثر في نفسه هم السيد محمد ظافر، احد المرابطة في طرابلس — وكان هذا قد تنبّأ أن عرش السلطنة سيؤول إلى عبد الحميد — وابن عم له يدعى الشيخ اسعد ، ورجل ثالث اسمه ابو الهدى افندي . راح هؤلاء يقنعون السلطان ان اسلافه كانوا على ضلال عندما حاولوا ان يكسبوا عطف الحكومات المسيحية الاوربية ، وانّ الطريق السويّ الذي ينبغي له ان يتبعه هو اعادة توحيد العالم الاسلامي ضدّ العالم المسيحيّ . » (٦)

وقد ظن عبد الحميد انه اذا نصّب نفسه زعيماً للعالم الاسلامي ، وحامياً للمسلمين الذين يعيشون في كنف حكومات مسيحية ، فان المسلمين السنيين العرب منهم وغير العرب من رعاياه سيلتفون حوله لتعضيد الخلافة العثمانية وللذود عنها بدون قيد او شرط . ويُظَنّ ايضاً ان الغرض الاول من انشاء القطار الحديدي بين دمشق والمدينة — وهو المعروف بسكةّ حديد الحجاز التي انشئت باموال تبرّع بها المسلمون — كان لاستمالة عطف المسلمين في جميع انحاء العالم ، وكسب صداقتهم . وفور حفلة تدشين سكة حديد الحجاز التي جرت في المدينة المنوّرة (في شهر ايلول سنة ١٩٠٨) كتب احد روّساء التحرير في جريدة التيمز (The Times) اللندنية ، عندما كان يحلّل الاهداف البعيدة التي رمى اليها عبد الحميد ، قائلا : « كان عبد الحميد يرى ان انشاء هذا الخط من شأنه ان يعزّز المنصب الذي كان يدّعيه لنفسه من انه الزعيم الروحي للمسلمين . وكان يخامره شعور قوي في نفسه ان لانشاء هذا الخط الحديدي قيمة استراتيجية عظيمة ، لاسيما اذا اتصل هذا الخط بالخطوط الحديدية المؤدّية إلى بلاد الاناضول . وهذا الخطّ يمتد موازياً للحدود المصرية ، وعلى مقربة منها ، ولذا سيكون وسيلة نقل سريعة

للجيوش التركية المتّجهة نحو الولايات في الجزيرة العربية ، تلك الولايات التي لم تخضع للحكم العثماني خضوعاً تاماً » (٧) .

وما كان للسلطان عبد الحميد ان تخامره شكوك ومخاوف من رعاياه العرب ما دام الأمر يتعلق بالخلافة ، لانه في ذلك العهد لم يكن ليخطر ببال الغالبية الاسلامية العربية ان تعمل على تقويض اركان الخلافة ، لان ذلك اعتبر بمثابة تقويض لاركان الاسلام ذاته . وفضلا عن هذا فان قادة الفكر من العرب كانوا ينظرون إلى المؤامرات والدسائس التي كانت تحوكها الدول الاوربية ضد الامبراطورية العثمانية نظرة شك وتخوّف من ان يؤول الأمر إلى تجزئة الامبراطورية العثمانية واقتسامها فيما بينها ، مما قد يؤدي إلى زوال الخلافة ، وبالتالي إلى انفصال العرب عن الامبراطورية الاسلامية . واذا كان العرب ، كمسلمين اولا ، قد سكتوا عن مظالم عبد الحميد وحكمه الاستبدادي ، فان هذا لا يعني انهم سكتوا عن الاجراءات التعسّفية التي كان يقوم بها . فقد راحوا يطالبون بالاصلاح في الولايات العربية الواقعة تحت حكم الاتراك . ولا شك في ان عبد الحميد كان قد ادرك انه يستحيل عليه ان يدير سياسة امبراطوريته التي تقوم على حكم ديني ، والتي تتألف من قوميات عديدة ، بموجب مبادىء وطنية ، وانشاء حكومة دستورية . نعم ، لقد حاول في بادىء حكمه ان يدير شؤون الامبراطورية وان يظهر بمظهر ملك دستوري . ذلك لانه كان قد أرغم على قبول الدستور الذي وضعه مدحت باشا . وفي اول اجتماع عقده مجلس النواب التركي في ١٩ آذار ١٨٧٧ في قاعة الاستقبال الكبرى في قصر دولمه باغجه ألقى خطاب العرش . وتظهر المناقشات التي جرت في مجلس النواب فيما بعد ، والتي جمعت ونشرت ، ان انصياع النواب للسلطان عبد الحميد ، وخضوعهم لمشيئته كان امراً مبالغاً فيه كثيراً (٨) . ففي ١٤ شباط ١٨٧٨ حلّ السلطان عبد الحميد المجلس النيابي إلى اجل غير مسمى وعلّق الدستور (٩) ، ثم أمر بابعاد النواب البارزين

الذين عرفوا بنقدهم اللاذع عن الاستانة ، بينهم رهط من النواب العرب المعروفين . لكنّ هذه الاهانة التي لحقت بنواب الأمة لم تثر سخطاً او احتجاجاً ، لا في المجتمع التركي ولا في الصحافة التركية .

غير ان العرب ، بعد تعليق دستور سنة ١٨٧٦ ، استمروا على مطالبتهم ، علناً ، بالاصلاح . مثال على ذلك ما كانت تنشره احدى الجرائد اليومية في بيروت — جريدة لسان الحال لصاحبها خليل سركيس وهي من اقدم الجرائد العربية — سنة ١٨٧٨ من مقالات تتناول الاصلاحات المنشودة في لبنان وفي الشرق الادنى (١٠) . وعندما عُيّن عبد الحميد مدحت باشا « أبا الاصلاح » والياً على سوريا (١٨٧٨ — ١٨٨٠) استبشر اهل البلاد خيراً وأملوا بان الاصلاح سيتمّ على يد هذا الوالي الجديد (١١) . غير ان سياسة القسوة والضغط التي كان يمارسها عبد الحميد اسفرت عن شل الحركات الاصلاحية ، فتوارى دعاتها عن الانظار وباشروا العمل في الخفاء . وهاجر منهم من وقد هاجر إلى خارج البلاد ، لاسيما إلى باريس ولندن وجنيف والقاهرة (١٢) . ثم بدأ انشاء الجمعيات السرية التي كان الغرض من انشائها استمرار المطالبة بالاصلاح في البلدان العربية . وفي حالات خاصة كان بعض هذه الجمعيات المتطرفة في آرائها يطالب بتحرير العرب من الحكم التركي او من اي حكم اجنبي آخر . (١٣)

لقد ذكرنا في فصل سابق من هذا الكتاب ان الحركات العدائية التي بدأت في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر ضد الاتراك اخذت تظهر في مصر وفي سوريا (بما في ذلك سنجق لبنان) . وفي هذين البلدين ازدادت الحركات شدّة وقوة . ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهر في سوريا اعنف ردة فعل لحكم عبد الحميد الاستبدادي والحكومة التركية الفاسدة . وبهذه المناسبة نودّ ان نشير إلى زعمين لا يستندان إلى ادلة تاريخية ، لكن يكثر ترددهما ، هما الزعم القائل بأن جماعة صغيرة من النخبة المفكرة « راحت عن طريق

جمعيتها السرية في بيروت تنشر بذور الفكرة القومية العربية ، والزعم الثاني القائل بان « اول محاولة منظّمة لبعث الحركة العربية القومية » كانت تلك التي قامت بها هذه الجماعة (١٤) . وكم يؤسفنا أن نقول إن هذين الزعمين مبالغ فيهما كثيراً . وقد يكون من المستحسن هنا ان نشير باختصار إلى ما سمعه المؤلّف من فم احد اولئك « النخبة المفكرة » ، هو المرحوم الدكتور فارس نمر باشا (١٥). كان اول ما شدّد الدكتور فارس نمر على ذكره، هو ان فكرة « القومية » لم تكن بعد قد وجدت طريقها إلى وجدان العامة من الناس في الشرق الادنى. كان ولاء الناس، كما كانت جميع الروابط والعلاقات الاجتماعية ، يقوم على اساس ديني طائفي . وكان الناس إما مسلمين او مسيحيين ، والمسلم إما سنّياً او شيعياً ، والمسيحي إما مارونياً او ارثوذكسياً او كاثوليكياً او انجيلياً . وكانت الوحدة القومية، في مثل هذه الظروف، امراً يستحيل قيامه . فقد كان في لبنان جماعة صغيرة من الشبان الذين ينتمون إلى هذه « النخبة المفكّرة » — وجلّهم من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الانجيلية — تطالب اولا بتحرير لبنان من الحكم التركي (١٦) . فأنشأوا لهم حوالي ١٨٧٦ « جمعية ثورية سرية » وراحوا يجتمعون مساء عند الشاطىء الصخري في مكان اسمه الروشة في رأس بيروت للتداول والتشاور في انجع الوسائل لتحقيق اهدافهم . وكان اخطر ما اقلق نفوس اولئك الشبان هو احتقار الاتراك لهم ، واعتبارهم ادنى شأناً منهم ، مما جعلهم يشعرون بالاهانة . غير ان العر. المسلم عندما كان يتكلم عن الامبراطورية العثمانية كان يستطيع ان يقول إنها امبراطوريته ، لانها كانت امبراطورية اسلامية . والواقع ان المسلم لم يكن يشعر بأنه غريب في وطن غريب عنه ، بل كان الأمر على نقيض ذلك . اما المسيحي فكان يشعر دوماً بأنه واحد من « رعايا » السلطان وان الحكومة التركية لا يمكن لها ان تكون حكومته .

لكن لم ينقض زمن طويل حتى شعر أولئك الشبان النصارى

انّهم اذا ارادوا بلوغ هدفهم ينبغي لهم ان يتعاونوا مع المسلمين لكي يكونوا لهم سنداً وعوناً . فقد كان من المحتّم عليهم ان يظهروا امام الاتراك كجبهة واحدة متراصة . ولم يكن هنالك من قاسم مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى « العروبة » . فالعروبة ، كشعار ، كان في وسعها ان تثير في نفوس العرب شعوراً بالقومية ، وان توحّد ايضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الاتراك . وعلى هذا الاساس اقتنع الأعضاء المسيحيون في الجمعية الثورية السرية ان السبيل الوحيد للتحرّر من الحكم التركي والسبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وتستطيع ان تقف في وجه الاتراك . ولجأ اولئك الاعضاء المسيحيون إلى خطة اخرى ، هي ادخال بعض الوجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت (١٧) . وكان بعض الاعضاء البارزين في هذه الجمعية السرية قد انضمّ إلى عضوية هذه المحافل الماسونية ، وكانوا يأملون ان يستميلوا المسلمين ، بعد ان يكونوا قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية ، للانتماء إلى الجمعية السرية . وفي الواقع انضم عدد قليل من المسلمين إلى المحافل الماسونية ، وعلموا بوجود جمعية سرية . وقد اتفق الجانبان ، المسلمون والمسيحيون ، على محاربة الظلم التركي واستبداده على اساس العروبة ، وعلى مبدأ المساواة بين العرب والاتراك . غير انهم اختلفوا على الهدف الاعلى للجمعية ، وهو طرد الاتراك من ولاية سوريا التي كانت تشمل آن ذاك سنجق لبنان المستقل ذاتياً . وبذلك اضاعوا، كما صرح فارس نمر باشا للمؤلف، «سانحة قلّ ان يجود الزمان بمثلها » . وفي زمن ما يقع بين ١٨٨٢ و ١٨٨٣ اوقفت هذه الجمعية السريّة الثورية — التي ظلت تعمل سرّاً دون ان يعلم احد بها — نشاطها ، واحرقت وثائقها ، واعتبرت نفسها جمعية منحلة . وبعد سنوات قليلة تأسست جمعيات سرية اخرى .

ويحسن بنا ان نذكر شيئاً عن المناشير العربية المغفلة التي ظهرت

سنة ١٨٨٠ والتي كانت تشجب الفساد والظلم المتفشيين في الحكم التركي ، وتدعو الناس لقلب نظام الحكم . كان اصحاب هذه المناشير يهدفون إلى اثارة روح الوطنية في نفوس العرب ، فناشدوهم ان يذكروا « امجادهم الغابرة » وان يثوروا على الاتراك وان يطردوهم من الارض العربية فيتحرروا من فساد الحكم التركي واستبداده . وكانت هذه المناشير تعلّق على الجدران بعد منتصف الليل بالقرب من مقر القنصليات الاجنبية في بعض المدن السورية ، ولاسيما في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا . وهي في جملة التعابير العلنية عن الشعور الوطني الذي كان يتأجج في صدور العرب في النصف الثاني من القرن العشرين . وقد اعترف فارس نمر باشا للمؤلف ان جمعيتهم السرية كانت مسؤولة عن كتابة عدد من هذه المناشير ، وان عدداً منها كان بخط يده . وقد كانت هذه المناشير الثورية صغيرة في حجمها بحيث يستطيع الواحد ان يخبئها في جيب سترته .

وفي ٢٨ حزيران ١٨٨٠ شعر وكيل القنصل العام الانكليزي في بيروت ، السيد جون ديكسون (John Dikson) ، ان من واجبه ان يطلع السفير الانكليزي في الاستانة ، ج. ت. غوشن (G. T. Goshen) ، برقياً على هذا الأمر الخطير . وهو ان « مناشير ثورية » قد ظهرت على جدران مدينة بيروت [١٨] . وأعقب البرقية برسالة مؤرخة في ٣ تموز ١٨٨٠ [١٩] يقول فيها ان مثل هذه المناشير قد ظهرت مراراً في بيروت ،وهي «تناشد الاهلين ان يثوروا» على الاتراك . ويضيف وكيل القنصل العام قائلا : « لست أشك في ان هناك جمعية سرية في سوريا تعمل منذ خمس سنوات ، وان لها فروعاً في بغداد وفي الاستانة .... وقد تكون هذه الجمعية هي التي تصدر هذه المناشير . » وقد ضمن رسالته نسخة اصلية من هذه المناشير ، مكتوبة باليد ، وصورة عن منشور آخر [٢٠] . ويظن ديكسون « ان هذه هي المرة الثالثة التي كانت تعلّق فيها هذه المناشير على

الجدران في شوارع بيروت » . كذلك بعث السيد سينكفتس (Sienkiwiez) ، القنصل الافرنسي العام في بيروت ، برسالة مؤرخة في ٢ حزيران ١٨٨٠ ، إلى فريسينه (Freycinet) ، وزير الخارجية الافرنسية ، ذكر فيها شيئاً عن ظهور هذه المناشير في بيروت ودمشق ، وقال انها تناشد الاهلين المطالبة باستقلال سوريا الذاتي [٢١] . ويبدو ان القنصل الافرنسي العام في بيروت كان يعتقد ان الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ التي أدّت جزئياً إلى تجزئة الامبراطورية العثمانية ، أحيت آمال السوريين في نيل الاستقلال . وفي رسائله التالية إلى وزارة الخارجية الفرنسية أشار القنصل العام إلى ظهور المناشير التي اشار اليها القنصل البريطاني ديكسون .

واستمر ظهور المناشير الثورية حتى اواخر سنة ١٨٨٠ في سوريا ، «حيث كان هنالك شيء من عدم الرضى عند طبقة من الناس الذين كانوا ربما ينتمون إلى هذه الجمعية السرية [٢٢] » . وقد ظهر منشور منها في صيدا .

وقد كتب ديكسون في رسالة بعث بها إلى ف . ر. سانت جون (F. R. St. John) ، القائم بأعمال السفارة البريطانية في استانبول [٢٣] ، أن « في ٣١ من الشهر المنصرم ، وفي اثناء الليل ، ألصق منشوران على الجدران في شوارع بيروت». وبعد انقضاء ايام قليلة كتب ديكسون رسالة اخرى ضمّنها « نسخة من هذه المناشير الثورية التي ظهرت في بيروت في ليل الحادي والثلاثين من الشهر المنصرم وارفقها بترجمة للمنشور . » [٢٤] لكنه يبدو في هذه الرسالة اشدّ ايماناً من ذي قبل ، بأن هذه المناشير « ليست تعبيراً عن شعور افراد غير راضين عن الحالة السياسية ، كما يظنّ بعضهم ، بل انها عمل جمعية سرّية لها فروع في سائر انحاء البلاد » . وينهي ديكسون رسالته هذه بقوله : « ان لغة بعض هذه المناشير واسلوبها يدلان على ان كاتبها رجل على كثير من الثقافة .والثقاة في

اللغة العربية الذين يحق لهم ان يحكموا في الأمر يؤكدون ان لغة المناشير واسلوب التعبير فيها من النمط العربي الصرف الذي لا يحسنه الاّ من كان يجيد عربية القرآن ويعرف الشعر العربي .... وتحاول السلطة معرفة الأشخاص الذين يقومون بنشر هذه المناشير ، لكنها ، حسبما اعرف ، لم توفّق بعد إلى اكتشاف امرهم . وإلى جانب الذين القي القبض عليهم في صيدا ، رجلان في دمشق ، كلاهما مسيحيّان ، واحدهما انجيلي المذهب . وقد قيل لي ان الادلة ليست كافية لادانتهما ، لكنهما ادينا وحكم عليهما بالنفي. ويقال انه منذ يومين او ثلاثة بعث رجل مسيحي من صيدا برسالة إلى الوالي يتهم فيها « جمعية المقاصد الخيرية » التي اشرت اليها سابقاً في رسالتي اليكم رقم ٦١ والمؤرخة في ١٧ تشرين الثاني الماضي ، على انها وراء هذه المناشير الثورية . ولست اعلم اذا كانت السلطة ستتخذ اية اجراءات قانونية ضد هذه الجمعية . وقد وقّع اعيان مدينة بيروت ووجهاؤها واغنياؤها رسالة بعثوا بها إلى الوالي يعربون فيها عن ولائهم للسلطان واستنكارهم لكل حركة ثورية ...

« لم يكن يخطر لي ببال ان ازعجكم يوماً بإرسالي نماذج من هذه المناشير اليكم ، غير اني اود ان استرعي انتباهكم إلى ورود بعض العبارات في منشور تجدونه طيّ الرسالة . تلاحظون ولا شك ان اسم لبنان يرد في هذا المنشور ، في سياق الاعراب عن رغبة السوريين في ان يكون وضعهم السياسي مماثلا لسكان جبل لبنان الذين يتمتعون بالاستقلال الذاتي . ويبدو ان هذا المطلب ناجم عن رغبة الناس في التحرر من الظلم وانعدام العدالة بواسطة حكومة يكون فيها للناس صوت ، وينعمون فيها بحقوقهم وبحريتهم في التعبير عن آرائهم (٢٥) »

ومما لا شك فيه ان بعض هذه المناشير صدر عن الجمعية السرية التي تأسست في بيروت . غير ان ديكسون ، في رسالته ، لا ينفي احتمالات ، منها ان تكون قد صدرت عن هيئات اخرى . ففي الثالث من شهر تموز ١٨٨٠ كتب ديكسون يقول : « يبدو ان هناك

رأياً شائعاً بين المسلمين والنصارى ان صاحب هذه المناشير هو الوالي مدحت باشا . » لكنه يعود لرفض هذا الرأي قائلا : « انه بعيد الاحتمال ان يكون سموّه المحرض الاوّل في حركة ثورية ... » وبعد ستة اشهر ، اي في ١٧ كانون الثاني ١٨٨١ ، راح ديكسون يحاول تعليل هذه المناشير تعليلا جديداً يجمع فيه بين مختلف الآراء ويوحّد بينها جاعلا مصدرها الوحيد جمعية المقاصد الخيرية . فيقول : « ان الرأي السائد الآن بشأن مصدر هذه المناشير الثورية التي ظهرت اخيراً في أنحاء عديدة من سوريا هو انها صادرةعن جمعية المقاصد الخيرية . ومع ان هذه الجمعية تأسست منذ سنة ونصف برعاية مدحت باشا ، وتحت هذا الاسم بالذات ، فان بعض الناس قد اكّد لي ان النقمة على الحكم والمطالبة باصلاح الحال في البلاد تعودان إلى حقبة تسبق ظهور المناشير بزمن طويل . ويبدو ان بعض هذا المجتمع الناقم انضمّ إلى جمعية المقاصد الخيرية عند تأسيسها . وتحت هذا الاسم الحسن الوقع في النفس تستطيع الجمعية ان تقوم خفية بنشاط لبلوغ اهدافها دون ان تخشى اكتشاف حقيقتها . ومن جهة اخرى ، فقد أخبِرْتُ بأن الجمعية الثورية هي التي تسببت في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية ، وان مدحت باشا كان سرّاً احد اعضائها ، وانه هو الذي اسسها ورعاها ، لكي يعزز نشاط الجمعية الثورية ويعضدها. ويقال ، فضلا عن هذا ، ان مدحت باشا لا يزال على اتصال وثيق بالجمعية ، بالرغم من انه الآن في ازمير . ويقال ايضاً ان له ضلعاً في توزيع هذه المناشير في سوريا بواسطة عملائه السريين. لكني لا استطيع ان اتحقق من صحة هذه الاتهامات التي توجّه اليه ...

« ولست متيقناً مما يزعمه الناس من ان السوريين يستطيعون القيام بحركة ثورية موحّدة ضد الاتراك بدون مساعدة تأتيهم من دولة اجنبية. ذلك ان كثرة الطوائف والشعوب التي تقطن سوريا تجعل من وحدتهم امراً صعب المنال .... ويخيل الي ان الشعب اللبناني

الذي ينعم نسبياً بعيش حرّ ، وبحياة هانئة ، سيتردّد كثيراً في امر الاشتراك مع السوريين في ثورة ضدّ الاتراك . وعليه ، فانني أرى ان هذه المناشير التي ظهرت مؤخّراً يجب ان تعتبر تعبيراً عن نقمة عابرة دون ان يترتّب عليها نتائج ذات خطورة .... » (٢٦)

يجب ألاّ يبالغ في امر هذه المناشير . واحب ان اشير مرّة اخرى إلى ما يقوله ديكسون بهذا الصدد في رسالته إلى السفير البريطاني في استانبول ، ج. ت. غوشن ، المؤرخة في ٣ تموز ١٨٨٠ : « يسعدني ان اخبركم بأن اصدار هذه المناشير وتوزيعها لم يكن له من أثر في نفوس أهل بيروت . واذا كانت قد احدثت ضجة فانها اقرب إلى ان تكون استغراباً وفضولا في معرفة مصدرها من ان تكون احساساً سياسياً وطنياً . لكنها قد تكون علامة تشير إلى ان في الافق بوادر تذمّر ، وان المسلم كالمسيحي أخذ يبدي معارضة صارخة ضدّ الحكم التركي . » (٢٧)

ومن جملة الحركات الاستقلالية في ولاية سوريا بين ١٨٧٧ و ١٨٨٠ ما ذكره عادل الصلح في كتابه « سطور من الرسالة » (٢٨) حيث قال :

« فكان وضع الدولة المضطرب والوعي القومي النامي في سوريا حافزين اهابا بأهل البلاد ليتداولوا في ما يجب عمله لتجنيب وطنهم المصير السيء . ومن افجع صوره وقوع احتلال اجنبي » . والخوف من الاحتلال الاجنبي كان سببه حينذاك الحرب التي وقعت بين روسيا والدولة العثمانية في ١٨٧٧ . ويقول عادل الصلح : « وقامت لتأمين هذا القصد حركة فكرية ثم حركة عاملة فاعلة اتخذت لها بيروت منطلقاً . وكان من اسباب هذا الاختيار ان الرجل الذي كان محركها الرئيسي ، احمد الصلح ، مقيماً في هذه المدينة . فاتصل احمد الصلح ببعض العاملين المؤيدين وبعض الزعماء في صيدا ثم سافروا إلى دمشق واتصلوا ببعض اصحاب الرأي والمكانة فيها ... ثم قصدوا بعد ذلك إلى دمر ، مصيف

الامير عبد القادر ، وقضوا في ضيافته ثلاثة ايام تباحثوا في خلالها معه في الأوضاع المرتبكة في البلاد وعواقب هذا الارتباك ووسائل انقاذها منه . وكان القصد من هذه الرحلة الشامية تبادل الرأي مع الامير عبد القادر وعدد من الزعماء والتزود بآرائهم في الاجتماعات التي ستجري في بيروت ... وفي الاجتماع الذي عينه زعماء البلاد الشامية لوضع القواعد والأسس للمواضيع التي تدارسوها في اجتماعاتهم تقرر العمل لتحقيق استقلال البلاد الشامية (وهي ما تعرف اليوم بسوريا والاردن وفلسطين ولبنان). وقدم احمد الصلح اقتراحاً بترشيح الامير عبد القادر الجزائري ملكاً على هذه البلاد ، فوافق المجتمعون على هذا الاقتراح . وبتكليف من المؤتمر حمل احمد الصلح القرار إلى الامير واقتضى لذلك مشاورات ومفاوضات بين البلاد والامير . ثم يقول عادل الصلح :

« وكان من رأي الامير ان يظل الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية قائماً ، وان يبقى الخليفة العثماني خليفة للمسلمين ، وان تتم للامير البيعة من اهل البلاد جميعاً . وقد وافقه على رأيه في موضوع الخلافة اكثر الجماعة ، واتفقوا جميعاً على تحبيذ ما طلبه بشأن البيعة وتعهدوا بتنفيذه . واما فيما يتعلق بالبند الثالث (اي « ماهية الاستقلال المنشود ») فان المؤتمرين جميعاً اتفقوا على اقرار مبدأ السعي لتحقيق استقلال بلاد الشام وتأجيل البتّ في مدى هذا الاستقلال إلى انتهاء الحرب الروسية العثمانية وانجلاء وضع الدولة ومصيرها ، واعتمدوا في ذلك خطة التريث ريثما يتبين لهم الموقف الدولي المشوش وتظهر التطورات المتوقع حدوثها في السياسة العامة ... وكان يروج بين العاملين انه اذا تبين ان احدى الدول الاجنبية تهدف إلى الاستيلاء على بلادنا ... فلا بد من طلب الاستقلال التام . امّا اذا تبيّن انّه ليس ثمة من عزم على احتلال البلاد فتكون الغاية تحقيق الاستقلال الذاتي ، كما هي الحال في مصر وفي بعض بلاد البلقان . »

وقد انتهت الحرب الروسية العثمانية في آذار ١٨٧٨ بعقد معاهدة سان استفانو (San Stefano) التي عدّلت بعد ذلك في مؤتمر برلين في حزيران من السنة نفسها . وامّا الحركة الاستقلالية وتنصيب الأمير عبد القادر الجزائري ملكاً على بلاد الشام فيقول فيها عادل الصلح اخيراً :

« وقد جعل اتفاق الدول الاجنبية فيما بينها في مؤتمر برلين ومهادنتها للدولة العثمانية من جهة ، والتدابير التي لجأت اليها السلطات وحملات التقويض على ابناء البلاد من جهة اخرى ، متابعة اعمال المؤتمر وتنفيذ قراراته في تلك الظروف امراً مستحيلا » .

بين ١٨٨٢ و ١٨٨٥ وقع حادثان مفاجئان منفصلان لا علاقة لهما البتّة بشؤون ولاية سوريا أثارا موجة من العداء في هذه الولاية ضد الاتراك وحكمهم ، اعني ثورة عرّابي باشا في مصر وثورة المهدي في السودان . وتشير الرسائل التي كان يبعث بها القنصلان البريطانيان في دمشق والقدس إلى العطف الصادق الذي ابداه المسلمون على قضيتي عرّابي والمهدي . فقد كانوا ينظرون إلى عرّابي على انه زعيم العرب ، وإلى ثورته على انها ، في حال نجاحها ، تنطوي على مضاعفات خطيرة من شأنها ان تقرّر مصير العرب كأمة . فهي ليست مجرد ثورة لردّ الغزاة عن مصر »[٢٩]، « كما ان العرب لم ينظروا إلى المهدي على انه رعيم الدين الاسلامي فحسب ، وانما نظروا اليه على انه الخصم المجاهد ضدّ الحكم التركي . »[٣٠]

وفي ٧ آذار ١٨٨٥ ، بعث قنصل فرنسا في دمشق السيد ت . جيلبير (T. Gilbert) ببرقية إلى وزارة الخارجية الفرنسية يقول فيها انه علم من مصادر موثوق بصحتها ان « اتفاقاً » وديّاً قد حصل بين المهدي وزعماء القبائل في الصحراء العربية . واهم الشروط في هذا الاتفاق الودي ينصّ اولا على وجوب طرد الأتراك من الأرض العربية ، ثمّ اعلان استقلالهم الذاتي في شكل اتحاد ....[٣١]

غير ان بوادر النقمة ضد فساد الحكم التركي ، والشكوى من استبداده ، يجب ألاّ تعتبر محاولة منظّمة ذات أبعاد قام بها المسلمون العرب للانفصال عن الامبراطورية العثمانية بغية قيام دولة عربية مستقلة . وفضلا عن هذا ، فقد كان قادة الفكر والزعماء المسلمون يدركون تمام الادراك ما للدول الغربية من مطامع ومصالح في الامبراطورية العثمانية ، كما كانوا ايضاً يعلمون ان اي ضعف او وهن يصيب الامبراطورية العثمانية من شأنه ان يؤدّي إلى قيام دولة غربية او اكثر باحتلال البلدان العربية في الشرق الادنى . وتحسن الاشارة هنا إلى حقيقة اخرى ، هي ان التوسّع الاستعماري في افريقيا وآسيا كان قد بلغ الذروة في هذه الفترة الواقعة بين ١٨٤٤ — ١٩٠٠ . وعليه لم يكن يخطر ببال الاتراك والعرب المسلمين ان يضعفوا السلطة العثمانية التي كانت سلطة اسلامية . ولم يشأ العرب آن ذاك ان ينفصلوا عن الامبراطورية العثمانية لانها كانت « الدولة الاسلامية القوية الوحيدة » . جل ما كان يطالب به العرب هو اصلاح الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي . اما المتطرفون ، اي الثوريون من العرب المسلمين ، فقد كانوا يطالبون بالاستقلال الذاتي ، انما داخل اطار الامبراطورية العثمانية لا خارجها .

وهكذا ظلّ زعماء المسلمين ، إلى جانب الغالبية الساحقة من سكان الاقاليم العربية ، على ولائهم للأتراك . وهكذا نرى ان عبارة « يقظة العرب » التي شاعت كثيراً ، وأسيء فهمها كثيراً ، لم تكن تعني في بادىء الامر سوى نوع من التيقظ والوعي لما كان يكتنف الحكم التركي من سوء وفساد واستبداد . كانت تعني ، في بادىء الأمر ، المطالبة بالاصلاح ، اصلاح الحكم ، والقضاء على الفساد فيه . وكانت تعني ايضاً مطالبة العرب بمساواتهم مع الاتراك في الحقوق والواجبات ، والمطالبة بقسط اوفر من الحرية السياسية والمدنية . لكن لم يكن يخطر ببال الغالبية الساحقة من المسلمين ان البديل ، في حال عجزهم عن نيل مطلبهم بالأصلاح والمساواة ،

هو قيام دولة عربية مستقلة، إما عن طريق الانفصال عن الامبراطورية العثمانية او عن طريق زوالها من الوجود . ذلك لان مثل هذا البديل لم يكن امراً مرغوباً فيه ولا امراً يمكن تحقيقه . وبينما كان النصارى في لبنان يطالبون بالاصلاح السياسي وبالاستقلال السياسي كان مفكرو المسلمين في سائر انحاء الامبراطورية العثمانية يطالبون بتطهير الامبراطورية من الادران التي لحقت بها ، وبتقويتها عن طريق اصلاح الادارة فيها ، وبالرجوع إلى الاسلام الصحيح والمؤسسات الاسلامية الصحيحة. ولذلك كان هؤلاء الزعماء المسلمون من روّاد الحركة التي كانت تهدف إلى قيام « الوحدة الاسلامية » . وكان من اشهرهم الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ — ١٩٠٢) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ —١٩٣٥) مؤسس مجلة المنار (٣٢) .

كان محمد عبده ، « اعظم مصلح حقيقي في الاسلام » كما يدعوه الاستاذ جب (H.A.R. Gibb) ، يريد تحرير الفكر من عبودية التقليد . وكان يرى ان « مرض » المسلمين اولا هو جهلهم حقيقة دينهم ، وثانياً استبداد حكامهم وظلمهم (٣٣) . وكان برنامجه الاصلاحي يشمل اولا « تطهير الاسلام من المؤثرات المفسدة ومن الطقوس البالية ، وثانياً « الدفاع عن الاسلام في وجه التيارات الاوروبية والتهجمات المسيحية . » (٣٤) وكان محمد عبده ، يعارض في احتلال الدول الغربية اقطاراً اسلامية ، كما كان يقف في وجه التيارات الثقافية الاوروبية الضارة ، وفي وجه الحضارة المادية .

اما الكواكبي فقد ترك لنا كتابين ضمّنهما آراءه واهدافه في بعث الحياة الاسلامية بوجه عام والحياة العربية بوجه خاص . هذان الكتابان هما « ام القرى » و « طبائع الاستبداد » . وبالرغم من ان تعاليمه المتعلقة بأحياء الاسلام وتوحيد العالم الاسلامي لا تختلف جوهراً عن تعاليم جميع الزعماء الذين كانوا يدعون للوحدة

الاسلامية فانه « كان يميز بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب تمييزاً دقيقاً » . وكان يؤكّد تأكيداً شديداً على « المكانة الخاصة التي يجب ان يحتلها العرب في الاسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم . » (٣٥)

فقد رأى الكواكبي ان عرب الجزيرة العربية هم المؤهلون لاعادة مجد الاسلام ، ذلك لان العناية الالهية حمتهم من الفساد الخلقي الذي ألمّ بالأتراك (٣٦) . لكن مهاجمته العنيفة للاتراك لم تجعل منه عربياً قومياً . لان الكواكبي كان يعتقد ان السلاطين العثمانيين لم يكونوا مسلمين مخلصين لاسلامهم ، لانهم قدّموا اولا مصالحهم السياسية التوسعية على مصالح الاسلام الحقيقية (٣٧) . واذا كان الكواكبي يعظم شأن العرب ويمجّد تفوقهم على الاتراك فذلك راجع ، في رأيه ، إلى ان العرب مسلمون يفضلون الاتراك في اسلامهم ، وإلى ان العرب هم ، لذلك ، حماة الاسلام (٣٨) .

ولم يكن الطابع المميّز للاصلاح الذي دعا اليه رشيد رضا ، عن طريق مجلة المنار الشهيرة الواسعة الانتشار ، يختلف عن الطابع الذي اتسمت به تعاليم سلفيه — محمد عبده والكواكبي — اعني انه كان طابعاً دينياً . كان يحاول ان يبرهن ان الاسلام نظام ديني صالح لكل زمان ومكان ، وان الشريعة الالهية شريعة عملية واداة صالحة للحكم . وكان يعتقد « ان المصلحين السياسيين القوميين في مصر وتركيا هم قوم ملحدون كفار لان نظرتهم إلى القومية لا ترتكز على اسس دينية . » (٣٩)

وعند منصرم القرن التاسع عشر أخذ الوضع الداخلي ينهار بسرعة . فقد ازدادت النقمة ، وتفاقم الفساد ، وعمّت الفوضى بشكل خطير (٤٠) . وللرسالتين التاليتين اللتين ستثبتهما مغزى عظيم الشأن . ففي ٢٤ آب ١٨٨٨ وجّه وزير الخارجية الفرنسية رسالة إلى القنصل الفرنسي في دمشق السيد كيلوا (Guillois) يقول فيها :

« اني اشكرك على الملاحظات التي ابديتها لي في تقريرك رقم ٢١

حول بوادر النقمة والتذمر اللذين اخذا من زمن قريب بالظهور في صفوف ضباط الجيش العثماني في سوريا . وقد خامرني شيء من القلق عند قراءتي فقرات في رسالتك التي ابديت فيها توقّعك امكان حدوث ثورة أخطر شأناً يشترك فيها السكان العرب في سوريا . ولست أشك في انك تذكر جيداً ما قلته لك بشأن المحافظة على استتباب الأمن والنظام في هذه البقعة من الامبراطورية العثمانية . وهو امر نعتبره ، من جميع الوجوه ، شرطاً ضرورياً بالنسبة الينا ... » (٤١)

اما الوثيقة الثانية فتتعلّق بالوضع في بيروت ودمشق، الذي كان يتميّز « بالفوضى التامّة » . وهذا الوصف هوالوصف الحرفي الذي ذكره السيّد ده بتيتفيل (De Petiteville) ، القنصل الفرنسي العام في بيروت ، في رسالة بعث بها إلى السيد فلورنس (Flourens) ، وزير الشؤون الخارجية في الحكومة الفرنسية ، مؤرخة في ١١ كانون الثاني ١٨٨٨ . ويقول في هذه الرسالة :

« هناك الكثير من المؤامرات ، لكن على نطاق ضيّق ، تحاك خيوطها بين صغار الموظفين في الولاية القديمة . وقد عُزِل المتصرّف من منصبه وهدّد الآخرون بالمصير ذاته . وهم لا يفكرون الآن الاّ في ضمان ما جمعوه من مال على حساب الادارة . وبكلمة واحدة نستطيع ان نقول إن الفوضى التامة قد عمّت دمشق . »

ويقول ايضاً في رسالة بعث بها في التاسع من شهر شباط :

« لقد سبق لي ان تشرفت باعلام سعادتكم ان الفوضى التامّة تعمّ البلاد . ففي السراي يتنازع السلطة ثلاثة اشخاص ، المتصرّف الذي لم يعد اميناً على مستقبله لان الباب العالي قد جرّده من صلاحياته ، والقاضي الذي يتخذ اجراءات تعسّفية ، ثم القاضي العسكري للمنطقة ، عثمان باشا ، الذي اصبح يتحدّى السلطة المدنية ويترقّب سانحة للايقاع بالعنصر المسيحي . » (٤٢)

وفي اوائل شباط ١٨٩٤ بعث السيد بول كامبون (Paul Cambon)

السفير الفرنسي في استانبول ، برسالة إلى السيد كاسيمير — بيريه (Casimir-Perrier) وزير خارجية فرنسا ، تتعلق بالقضية الأرمنية يقول فيها ان هذا الوضع السيء الذي يعاني منه الارمن لا يقتصر على ارمينيا والارمن بل انه وضع تعاني منه الامبراطورية بأسرها ، بما في ذلك الجالية اليونانية والألبانية والعرب . فانهم جميعاً يشكون من فقدان العدالة ومن فساد الموظفين الحكوميين ومن عدم الأمان الذي يهدّد سلامة الانسان (٤٣) .

ان الحقيقة التي كثيراً ما يتغاضى مؤرّخو الحقبة الاخيرة في القرن التاسع عشر عن ذكرها هي ان اعنف المعارضين واشدّهم وطأة في انتقاد اوضاع الامبراطورية العثمانية كانوا الاتراك انفسهم المطالبين بالاصلاح . وليس في هذا الكتاب مجال نفسحه لبحث النشاط الذي كانت جمعية « تركيا الفتاة » تقوم به ضدّ استبداد السلطان عبد الحميد وجوره وظلم حكومته . وسنرى قريباً ان جماعة « تركيا الفتاة » هم الذين افلحوا اخيراً في خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ واعادوا دستور سنة ١٨٧٦ ، ذلك الدستور الذي لم يهتمّ به العرب كثيراً ، كما يقول لنا السفير البريطاني السير ج. لوذر (G. Lowther) في رسالة بعث بها إلى السير ادوراد غراي في ١٧ شباط سنة ١٩٠٩ (٤٤) : « يبدو انهم (اي العرب) يشكّون في امر الاصلاح . واذا كانوا يقبلون ، ولو على مضض ، بالحكم التركي فلأنه حكم اسلامي . واذا كان للسلطان عندهم من بقية احترام فلأنه الرئيس الروحي للامبراطورية العثمانية » . وبعد سنة ١٨٩٠ ازدادت معارضة تركيا الفتاة للسلطان عبد الحميد حدّة وعنفاً . ومن بين « الملفات الخاصة » التي خلّفها السير ب . كري (P. Currie) ، السفير البريطاني في الاستانة (٤٥) ، تقريران باللغة الفرنسية ، احدهما مؤرخ في ٢٧ كانون الثاني ١٨٩٤ ، وفيه يذكر صاحب التقرير انه منذ يومين ألصق على جدران الجامعين ، جامع السليمانية وجامع الفاتح ، منشوران من هذه

المناشير التي تدعو إلى الثورة . والثاني مؤرخ في ٩ تشرين الثاني ١٨٩٥ ، وفيه يذكر صاحبه انه في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني ألصقت مناشير طويلة على ابواب الجوامع الرئيسية في الاستانة ، وعلى مدخل قاعة الاحتفالات في قصر يلدز ، هاجم فيها اصحابها السلطان عبد الحميد وحكومته بعنف وبلغة نارية (٤٦) . ويبدو انه قبل توزيع هذه المناشير وإلصاقها على الجدران بيوم واحد وجد عبد الحميد رسالة مغفلة موضوعة على منضدته في مكتبه الخاص ، وفيها انذار له انه اذا لم يصدع لمضمون المناشير هذه فان حياته في خطر . ويضيف التقرير ان النقمة وعدم الرضى كانا على ازدياد مستمر . كان الواحد يسمع الناس في الأماكن العامة ، وفي المقاهي ، وفي حافلات القطار ، وعلى ظهر المراكب ، يوجّهون المذمّة والاهانة للسلطان وحكومته ، وبدون خوف او وجل . وعند مطلع القرن ، اي في ٣١ آب ١٩٠٠ ، عندما احتفل السلطان بعيد جلوسه الخامس والعشرين احتفالا مهيباً فخماً ، كان الكأس عند الناس قد طفح . فقد قضي الأمر ولاح في الافق يوم الحساب المحتّم . وفي السنوات الأولى من القرن العشرين ، بدأ الناس هنا وهناك في عالم الغرب يشعرون بان هناك « قضية عربية » . ففي ١٩٠٥ نشر نجيب عازوري في باريس كتاباً باللغة الفرنسية — يقظة الامة العربية — (Le Réveil de la Nation Arabe) وفيه بيان شديد اللهجة موجّه إلى الدول الغربية العظمى أذاعته « اللجنة الوطنية العربية » . يقول البيان انّ « تركيا على عتبة عهد جديد يتميّز بالتغيير الجذري السلمي . فان العرب الذين استطاع الاتراك ان يخضعوهم لحكمهم الجائر بواسطة تفرقتهم إلى شيع تتناحر وتتنابذ على امور دينية ليست بذات اهمية ، والذين اصبحوا الآن يعون انهم امة واحدة يوحّد بينها التاريخ والشعور الوطني ووحدة العرق ، يرغبون في الانفصال عن الاتراك الذين اخذ السوس ينخر في دولتهم وتأسيس دولة عربية مستقلة . وستمتدّ هذه الامبراطورية

العربية الجديدة إلى حدودها الطبيعية : من وادي دجلة الفرات إلى السويس ، ومن البحر الابيض المتوسط إلى بحر عمان ، وستكون دولة ملكية دستورية حرّة على رأسها سلطان عربي . اما ولاية الحجاز الحالية ، ومعها مقاطعة المدينة ، فانها ستكون امبراطورية مستقلة على رأسها حاكم يكون في الوقت ذاته خليفة المسلمين . وبهذا التدبير تكون قد حلّت المعضلة الكبرى ، اعني فصل الدين الاسلامي عن الدولة المدنية ، ويكون في هذا الحلّ خير لجميع الفرقاء . » (٤٧)

غير ان اعضاء « تركيا الفتاة » التي حلّت محل جمعية « العثمانيين العصريين » هم الذين هبّوا إلى انقاذ الامبراطورية العثمانية من التجزئة والخراب . وما اكثر ما وضع من كُتُب عالجت ولادة جمعية تركيا الفتاة (٤٨) . كان هدفهم اولا اقامة حكومة نيابية في الامبراطورية ، وذلك عن طريق اعادة الدستور الذي وضعه مدحت باشا في ١٨٧٦ ، وثانياً وقف تدخل الدول الاوروبية في شؤون الامبراطورية . ومن المفيد هنا ان نثبت الفقرة التالية الموجزة عن تاريخ هذه الجمعية (٤٩) :

« بعد ان شتّت عبد الحميد في العقد السابع من القرن التاسع عشر شمل الحركات التحررية وارغم اعضاءها على الهرب والاختباء ، عادت الى نشاطها في السنوات الاخيرة من القرن إلى الظهور بين جماعة الاتراك المنفيين في اوربا . وفي ١٩٠٢ عقدت تركيا الفتاة اول مؤتمر لها في باريس (٥٠) ، حيث اكّد المؤتمرون الاتراك الذين اصبحوا يعرفون الآن بجمعية الاتحاد والترقي ، مرة ثانية ، عزمهم الوطيد على متابعة الكفاح في سبيل اهدافهم الأساسية الوطنية (٥١) . وقد تحتّم على جمعية الاتحاد والترقي ان تتولى بنفسها قيادة الحركة في تلك الظروف العصيبة لتقف سدّاً في وجه النفوذ الاوربي السياسي والاقتصادي في الامبراطورية ، مما كان يهدّد استقلال الوطن الأم ، ولتحارب الحركات الانفصالية التي كانت تقوم

بها الاقليات [٥٢] . وقد تسنّى لجمعية الاتحاد والترقي انتزاع هذه القيادة شيئاً فشيئاً . وما ان اطل عام ١٩٠٧ حتى كانت الجمعية قد اعادت تنظيم صفوفها لتشمل جميع الطبقات التي كانت تنتمي إلى « تركيا الفتاة » وهيأتها للنضال . ثم تتالت الاحداث الخطيرة التي وقعت بين ١٩٠٥ — ١٩٠٨ فكانت حافزاً قوياً لنشاط هذه الحركة الثورية . فقد كانت هنالك حرب صليبية مستمرة ضدّ مقدونيا ، وكانت هنالك اساطيل روسية تقوم بالمناورات وتبدي نشاطاً ملموساً في الشرق الادنى ، هذا إلى جانب التقارب البريطاني الروسي ، وتواتر الاشاعات عن تجزئة الامبراطورية الوشيك الوقوع . وقد ارعبت هذه الاحداث الوطنيين الاتراك الذين كانوا يعتبرون الطاغية القابع على عرشه عند البوسفور اسيراً مكبلا وقع ضحية « دسائس الدول الغربية » . وعليه اعلن الجناح المعتدل في جمعية « تركيا الفتاة » ، وكان يعرف بـ « الاحرار » في ١٩٠٧ ، مبدأه السياسي العام : « الامبراطورية العثمانية للعثمانيين » ، وطلب إلى الدول الاوربية ان تكفّ تماماً عن التدخل في شؤون تركيا . وفي كانون الأول عقدت جمعية « تركيا الفتاة » مؤتمرها الثاني في باريس بزعامة « الاحرار » وإشرافهم . وقد اقر المؤتمر تبنّي ما كان يدعى بـ « اعلان المبادىء » . وقد كانت هذه المبادىء في روحها وطنية ، ثوريّة ، معادية للغرب . ودعت ، بدون مواربة او لف ودوران ، إلى اعلان الثورة على السلطان لانقاذ الامبراطورية من « جشع الدول البشع ومن قبضتها المسمومة » ووضعت خطة لقيام ثورة عسكرية تنشب في ربيع ١٩٠٩ . [٥٣]

كانت لجمعية « تركيا الفتاة » فروع في مختلف انحاء الامبراطورية العثمانية[٥٤] . وكانت مصر من المراكز الخطيرة بالنسبة للنشاط السياسي الذي كانت تقوم به تركيا الفتاة . ذلك ان بعدها عن الاستانة ، ولاسيما كونها تحت الادارة البريطانية ، قد جعل منها ملجأ وملاذاً لجماعة من المفكرين السياسيين الذين كانوا يخشون الوقوع

في قبضة عبد الحميد الحديدية . وهناك دلائل تشير إلى ان اثنين من اعضاء تركيا الفتاة أسّسا في القاهرة ، في ١٨٩٩ ، مكتباً للطباعة والنشر ، غرضه اصدار جريدة تدعى « القانون الأساسي » ، لتكون لسان حالهم في الدعاية لمبادئهم [٥٥] . اما المركز الأساسي الخطير الشأن فكان الفرع الذي تأسّس في مدينة سالونيكا ، من اعمال ولاية مقدونيا ، حيث انضمّ اليه قسم كبير من اعضاء الجيش التركي القوي هناك ، ذلك الجيش الذي بدون مساعدته — وهذا امر كان يعلمه المسيحيون في مقدونيا — لا يمكن اطلاقاً قيام ثورة مسلّحة [٥٦].

قضت ثورة تموز ١٩٠٨ على الحكم الحميدي ، ولو ان ذلك كان لفترة قصيرة من الزمن [٥٧] . اذ استسلم عبد الحميد للأمر الواقع في ٢٤ تموز واعاد دستور سنة ١٨٧٦ الذي كان معلّقاً . ففرح العرب والأتراك معاً وراحوا يقيمون الزينات والحفلات ابتهاجاً بهذا الحدث . وكتب على الاعلام التركية « حرية ، مساواة ، عدالة » . وانك لتجد في الأدب العربي المعاصر لتلك الفترة في كل من سوريا ولبنان والعراق ومصر فيضاً من شعر المديح الذي نظمه شعراء العصر في السلطان عبد الحميد لاعادته الحياة الدستورية الى البلاد ، ولاعلانه فاتحة عهد جديد من الحرية والعدل والمساواة . ومن جملة ما قاله الشعراء قصيدة شوقي في الدستور العثماني ومطلعها :

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

وفي نهايتها يقول [٥٨]:

يا شعب عثمانَ من ترك ومن عرب حيّاك من يبعث الموتى ويحييها
صبرت للحق حين النفس جازعة والله بالصبر حين الحق موصيها
ما بين آمالك اللائي ظفرت بها وبين مصر معان انت تدريها

ويحسن بنا ان ننقل إلى القارىء الكريم تقرير شاهد عيان يصف فيه ردّة الفعل التي حصلت هنا عند السوريين ، لمناسبة هذا الحدث الخطير . يقول صاحب التقرير :

« عصر نهار الأحد في ٢٦ تموز (١٩٠٨) ونحن خارجون من الصلاة في الكنيسة الانجيلية الصغيرة في عاليه والتي كانت تقام باللغة الانكليزية ، فاجأنا السيد رافندال (Ravendal) ، القنصل العام ، بالاخبار البرقية الواردة والتي تقول ان دستور مدحت باشا الذي علّقه عبد الحميد قرابة اثنتي وثلاثين سنة قد أعيد في ٢٣ تموز بعد ثورة بيضاء قامت بها جمعية تركيا الفتاة ....

« ولقد ابتهج السكان في طول الامبراطورية وعرضها ، واكثرت الصحافة من التكلّم عن هذا الحدث . واقيمت الحفلات العامة . واقيمت الزينات في المدن والقرى ، وكنت ترى المسلمين يعانقون المسيحيين واليهود ويدعون بعضهم بعضاً إلى الحفلات والمآدب .... وكان المسلمون يصرّحون قائلين : نحن الآن اخوة ونستطيع العيش معاً بسلام . نحن الآن جميعاً مواطنون عثمانيون . فلتحيا الحرية ، وليحيا الجيش ، وليحيا السلطان !

« لقد تفجّرت عواطف الناس المكبوتة وراحوا يعبرون عن فرحهم بهتافات في الشوارع والأماكن العامة . ان سوريا لم تشهد فرحاً وابتهاجاً كالفرح والابتهاج اللذين يشعر بهما الأهلون . هل ان هذا صحيح ؟ هل هو امر يدوم ؟ مثل هذه الاسئلة كانت تدور على السنة الناس . انها كانت مفاجأة كبرى لاولئك الذين تركوا سوريا في اوائل شهر تموز وعهدهم بها انها ترزح تحت نير الحكم الحميدي ، وما ان وصلوا إلى ميناء نيويورك حتى سمعوا بالاخبار السارة من ان تركيا تنعم الآن بحكم دستوري يضمن الحريات . وكاد الناس الاّ يصدقوا ما سمعوه ، ونحن الأجانب مع الاهلين نشعر كأننا نعيش في حلم . يبدو ان فجر الحلم الذهبي وشيك الانبلاج »[٥٩] .

وفجأة ارتفعت شعبية عبد الحميد[٦٠] . وقد نشرت المجلة اللندنية المصورة (The Illustrated London News) في ٢٢ آب صورة فوتغرافية لعبد الحميد راكباً عربته في اول « سلاملك » بعد اعادته الحياة الدستورية إلى البلاد ، وتحت الصورة كتبت تقول : « هذه صورة السلطان الذي كان يدعى عبد اللعين واصبح الآن عبد المبارك »[٦١].

عقد المجلس النيابي التركي جلسته الاولى في ١٧ كانون الأول ١٩٠٨ بحضور السلطان نفسه وسائر الامراء العثمانيين[٦٢] . وكان عدد اعضاء المجلس ٢٦٠ ، منهم ١١٩ نائباً تركياً و ٧٢ نائباً عربياً . اما بالنسبة إلى الدين فقد كان عدد المسلمين ٢١٤ ، والمسيحيين ٤٢ ، واليهود ٤ . وكان لحزب اللامركزية ٣٥عضواً ، معظمهم من غير الاتراك . وانتخب احمد رضا بك رئيساً للمجلس . وكان من نواب الرئيس يوناني اسمه اريستيدي (Aristidi) باشا ، وألباني اسمه ندشيا دراغا (Nedchia Draga) ، وعربي هو روحي عبد الهادي . اما عبد الحميد فقد شرع ، منذ اليوم الأول بعد اعلان اعادة الدستور ، يحوك الخطط للتخلص من جمعية « تركيا الفتاة » ، وللتملّص من الدستور ومن مجلس النواب . وفي الثالث عشر من نيسان ١٩٠٩ جرت محاولة في الاستانة للقيام بثورة مضادة .

ومهما يكن من امر ، فقد كان الجيش بقيادة شوكت باشا على استعداد . فزحف إلى العاصمة وحاصر يلدز ، قصر السلطان . ثم اجتمع اعضاء مجلس الاعيان ومجلس المبعوثان واتخذوا قراراً بخلع السلطان وتنصيب اخيه محمد رشاد الذي سمّي بمحمد الخامس[٦٣] . وبعد ذلك فوراً ، اي في مساء ٢٧ نيسان ١٩٠٩ ، نفي السلطان عبد الحميد ، مع بعض حريمه وحاشية صغيرة معه ، إلى سالونيكا وسجن في فيلاّ « ألاتيني » (Alatini) الواقع في ضاحية من ضواحي المدينة[٦٤] . وهكذا دخل آخر سلطان طاغية

من سلاطين آل عثمان في ذمّة التاريخ ، وزال « ظل الله » الذي خيّم على الشرق الاسطوري ، الشرق الذي كان يعيش بعقلية العصور الوسطى . وبزوال عبد الحميد كان الاتراك قد وصلوا إلى نهاية المطاف من تاريخهم ، ذلك التاريخ الذي كان يربطهم بآسيا وبالشعوب الاسلامية قرابة ست مئة سنة .

الفصل الخامس

نشوء القومية العربية

١ـ في عهد تركيا الفتاة (١٩١٩-١٩١٤)

ذكرنا آنفاً ، في الفصلين السابقين من هذا الكتاب ، انّ العرب ، بالرغم من انهم كانوا يشعرون بالنقمة وعدم الرضى عن الحكم التركي ، لم يفكروا ، باكثريتهم الساحقة ، في الانفصال عن الامبراطورية العثمانية . كانوا يطالبون ، وبإلحاح واصرار ، بالإصلاح ، حتى انهم ظلوا ، مهما قسوا في نقدهم السلطنة ، يشعرون بالولاء للخلافة . لكن عند مستهل القرن العشرين ، وعلى وجه التحديد بين ١٩٠٨ — ١٩١٨ في عهد تركيا الفتاة ، توتّرت العلاقات التركية العربية وطرأت عليها تغييرات جذرية . ذلك لان العرب استمرّوا في مطالبتهم بالاصلاح ، غير ان هدفهم الأساسي اصبح الآن الاستقلال الذاتي للولايات العربية ، لكن في اطار الامبراطورية العثمانية . وبكلام آخر ، كانت فكرة الاستقلال الناجز التام ، والسيادة العربية القومية ، من الأمور التي طرأت على التفكير العربي فيما بعد ، لا في اول الأمر .

كتب اوريل هيد (Uriel Heyd) يقول: « ان ثورة ١٩٠٨ التي قامت بها جمعية تركيا الفتاة كانت تقول بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين بدون تمييز لا في الدين ولا في العرق . غير ان هذه الوعود الجميلة لم تحقق اطلاقاً » [١] . وهذا الخلف في الوعود والتعهدات التي اخذتها تركيا الفتاة على نفسها كان من شأنه ان يؤدّي حتماً إلى الانشقاق بين العرب والأتراك [٢] . ولذا كانت سنة ١٩٠٨ ، وبوجه خاص سنة ١٩٠٩ ، من السنوات الحاسمة في

تقرير مصير الامبراطورية العثمانية[٣] .

ليس هناك من ادلة تاريخية تدعم المزاعم التي تقول ان تركيا الفتاة انما استولت على مقاليد الحكم وغايتها اغفال امر الاسلام واهميته في الحكم والتخلص من العناصر غير التركية في الامبراطورية، وارساء سياسة التتريك . وها نحن نثبت تقريراً رسمياً لا يرقى الشك إلى صحته ، وفيه وصف موجز واضح للوضع السياسي آن ذاك . يقول التقرير : « اولا ، لم تكن جمعية الاتحاد والترقي قوميّة لانها اغفلت مشكلة القومية في الامبراطورية العثمانية . كان همّها الاوّل الحفاظ على سلامة الامبراطورية من التجزؤ ، لاسيما في الولايات الاوربية . وفي هذا الشأن كانوا على اتفاق في وجهة النظر بينهم وبين عبد الحميد وسائر الحكام العثمانيين من قبله . واذا كان هناك من خلاف بينهم وبينه فانه كان خلافاً حول الوسائل التي يجب اتباعها . فقد كان عبد الحميد طاغية يؤمن بالحكم المطلق اسلوباً يجب ان يتبع في البلاد ، وكان في الخارج يتبع سياسة « التوازن الدولي » التي كان من شأنها ان تبقي الدول الغربية متحاسدة متنابذة في الامور التي تتعلّق بتركيا ومستقبلها . اما جمعية الاتحاد والترقي فانها كانت ترى ان افضل ضمان لحماية الامبراطورية هو قوتها الداخلية ومنعتها ، وافضل وسيلة لتوافر القوة والمنعة في الداخل هي اطلاق الحريات السياسية العامة . وكانت نظرتها إلى الحرية مستمدّة من مبادىء الثورة الافرنسية التي كانت تنادي بالحرية والمساواة والاخاء . وكانت تعلن ان هذه المبادىء ستطبّق فيصبح جميع السكان في الامبراطورية ، على اختلاف دينهم وعرقهم ، مواطنين احراراً في أمّة واحدة ، ولاؤها للدولة العثمانية ... وبهذا تُحلّ مشكلة القومية من تلقاء ذاتها .

« وهذا ما حدث فعلا في اثناء الاسابيع الستة الأولى بعد اعلان الدستور في ١٩٠٨ . فكنت ترى الناس على اختلاف اديانهم واعراقهم يعانقون بعضهم بعضاً في الشوارع وعلى الطرقات . لكن

الناس عادوا، بعد فترة ، إلى التفرّق والانشقاق، وراح كلّ يفكّر في استغلال الوضع الجديد لتحسين اوضاعه الخاصة ومنافعه الذاتية . فقد اصرت الشعوب البلقانية .... على استغلال اول سانحة لتوحيد صفوفها ونيل استقلالها على حساب تركيا نفسها . اما الشعوب الأخرى ، كالعرب والارمن والروم الارثوذكس في استانبول وفي بلاد الاناضول ، فكانت ترى ان الانفصال عن تركيا امر يستحيل تحقيقه ، ولذا راحت تتخذ الاجراءات الممكنة للدفاع عن قوميتها وعن شخصيتها ، لكن ضمن البقاء في اطار الدولة العثمانية . وكانت المعارضة في مجلس النواب الجديد تتألف في معظمها من العرب ... وقد وجدت جمعية الاتحاد والترقي ان الاتراك هم وحدهم لا يعارضون المركزية ، وان اهدافهم السياسية المثلى لم تكن تتعارض بشيء مع فكرة الدولة العثمانية . ولذلك عادوا إلى قوميتهم التركية وأصبحوا يعتبرون سياسة التتريك الوسيلة الطبيعية الناجعة لبلوغ غاياتهم ... »[٤]

انّ عجز تركيا الفتاة عن تطبيق مبادئها الأساسية في العدل والمساواة على جميع الشعوب في الامبراطورية لم يقتصر على العرب وحدهم ، بل تعدّاه ، وبتصلب وقسوة ، إلى رعاياها من المسيحيين في البلقان . ففي ٢٨ آب ١٩١٠ كتب السيد أ . جيري (Geary) ، نائب القنصل العام البريطاني في موناستير (Monastir) إلى السير ج . لوذر (G. Lowther) ، السفير البريطاني في استانبول يقول : « اتشرف بان اطلع سعادتكم اني تلقيت سرّاً ، ومن مصدر لا يرقى الشك إلى صحته ، خلاصة خطاب القاه طلعت بك في سالونيكا على اعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين عقدوا لهم اجتماعاً سرياً ، وأخبرت ايضاً بأن خطاب جاويد بك (Djavid Bey) الذي القاه في ظروف مماثلة في موناستير لا يختلف محتوىً ومعنىً عن خطاب طلعت » .

ثم يلي هذا خلاصة خطاب طلعت بك : « كلكم تعلمون ان

الدستور ينصّ على فرض المساواة بين المسلم والكافر ، وجميعكم تشعرون ايضاً ان هذا امر مثالي لا يمكن تحقيقه واقعياً . ان شريعتنا الاسلامية ، وتاريخنا بجملته ، وشعور المئات والالوف من المسلمين ، لا بل ان شعور الكفار انفسهم الذين يقاومون بعناد كل محاولة لتتريكهم ، امور تقف سدّاً منيعاً يحول دون تحقيق المساواة الحقيقية . ولقد باءت جميع محاولاتنا لتتريك الكفار وكسب موالاتهم للعثمانية بالفشل الذريع ، واية محاولات اخرى مشابهة لها ستبوء حتماً بالفشل ما دامت الولايات الصغيرة المستقلة في شبه جزيرة البلقان مراكز لنشر الدعوة للانفصال بين سكان مقدونيا. وعليه لا يمكن ان تكون هناك مساواة بين المواطنين ما لم نفلح اولا في تتريك الامبراطورية — وهو عمل شاق طويل المدى ، واني لأجرؤ على التنبؤ باننا سننجح في نهاية الأمر ، وذلك بعد القضاء قضاء مبرماً على كل حركة ثورية وكل دعاية سياسية ضدنا في الولايات البلقانية » (٥) .

وبعد تسعة ايام ، اي في ٦ ايلول ، كتب السير ج. لوذر (Sir G. Lowther) إلى السير ادورد غراي (Sir Edward Grey) يقول : « لقد بدا منذ زمن بعيد ان جمعية الاتحاد والترقي قد عدلت نهائياً عن فكرة تتريك جميع الشعوب غير التركية بالطرق الدستورية ، وعدلت كذلك عن الاساليب المتبعة لاستمالتها وكسب عطفها وولائها . ويبدو كذلك ان « العثمانية » في نظرها تعني « التركية » اي جعلهم اتراكاً ، وان سياستها في « عثمنة » الامبراطورية تعني سحق العناصر غير التركية بمطرقة تركية . وكان الأمل معقوداً على انه عندما يتم لاعضائها الاستيلاء التام على مقاليد الحكم ، وعندما تتلاشى المعارضة من جرّاء الضغط الذي تمارسه الدولة ، تتمكن الجمعية من توسيع نطاق سياستها ، لا من التضييق عليها ، لاسيما فيما يتعلق بالادارة الداخلية . غير ان ما قاله طلعت بك يدل على ان تحقيق هذه الآمال بعيد المنال . » (٦)

يبدو ان قادة تركيا الفتاة ، في اثناء السنوات الواقعة بين

١٩٠٩ و ١٩١٢ ، اصبحوا على يقين ان دستورهم هذا لا يمكن ان يزيل فكرة الجامعة الاسلامية، كما ادركوا ان القوة الرابطة في الجامعة الاسلامية اقوى بكثير مما تصوروه سابقاً . ولذا يبدو واضحاً « ان جمعية الاتحاد والترقي ، في ١٩١١ ، قررت نهائياً تبنّي برنامج الاتحاد الاسلامي ، على الأقل في سياستها الخارجية . » (٧)
وفي ٢٧ كانون الاول ١٩١١ ذكرت جريدة التيمز (The Times) ان المقررات التالية هي من جملة ما اتخذته جمعية الاتحاد والترقي من مقررات في مؤتمر سالونيكا (١٩١١) : « يجب عقد مؤتمر سنوي في اسطنبول يضمّ وفوداً يمثلون جميع البلدان الاسلامية لبحث الشؤون التي تهم العالم الاسلامي . ويجب تأسيس فروع لجمعية الاتحاد والترقي في جميع الاقطار الاسلامية ، ولاسيما في روسيا وايران . وينبغي لنا ان نحث مسلمي روسيا على القيام بدعاية ثورية في الجيش الروسي » (٨) ... ويقال ايضاً ان رابطة كبيرة للاتحاد الاسلامي تأسست إلى جانب جمعية الاتحاد والترقي وكانت تعرف بـ « جمعية خيرية حميّة » وقد حضر اجتماعها الاخير خمسة اعضاء من الهنود (٩) .

« وقد أشار احد معاوني شريف باشا إلى ما كتبه الشيخ عبد الخالق البغدادي — وكان عضواً في الجمعيتين ، الاتحاد الاسلامي وجمعية الاتحاد والترقي — وهو ان الاسلام لا يمكن له ان يتلاقى مع الاديان الاخرى ، وان اي تقدم يحرزه العالم الاسلامي ويكون مصدره الحضارة الاوربية امر لا يمكن تحقيقه . ويبدو ان احمد رضا ، احد اتباع الفيلسوف الفرنسي اوغست كونت واول رئيس لمجلس المبعوثان ، كان مقتنعاً بأن الدين الاسلامي هو القوة الوحيدة التي يمكن ان توحّد العناصر المتباينة في الامبراطورية العثمانية .... وكان يرى ان واجب كل مسلم ان يعمل جاهداً للحفاظ على سلامة الامبراطورية العثمانية وضمان بقائها . » (١٠)
وقد تأسست في جنيف جمعية اسمها « التقدّم الاسلامي » (انجمن

ترقي اسلام) اصدرت ، باللغة الفرنسية ، نشرتها الاولى في شباط ١٩١٣ ، وفيها ان هدفها الاول تقوية الروابط بين مختلف الشعوب الاسلامية ، والعمل على تطوير حياتها الفكرية وتقدمها الاقتصادي . وذكرت النشرة بصراحة ان هذه الجمعية تعمل في سبيل رفع شأن الاسلام ، وتدافع عن الحكم العثماني ، وانها تقاوم بعنف السياستين البريطانية والفرنسية . وظهر في هذه النشرة ايضاً صفحة بالعربية فيها ذكر لامجاد الاسلام الغابرة والقول بأن على كل مسلم الآن ان يذود عن حياض « بلاد الخلافة (تركيا) آخر حمى للاسلام »[١١] .

غير ان قادة العرب المسلمين كانوا يبدون شكاً في اخلاص جمعية الاتحاد والترقي ، وذلك لسببين جوهريين : « اولا ، لان قادة جمعية الاتحاد والترقي وزعماءها كانوا جميعاً ، وبدون استثناء ، من البنائين الاحرار (Freemasons) والتعصب الديني يتعارض مع مبادىء البنائين الاحرار »[١٢] . وثانياً ، لان يهود سالونيكا كانوا جزءاً لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي [١٣] . فقد كتب ستون وتسون (Seton-Watson) يقول : « ان الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي انها غير تركية وغير اسلامية . فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من اصل تركي صاف . فانور باشا مثلا هو ابن رجل بولندي مرتد . وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بـ «دونمه» (Dunmeh) وكراسو (Carasso) من اليهود الاسبان القاطنين في مدينة سالونيكا . وكان طلعت باشا بلغارياً من اصل غجري اعتنق الاسلام ديناً . اما احمد رضا ، احد زعمائهم في تلك الفترة ، فكان نصفه شركسياً والنصف الآخر مجرياً إلى جانب كونه من اتباع مدرسة كونت الفلسفية [١٤] .

هذه المخاوف والمحاذير التي كان الزعماء العرب يبدونها نحو جمعية الاتحاد والترقي اصبحت امراً واقعاً ، وذلك بعد ان ظهرت

القومية التركية المتعصبة على حقيقتها وراحت تتحدّى الكرامة العربية في اعزّ ما لديها من دين ولغة . وفي الحقيقة ان ظهور القومية التركية بهذا المظهر هيأ التربة الصالحة لبذور الحركة العربية الانفصالية كي تنمو وتترعرع ، بدءاً من ١٩٠٩ . وهذا ، ما اصبح يعرف بـ « الاتحاد الطوراني » (Pan-Turanianism) . وهو حركة تهدف إلى توثيق الروابط بين جميع الشعوب التي تتكلّم التركية على نمط الحركة السلافية الاتحادية (Pan-Slavism) [١٥] . وقد يجد القارىء افضل عرض للحركة الطورانية في كتاب « التركية والنزعة إلى الاتحاد التركي » (Turkismus and Pan-Turkismus) لمؤلفه تكين ألب (Tekin Alp)[١٦] ، الذي صدر في مدينة فيمار (Weimar)سنة ١٩١٥ ،وفي مؤلفات يوسف بك اكجورا اوغلو[١٧] وضياء بك كوك الب [١٨] ، وفي كتابين آخرين باللغة التركية : الاول كتاب « قوم جديد » [١٩] ، وهو كتاب يحتوي الخطب التي كان يلقيها عبيد الله — وهو شيخ افغاني — في جامع ايا صوفيا ، والثاني كتاب « تاريخ المستقبل » للكاتب التركي المعروف جلال نوري بك . وجميع هذه المؤلفات نفثت في نفوس الاتراك روحاً جديدة وعزماً صادقاً لاحياء الروح الوطنية على اسس « تركية صافية » وارسائها على قواعد طبيعية من الصلات والروابط الروحية التي تربط بين مختلف الشعوب التي تتكلّم التركية . « ان الدرس الذي تعلمه اعضاء تركيا الفتاة هو ان الرجوع بالشعب التركي إلى مؤسساته الاجتماعية قبل دخوله الاسلام من شأنه ان يعود بهم إلى احياء الروح الوطنية ، وفي الوقت نفسه يكون اساساً للتقارب والتعاون بين الاتراك وبين الشعوب التركية الاخرى خارج الحدود العثمانية . » [٢٠]

ويبدو ان جمعية الاتحاد والترقي ، في بادىء الأمر ، وطّدت العزم على الانتفاع بتبني الفكرتين معاً : « الاتحاد الاسلامي » و« الاتحاد الطوراني » لاستغلالهما في سبيل مصالحها ، على ان يكون

استغلال الحركة الاسلامية بين المسلمين في الاقطار العربية خارج بلاد الاناضول ، والحركة الطورانية في تركيا . لكن يبدو واضحاً ان الهدف الأساسي في قرارة نفوس اعضاء جمعية الاتحاد والترقي كان انتصار الفكرة الطورانية .

وفيما يلي ننشر موجزاً كاملا ممتازاً للسياسة اللااسلامية التي كانت تتبعها « تركيا الفتاة » لكي يستطيع القارىء ان يفهم ردّة الفعل التي حصلت عند العرب ، وخلقت في نفوسهم روح العداء نحو الاتراك ، ذلك العداء الذي كان له اسوأ الأثر ، واخطر النتائج في الامبراطورية العثمانية :

« (اولا) وقع خلاف بين انصار ضياء بك وبين المسلمين حول قضية اللغة . ويبدو انهم فكروا في ترجمة القرآن إلى التركية ، لانهم كانوا يعلمون ان ترجمة التوراة وطقوس الصلاة إلى اللغة الانكليزية والالمانية ، بعد حركة الاصلاح الانجيلية ، اصبحت اساساً لنشوء الأدب الانكليزي القومي والأدب الالماني القومي . وليس في الدين الاسلامي ما يمنع ترجمة القرآن إلى لغة اخرى ، لكن التقليد الاسلامي يمنع مثل هذه الترجمة . ولذا لم تقدم جمعية الاتحاد والترقي على هذا العمل .

« (ثانياً) اسفرت معارضة علماء الدين في الاسلام لترجمة القرآن إلى التركية عن قيام حركة تركية وطنية لمهاجمة الاسلام على انه نظام حكم ديني . وهذه الحركة العلمانية التي ظهرت في تركيا جاءت تقليداً للحركة العلمانية في اوروبا . يدلّ على ذلك إطلاق الكاتب تكين الب تعبير « اكليريكي واكليروس » على الكهنة . لكن الحركة العلمانية كانت تستهدف اصلاحات جذرية كعلمنة التربية والقضاء . وقد خطت جمعية الاتحاد والترقي خطوات في هذا الاتجاه . واذا كان قد وقع خلاف بين اعضاء جمعية الاتحاد والترقي في قضية علمنة الدولة فانه خلاف حول افضل السبل التي من شأنها ان توفر العلمنة بأقل ما يكون من المعارضة ، وبدون ان يشعر

الناس ان العلمنة امر يتعارض مع الاسلام .

« (ثالثاً) شرع الوطنيون الاتراك في احياء حركة يمكن ان تسمى « حركة جاهلية » ، اي سابقة للاسلام . وهي حركة لها مثيلها في اوروبا في ما يسميه الالمان « الالمانية الاصيلة العريقة » وكما تظهر في التماثيل الخشبية المعروفة بتماثيل هندنبورغ . فقد احاط الاتراك الفاتحين الطورانيين الوثنيين امثال جنكيز خان وهولاكو (وهما من المغول لا من الاتراك) بهالة من التقديس والعبادة . وكان على كل عضو من اعضاء الجمعية المعروفة بجمعية « ترك قوجي » اي « التركي الشجاع » — وكانت جمعية تعنى بالتربية البدنية ربما على نمط الجمعية السلافونية ، سوكول (Sokol) ان يتخذ له اسماً طورانياً ، بصفته عضواً في هذه النوادي ، عوضاً عن اسمه الاسلامي (مثلا اوغوز عوضاً عن محمد) . كذلك تأسست جمعيات كشفية ، كان الاولاد فيها يتسمون باسماء طورانية ، وكانوا في هتافاتهم يستعملون هتافاً طورانياً — ليعش « خاقان الاتراك » — عوضاً عن لفظة بادشاه . وكانوا يحملون اعلاماً عليها صورة الذئب التركي ، مع العلم بان صور الخلائق الحية في نظر المسلم الحقيقي امر محرّم .

« ويقال ان انور باشا هو الذي كان يرعى هذه الجمعيات الكشفية . وقد وقعت صورة امر تركي صادر إلى العساكر التركية في حوزة وزارة الحرب البريطانية ، وفيه تعليمات للجنود ان يذكروا « الذئب الرمادي » في صلواتهم . ويبدو ان الطورانية ، في شكلها المتطرف ، تركت اثراً في نفوس الطبقة التركية الراقية ٥ فقد وجد جيش الملك حسين على جثة اخي القائد التركي في المدينة منشوراً اصدرته احدى الجمعيات التركية الطورانية ، جمعية « ترك او جاقي » : اي جمعية « الموقد التركي » ، جاء فيه :

« ان هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمونها « الامة الاسلامية » التي ظلت إلى امد طويل سدّاً يحول دون التقدّم بوجه عام ، ودون

تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص ، هي في طريقها الآن إلى التفكك فالزوال . وليس لنا ان نتخوّف منها على انها تشكل خطراً على خططنا في تحقيق مبادئنا واهدافنا . يتضح لنا ذلك اتضاحاً جلياً من مجرى الحوادث بين المسلمين في الهند ... » ، إن لهذا التقرير بعض الأهمية لاسيما اذا عرفنا مصدره وصاحبه . لكن ليس هنالك من ادلة قاطعة على انّه كان لهذه الحركة التي تقول « بالرجوع إلى الوثنية » اثر فعّال في تقرير السياسة التي كانت تتبعها جمعية الاتحاد والترقي . »[٢١]

ان النتائج التي اسفر عنها برنامج التّريك الذي حاولت تركيا الفتاة تحقيقه كانت حافزاً قوياً لزعماء العرب للتشديد على القومية العربية في مطالبتهم بالاستقلال التام للبلاد العربية وعاملا على توحيد قواهم . فلا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا ان السياسة العرقية القومية التي كانت تتبعها تركيا الفتاة هي التي ألهبت شعور القومية في نفوس العرب . فان اللعب بالاحاسيس القومية وبالشعور الوطني في امبراطورية تتألف من قوميات مختلفة ومن وطنيات مختلفة امر محفوف بالاخطار . فان اذكاء الروح القومية يولّد منافسة وعداء بين مختلف القوميات يؤديان حتماً في النهاية إلى خراب البلاد وتجزئتها . وعليه ، فعندما اتخذت تركيا الفتاة من الوطنية المتطرفة والتفوق العرقي اساساً لبناء تركيا الجديدة ، تركيا القوميةالموحّدة ثقافياً وسياسياً ، كانت ردّة الفعل عند قادة العرب انهم راحوا يفكرون بمستقبل اوطانهم العربية بالاسلوب ذاته . وقد اسفر الأمر عن تأسيس عدد من الجمعيات العربية والاحزاب السياسية للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم [٢٢] . وكان مؤسسوها من الشبان العرب المثقفين المفكرين . نذكر منها : جمعية الاخاء العربي العثماني ، والمنتدى الادبي ، والجمعية القحطانية [٢٣] والعلم الاخضر ، والعهد . وهذه الجمعيات الخمس تأسست جميعها في استانبول . ثم جمعية بيروت الاصلاحية ، وجمعية البصرة

الاصلاحية ، والنادي الوطني العلمي (في بغداد) ، والجمعية العربية الفتاة (وتعرف بالفتاة) ، وحزب اللامركزية الادارية العثماني [٢٤] . وليس لنا في هذا المؤلّف الوجيز ان نسهب في الكلام عن كل من هذه الجمعيات ، غير انه يجدر بنا ان نقول كلمة في جمعيتين منها هما « الفتاة » و « حزب اللامركزية » .

كانت جمعية الفتاة في غاية السريّة . وقد قيل فيها « ليس هناك جمعية اخرى لعبت دوراً حاسماً في تاريخ الحركة الوطنية كجمعية الفتاة . » [٢٥] اما جمعية « الحزب اللامركزية » فقد كانت جمعية سياسية علنية واصبحت فيما بعد « افضل منظّمة ذات سلطة تتكلّم بلسان العرب وتفصح عن امانيهم . » [٢٦]

تأسست جمعية الفتاة في باريس في ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٩ . وكان مؤسسوها جماعة من الطلاب العرب الذين كانوا يتابعون دراستهم العليا في تلك المدينة . وكان توفيق الناطور [٢٧] من اكثرهم همة ونشاطاً . وجدير بالذكر ان هذه الجمعية كانت هيئة عربية اسلامية ، وكان مؤسسوها قد سمّوها في بادىء الأمر « جمعية الناطقين بالضاد » [٢٨] . ثم عادوا فاطلقوا عليها اسم « الجمعية العربية الفتاة » . كان هدف الجمعية السياسي نيل الاستقلال العربي داخل اطار الامبراطورية العثمانية المزدوجة العرق ، اي العرق التركي والعرق العربي ، على نمط يشبه تركيب الامبراطورية النمساوية الهنغارية . وإلى جانب هذا الهدف السياسي كانت الجمعية تستهدف ايضاً رفع شأن « الامة » العربية اجتماعياً وتربوياً إلى المستوى الذي بلغته الدول الغربية . وكان يجب ان يحصل هذا دون مساس بوحدة الامبراطورية العثمانية او القضاء عليها [٢٩] . وها هي خالدة اديب ، في نقدها سياسة تركيا الفتاة ، تعترف بان امبراطورية عثمانية مصغّرة «لا تستطيع ان تكون قوية عزيزة الجانب في وسعها ان تقف في وجه الدول المتفوقة المتحفّزة للانقضاض عليها » الاّ اذا حصل « تفاهم تام وتعاون تام بين الاتراك والعرب . » وتضيف

قائلة : « نعم ، كان العرب يتّقدون وطنية ، لكن إلى جانب هذا كان هنالك فكرة تعزى إلى محمود شوكت باشا — وهو من اصل عربي — جديرة بالاعتبار ، وهي اقامة ملكية مزدوجة ، تركية — عربية ، يكون مركز الحكومة فيها مدينة حلب . اما اذا كان مثل هذا التدبير سيحول دون تجزئة الاقطار الاسلامية وتفكيكها فأمر يقع في نطاق الحدس والتخمين ، لكنها فكرة كان ينبغي ان يكون لها حظ من التجربة » (٣٠) . وكان ضياء كوك الب (Ziya Gokalp) « الذي يعتبره كثيرون الأب الروحي للقومية التركية ، وأحد قادة الفكر التركي في عصرنا هذا » يأمل ان يرى الشعوب غير التركية في الامبراطورية العثمانية ، في يوم ما ، تنعم بعيش هانئ ، جنباً إلى جنب مع الاتراك ، تجمع بينهم الالفة والتعاون . وقد اقترح قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى ، « اقامة دولة مزدوجة تسمّى الدولة التركية — العربية ، يرئسها خليفة تركي . وفي ١٩١٨ اقترح ايضاً اقامة وحدة او اتحاد يضم دولتين مستقلتين هما الأناضول التركي « وعربستان » . وهذا الاتحاد ، على حدّ قوله ، هو اتحاد طبيعي بفضل العوامل الجغرافية والروابط الدينية ، إلى جانب كونه اتحاداً حيوياً للدفاع عن الشعبين وحمايتهما . ولا شك في ان العرب الذين ينقصهم التنظيم المدني والعسكري يفيدون من هذا الاتحاد والاّ فانهم يقعون فريسة في قبضة الدول الغربية فور انفصالهم عن اخوتهم الاتراك » (٣١) . لكن الهزيمة التي منيت بها تركيا في الحرب العالمية الاولى ، وسلخ الولايات العربية عن الامبراطورية قضيا على جميع هذه الامكانات والتمنيات .

وفي حديث جرى بين المؤلف وتوفيق الناطور ، قال الأخير : « ان فكرة القومية العربية ، او العروبة ، لم تكن بعد قد تبلورت وقويت . جلّ ما كنا ، نحن العرب ، نطلبه ، هو ان نتمتع في الامبراطورية العثمانية بنفس الحقوق والواجبات التي كان يتمتع بها الاتراك ، وان تقوم الامبراطورية على ركنين عظيمين ، الشعب

التركي والشعب العربي » (٣٢) . وهذه الرغبة في الوحدة ، الوحدة التي يتلاشى فيها الخلاف ، تبدو واضحة في البرنامج السياسي الذي تبنته جمعية تركية اسمها « حريت وأتلاف » . كانت مبادىء هذه الجمعية تقوم على احدى فكرتين سياسيتين كانتا شائعتين في تلك الفترة بين صفوف اعضاء مجلس المبعوثان سنة ١٩٠٨ ، الواحدة تقول باللامركزية والثانية ، وهي التي كانت تأخذ بها جمعية الاتحاد والترقي ، تقول بالمركزية . ويبدو ان الامير صباح الدين ، ابن الداماد محمود باشا ، وابن اخت السلطان عبد الحميد ، هو الذي كان يدعو إلى اللامركزية السياسية ويعضدها ، وكانت تعرف بـ « عدم مركزيت » . وكان هذا الرجل ، واخوه لطف الله ، وابوه ، قد هربوا جميعاً إلى فرنسا عندما بلغ الاضطهاد الحميدي الذروة في الظلم والقسوة سنة ١٨٩٩ . وقد كان رجلا محبباً إلى قلوب « الاحرار » من الاتراك الذين كان يشجعهم ويوجّههم مع سائر اخوانهم من العناصر غير التركية في الامبراطورية . فكان يجمع حوله في باريس قرابة سبعة واربعين رجلا من العثمانيين الاتراك الذين يمثلون مختلف الطبقات والشعوب التي كانت جزءاً من الامبراطورية — بمن فيهم جماعة من العرب — وينفث فيهم روح العزم طالباً اليهم ان يظلوا متحدين تحت لواء العثمانية (٣٣) . وعندما عاد إلى الاستانة في اعقاب الثورة التي قامت بها تركيا الفتاة في ١٩٠٨ ، اسس الرابطة التي كانت تعرف « بالرابطة اللامركزية » . وكان جوهر برنامجه السياسي ان تحصل الولايات على الاستقلال الذاتي ، على ان تبقى متحدة خاضعة للراية العثمانية ، يحميها الجيش العثماني ويدافع عنها في الظروف التي تمسّ أمن الدولة وسلامتها . غير ان سياسة تركيا الفتاة المتعصبة المتزمّتة دفعت بقادتها ، في تشرين الثاني ١٩٠٨ ، إلى حلّ هذه الرابطة التي اسسها صباح الدين (٣٤) . وبعد ذلك بقليل من الزمن ، اي حوالي ١٩١٢ اسّست جماعة من السوريين من اهل الفكر والاختبار السياسي

— وكان من بينهم لبنانيون وفلسطينيون هاجروا إلى القاهرة — حزباً سياسياً ، بمعرفة الحكومة التركية ،اطلقوا عليه اسم « حزب اللامركزية الادارية العثماني » . وقد نادى هذا الحزب بحق كل مواطن عثماني ، سواء اكان عربياً ام غير عربي ، ان ينضمّ إلى الحزب ، شريطة ان تتفق مبادئه السياسية مع مبادئ الحزب واهدافه (٣٥) .

وقد نشر هذا الحزب اللامركزي بياناً يوضح فيه منافع اللامركزية في بلد يضمّ قوميات مختلفة واعراقاً بشرية مختلفة ، كما كانت الحال في الامبراطورية العثمانية ، ويبيّن الغاية من تأسيسه ، وهي الحفاظ على الامبراطورية من الاخطار الخارجية ، ومن المنازعات الداخلية ، وخلق الشعور بالولاء لوحدة الامبراطورية العثمانية والاخلاص للرمز الذي يوحّد بينهم ، ألا وهو العرش العثماني . وقد اتبع هذا البيان بنشر برنامج الحزب الذي كان يحتوي ست عشرة مادة ، نذكر منها اربعاً تعطي فكرة واضحة عن سياسة الحزب واهدافه (٣٦) :

« (المادة الاولى) الدولة العلية العثمانية دولة دستورية نيابية . وكل ولاية من ولاياتها تعد جزءاً من السلطنة لا ينفك عنها بحال من الاحوال ، وانما تبنى ادارة هذه الولايات على اساس اللامركزية الادارية . والسلطان الاعظم هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة .

« (المادة الرابعة) يكون في مركز كل ولاية مجلس عمومي ومجلس اداري ومجلس معارف ومجلس اوقاف .

« (المادة الرابعة عشرة) يكون في كل ولاية لغتان رسميتان التركية واللغة العربية .

« (المادة الخامسة عشرة) يجب تعميم التعليم في كل ولاية بلغة اهلها » .

بعد ان استولت تركيا الفتاة على مقاليد الحكم ، وبعد ان كان العرب قد هلّلوا وكبّروا لاعلان الدستور ، تغيرت الحال وحلّ

الأسى مكان الابتهاج ، واليأس مكان الأمل . كان قادة العرب يؤمنون بأنه يستحيل على الحكومة التركية ان تدير ادارة فعالة شؤون امبراطورية مترامية الاطراف تتألف من قوميات وشعوب ولغات مختلفة متباينة في العادات والتقاليد ، اذا كانت الحكومة حكومة مركزية . كانوا يرغبون في ان يروا قيام حكومة دستورية تمثّل جميع طبقات الشعب تمثيلا حقيقياً . فقد كانت الحكومة التركية ، آن ذاك ، حكومة دستورية ديمقراطية بالاسم لا بالفعل . ذلك لان العناصر البشرية المختلفة التي كانت تقطن الامبراطورية العثمانية لم تكن تتمتع بالحقوق نفسها ، وبالامكانات نفسها التي كان المواطنون الاتراك يتمتعون بها . وكانت الطبقة الحاكمة تقتصر على الاتراك ، وتحتل مركزاً خاصاً ممتازاً في الدولة . هذا فضلا عن ان الحكومة كانت تتبع سياسة صهر العنصر العربي في بوتقة العثمانية . وقد اسفرت سياسة التتريك عن محاولة قامت بها جمعية الاتحاد والترقي لجعل اللغة التركية اللغة الرسمية الوحيدة في البلاد ، مما زاد من نقمة العرب وعدم رضاهم عن سياسة تركيا الفتاة .

كتب السير ادوين بيرز (Sir Edwin Pears) عن جمعية الاتحاد والترقي يقول : « انها لا تتسامح بقضية اللغة التي يجب ان تكون التركية ، والتركية فقط » لانهم، كانوا يريدون ان يجعلوا من الرعايا المتباينين عرقاً ولغة « امة موحدة في لغتها » . ولذا فرض على الناس تعلّم التركية ، بحيث اصبحت لغة مقرّرة في كل مدرسة . وصدرت الأوامر بتغيير اسماء الشوارع غير التركية إلى أسماء تركية ، هذا مع العلم ان اقلّ من جزء واحد على عشرين من السكان في معظم المدن التركية يستطيع ان يقرأ التركية . ويذكر الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مذكراته ما حصل له سنة ١٩١٠ (٣٨) . يقول الدكتور شهبندر ان كامل بك الصلح اخبره الخبر التالي : « عندما كنت في طريقي من موناستير إلى دمشق

لأتسلم منصبي الجديد في محكمة النقض والابرام ، عرّجت على الاستانة بطلب من وزير العدلية آن ذاك ، السيد نجم الدين منلا بك ، الذي نبّهني إلى أن لغة المحكمة التي سأتسلم رئاستها يجب ان تكون التركية من الآن وصاعداً . وذلك لانهم ، كما قال لي ، « سيتخلّون عن العرب » . ويتابع الدكتور شهبندر كلامه في مذكراته فيقول : « عندما كنا اعضاء في جمعية الاتحاد والترقي في سوريا تبلّغنا شفهياً تعليمات من المكتب الرئيسي للجمعية بواسطة الدكتور محرّم بك ، مؤدّاها انه ينبغي لنا ان نستعمل اللغة التركية في مراسلاتنا الرسمية مع الجمعية » . وهكذا ، كما يقول الدكتور شهبندر ، كانت هنالك محاولة عن عمد وتصميم لجعل اللغة التركية تحلّ محل العربية في البلدان العربية .

لكن هذه السياسة التي استهدفت احلال اللغة التركية محل اللغة العربية كانت ، منذ البدء ، محكوماً عليها بالفشل . اذ كان يستحيل على الاتراك ان يفرضوا لغتهم على الناطقين بالعربية . ثم ان التركية نفسها ، تحت ضغط العوامل الثقافية والدينية ، تأثرت كثيراً باللغتين الفارسية والعربية فدخلها عدد وفير من المفردات . ويجب الا ننسى ان القرآن الكريم انزل باللغة العربية ،مما جعلها ، في نظر المسلمين ، لغة مقدّسة خالدة بخلوده [٣٩] . ومن لا يعرف جمال اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم وما تتميّز به من روعة وقوة وعظمة ، لا يدرك الأثر السحري الذي تتركه في نفوس المسلمين العرب ، في جميع انحاء العالم . والواقع ان المسلم يعتبر لغة القرآن الكريم « اعجوبة واعجازاً » ، اي لا يمكن تقليدها ، لانها « أفضل لغة اسلوباً وفصاحة » [٤٠] .

وكان الاتراك ، بصفتهم مسلمين ، يحترمون اللغة العربية ويجلون قدرها . وإلى جانب هذا الاحترام والاجلال ، ادخلوا على لغتهم التركية كثيراً من العناصر اللغوية والمفردات الحضارية . وكشعب استولى على هذه البلاد المترامية الأطراف المتعدّدة الاعراق واللغات ،

لم يكن بمقدورهم ان يتناسوا انهم حكام المنطقة واسيادها . فما كان لجماعة تركيا الفتاة ان تضحّي بقوميتها وبعرقيتها لصالح الاسلام ، لاسيما في فترة من الزمن ، ربما كان السكان العرب فيها اكثر عدداً من الاتراك . فكان حرصهم شديداً على الابقاء على الطابع التركي في الامبراطورية ، وعلى المحافظة على الامتيازات التي كان الاتراك يتمتعون بها كطبقة عرقية حاكمة. لهذا السبب ذاته راحوا يحاولون تتريك العناصر البشرية غير التركية ، بفرض اللغة التركية كلغة رسمية للبلاد . [٤١]

وفي هذه الاثناء ، كان العرب يطالبون بإلحاح وإصرار باجراء الإصلاح [٤٢] . حتى ان لفظة « اصلاح » اصبحت في ١٩١٣ ، سواء اكان ذلك في استانبول ام في الولايات العربية ، شعاراً يردده الناس في كل مكان . مثال على ذلك مقال افتتاحي لجريدة المقطم (القاهرة) الصادرة في ٤ كانون الثاني ١٩١٣ (عدد ٧٢٢٧) عنوانه « الحركة الاصلاحية في بيروت » ، بعث به مراسل المقطّم في بيروت . وفيه ان اهل بيروت يلحّون بطلب الإصلاح ، وان الوالي ، ادهم بك ، بعد ان استشار حكومته المركزية في الاستانة ، طلب إلى الاهلين ان يرفعوا اليه عريضة يذكرون فيها ما يرتأونه من اصلاح . وبناء على هذا ، اجتمع في ٢١ كانون الأول ١٩١٣ عدد من الزعماء المطالبين بالاصلاح ووضعوا بياناً ضمّنوه ١٤ مطلباً من مطالب الاصلاح ، في جملتها استقدام خبراء اجانب من الدول التي ليس لها مصالح سياسية في الامبراطورية العثمانية ليكونوا مستشارين في مختلف دوائر الحكومة ، وان تكون لغة الولاية اللغة الرسمية في دوائر الحكومة . ويضيف هذا المراسل قائلا إن المشكلة هي ان الدولة لها رأي ونظر في الاصلاح يختلفان عن رأي القادة العرب المفكرين ونظرهم إلى الإصلاح . اذ رأى هؤلاء ان فساد الحكومة المركزية في استانبول ، وفساد الحكومات في الولايات المختلفة ، هو سبب البلاء ومصدر كل شرّ ، بينما

كانت الدولة تنظر إلى الاصلاح على انه شيء ماديّ يجب ان يتحقق ، كتجفيف مستنقع او شقّ طريق ، او جعل مجرى نهر صالحاً للملاحة .

اسس زعماء الإصلاح في بيروت جمعية دعوها « جمعية الاصلاح العامّ في ولاية بيروت » (٤٣) . كان عدد اعضائها ٨٦ تنتخبهم المجالس الملّية ، ويمثلون جميع الطوائف في المدينة . وقد عقدت هذه الجمعية اول اجتماع لها في ١٢ كانون الأول ١٩١٣ وانتخبت (« انتخاب سري ») لجنة تنفيذية عدد اعضائها ٢٥(٤٤).ثم اصدروا نشرة سمّوها (Réveil) «اليقظة» واسسوا لهم نادياً سموه « نادي الاصلاح » ، حيث كانوا يجتمعون مرة بعد اخرى للتداول في جميع شؤون الاصلاح التي تهمّ العامة من الناس . وفي اجتماعهم الثالث الذي عقد في ٣١ كانون الثاني ، وضعوا برنامجاً للإصلاح يتضمن ١٥ بنداً . وفي التوطئة التي وضعوها للبرنامج عرّفوا الحكومة العثمانية على انها « حكومة دستورية تمثيلية » . وجاء في البند الاول من البرنامج ان الشؤون الخارجية في ولاية بيروت ، والجيش ، والجمارك ، والبريد والتلغراف ، والتشريع في استانبول ، والضرائب يجب ان تكون في يد الإدارة المركزية . أما الشؤون الداخلية فيجب ان تكون في يد المجلس الأعلى للولاية . (وكان من صلاحيات هذا المجلس عزل الوالي التركي باغلبية ثلثي الأصوات) . ونصّ في البند الرابع عشر على ان تكون العربية اللغة الرسمية في ولاية بيروت ، وان تكون ايضاً لغة رسمية ، كاللغة التركية ، في مجلسي المبعوثان والأعيان (٤٥) . وفي ١٣ آذار ١٩١٣ بعث القنصل البريطاني العام السيد كمبرباتش (Cumberbatch) برسالة يقول فيها إن جوهر الاصلاح كان يدور حول مطلب رئيسي : « ادارة لامركزية » . ثم أضاف قائلا : « وان اطرف مطلب من مطالب الاصلاح استقدام خبراء ومستشارين ومفتشين من الأجانب » (٤٦) .

كانت ردّة الفعل عند السلطة التركية انها اصدرت قراراً يقضي

باعتبار جمعية الاصلاح البيروتية غير قانونية ، وبالتالي اقفال النادي . وحسب ما جاء في رسالة السير كمبرباتش : « كان اعضاء الجمعية الاصلاحية يبدون نشاطاً سياسياً غير مألوف في البلاد ، وشجاعة في حملتهم الاصلاحية لا عهد للناس بها من قبل . » (٤٧) وقد حدث اضطراب في مدينة بيروت ، واظهر الناس امتعاضهم من الاجراء التعسّفي الذي قام به الوالي . وفي ١٠ نيسان ١٩١٣ ، بعث القنصل البريطاني العام بتقرير آخر يقول فيه : « امس صدرت جميع جرائد بيروت ، باستثناء جريدة واحدة ، وعلى صفحتها الاولى قرار الوالي بالغاء الجمعية واقفال النادي ، ضمن اطار اسود دلالة على الحداد ، وتركت الصفحات الأخرى بيضاء ... (٤٨) وبعد ثلاثة ايام اقفلت المخازن في بيروت احتجاجاً على القرار (٤٩) . وهبّ حزب اللامركزية في مصر لنصرة بيروت ، فارسل برقيتين شديدتي اللهجة احتجاجاً على اصدار القرار ، بعث بواحدة منهما إلى الصدر الأعظم في الاستانة واخرى إلى والي بيروت (٥١) . غير ان الحكومة اعتبرت مطالب الجمعية غير دستورية . وعندما وقع ١٣٠٠ من اعيان بيروت عريضة إلى الوالي في مدينتهم ،ارسل الصدر الاعظم ، سعيد باشا ، برسالة يقول فيها اذا اراد اهالي بيروت ان يطالبوا بالاصلاح فليس لهم الاّ ان يتصلوا بمجلس المبعوثان العثماني بواسطة نوابهم (٥٢) ، ومجلس المبعوثان هو الهيئة التي لها ان تسنّ القوانين .

غير ان قادة العرب لم يكفوا عن المطالبة بالاصلاح (٥٢) . فقد أعدّت الجالية العربية في باريس ، بالتعاون مع حزب اللامركزية في القاهرة ، الترتيبات لعقد اول مؤتمر عربي . كان مؤتمراً على غاية من الاهمية (٥٣) ، انعقد في الفترة الواقعة بين ١٨ — ٢٣ حزيران ١٩١٣ في قاعة الجمعية الجغرافية في شارع سان جرمان . وكان اهمّ مسألتين على جدول اعمال المؤتمر هما اولا حقوق العرب في الامبراطورية ، وثانياً الاصلاح الإداري على اساس اللامركزية (٥٤).

كانت البيانات التي القاها المندوبون للمؤتمر العربي في الايام الستة والمناقشات التي تلتها تدور حول ضرورة الاصلاح على اساس اللامركزية . لكن المؤتمر لم يبحث قضية الانفصال عن العثمانيين ، ولم يطالب بشيء منه (٥٥) . وها هو نائب رئيس المؤتمر ، السيد اسكندر عمون ، يوجز لنا اهداف اللامركزية السياسية واغراضها البعيدة في البيان الذي القاه في ذلك المؤتمر . قال :

« توهّم بعض انصار النظام المركزي من اخواننا الاتراك ان الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة ، وهو امر بعيد عن الصحة . فان الامة العربية لا تريد الاّ استبدال شكل الحكم الفاسد — الذي يكاد يودي بالدولة — بالحكم الذي يرجى منه وحده الصلاح والنجاح لنا ولهم ، وهو الحكم على قاعدة اللامركزية . ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا .

« قلنا ان العرب لا يريدون الانفصال عن الاتراك ، ونزيد على ذلك انهم لا يميلون لفئة منهم دون اخرى ، ولا ينصرون حزباً على حزب ، وانما هم يريدون اصلاحاً ينهض بالبلاد من عثرتها ويفتح لها السبيل لمجاراة سائر الامم في مطالب الحياة ، فالحزب الذي يقوم بهذا الاصلاح هو لهم وهم له .

« اما اذا ابت الأمة التركية الاّ الهلاك ، فالعرب معذورون اذا هم ترددوا قبل ان يلقوا بانفسهم معها في الهوة .

« والنتيجة ان الامة العربية لا تريد الانفصال عن الدولة ولا نصرة حزب على حزب ، او جنس على جنس ، وانما تريد استبدال نظام الحكم الحاضر بنظام يناسب حاجة كل العناصر على اختلاف شؤونها ، فيكون بمقتضاه لاهل كل ولاية الكلمة العليا في ادارة شؤونهم الداخلية ، ويكون لمجموع الامة العثمانية سلطة عليا نيابية قائمة على النسبة الصحيحة لادارة الشؤون العامة .

« ومعنى ذلك اننا نريد حكومة عثمانية ، لا تركية ولا عربية ، حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات ، فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق ولا يحرم فريق من حق من الحقوق ، لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين ، عربياً كان او تركياً او ارمنياً او كردياً ، مسلماً او مسيحياً ، اسرائيلياً او درزياً » (٥٦) .

اما جمعية الاتحاد والترقي ، بعد ان عجزت في مساعيها عن منع عقد هذا المؤتمر في باريس ، فقد ارسلت مدحت شكري ، امينها العام ، إلى العاصمة الفرنسية ليفاوض اعضاء المؤتمر بشأن مطالب الاصلاح في الولايات العربية ، علّه ينجح معهم في الوصول إلى نوع من الاتفاق (٥٧) . وحوالي منتصف تموز ، اعلنت الحكومة التركية بانها قد افلحت في الوصول إلى اتفاق مع العرب ، تمنح بموجبه الولايات العربية جميع المطالب التي تقدّموا بها . وفي ١٣ تموز ١٩١٣ ، نشرت جريدة المقطّم نصّ هذا الاتفاق الذي بعث به اليها رفيق بك العظم ، رئيس حزب اللامركزية في القاهرة . وقد ارفق رفيق بك النصّ برسالة يقول فيها :

« معلوم ان مندوب جمعية الاتحاد والترقي الذي فوضت اليه مخابرة لجنة المؤتمر في باريس والاتفاق معها على وجوه الاصلاح المطلوب في البلاد العربية ، كان قد امضى اتفاقاً مع اللجنة المذكورة يتضمن الاعتراف بحقوق العرب في المملكة العثمانية واجراء الاصلاح في البلاد العربية على قواعد اللامركزية الادارية ، وان اللجنة العليا لحزب اللامركزية التي عقد المؤتمر باسمها كانت قد رأت ان تؤخر نشر صورة الاتفاق المذكور إلى حين تصديق مجلس الوكلاء العثماني عليه . وبما ان الحكومة العثمانية قد اعلنت رسمياً تصديقها على ذلك الاتفاق فقد رأت اللجنة من اللازم نشر صورة الاتفاق المذكور ليطلع عليه الجمهور . »

وتحتوي الاتفاقية على ١٣ بنداً منها :

١ — «التعليم في جميع البلاد العربية يكون باللسان العربي في

القسم الابتدائي والاعدادي ويكون بلسان الاكثرية في القسم العالي .

٢ — «يشترط ان يكون جميع رؤساء المأمورين ما عدا الولاة عارفين اللغة العربية ...

٥ — «العسكر يخدمون في البلاد القريبة منهم . لكن العسكر الذي يلزم ارساله إلى اليمن او الحجاز او عسير يرسل ضمن نسبة عادلة من جميع المملكة العثمانية .

٧ — «يقبل مبدئياً ان يكون في هيئة الوزارة ثلاثة على الأقل من اولاد العرب ، ومثل ذلك يؤخذ منهم عدد بصفة مستشار او معاون في النظارات .

٨ — «يعين خمسة ولاة على الاقل من ابناء العرب وعشرة متصرفين ...

١٠ — «يستخدم مفتشون اختصاصيون من الاجانب في الدوائر المقتضية في كل ولاية ...

١٢ — «يقبل مبدئياً ان تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللسان العربي ...

١٣ — «توسع سلطة المجالس العمومية ويكون نصف المجلس العمومي في بيروت من المسلمين ونصفه من غير المسلمين »[٥٨].

وفي آب من تلك السنة ظهرت بوادر صداقة حميمة واخوة خالصة بين المبعوثين العرب والموظفين في حكومة استانبول ، بدءاً بالسلطان محمد رشاد وولي عرشه ، ونزولا إلى سائر الموظفين الكبار . وكانت تقام الحفلات الانيقة والمآدب الفاخرة ، حيث كانت تلقى الخطب الرنّانة المنمّقة تمجيداً للوحدة الاخوية بين العرب والاتراك . وفي ٥ آب استقبل الصدر الاعظم في الباب العالي وفداً عربياً برئاسة شريف علي حيدر [٥٩] . وفي الكلمة التي القاها الصدر الاعظم عبّر عن سروره بإزالة سوء التفاهم الذي كان يسود

العلاقات بين العرب والاتراك . وقال ان من اهداف وزارته تحسين الحالة الاقتصادية في الولايات العربية ، وتوفير السعادة والرخاء لسكانها العرب الذين هم من اخلص الشعوب للخلافة في الامبراطورية العثمانية . وتكلّم بلسان الوفد العربي (الشبيبة العربية) السيد عبد الكريم الخليل ، فشكر الصدر الاعظم على وعده بالاستجابة لمطالب العرب ، والتمس منه الاسراع في تحقيقها . وفي المساء ذاته اقام الوفد العربي مأدبة عشاء في فندق توقتليان دعي اليها خمسون من كبار الاتراك ومن بينهم طلعت باشا وجمال باشا وانور باشا [٦٠] .

وفي هذه الاثناء ارسل المؤتمر العربي في باريس ثلاثة من اعضائه إلى استانبول ، وهم سليم علي سلام ، والشيخ احمد حسن طبّارة ، واحمد مختار بيهم ، ليدرسوا الوضع عن كثب . وفي ٢٣ آب استقبلهم السلطان محمد رشاد ، فشكر له الوفد تكرّمه باستقبالهم وعبّروا له عن محبة العرب واخلاصهم للعرش . ووعدهم السلطان بانه سيسعى جهده لتحسين الاوضاع في الولايات العربية . وفي مساء ذلك اليوم اقامت جمعية الاتحاد والترقي مأدبة دعت اليها الاعيان والوجهاء من العرب والاتراك ، بمن فيهم الوفد العربي المطالب بالاصلاح وجميع الوزراء . وكان من بين المتكلمين السيد عبد الكريم الخليل والشيخ احمد طبّارة ، فاعربا عن اخلاصهما ومحبتهما « للهلال العثماني » وتكلّما عن ضرورة توثيق عرى الاخوة بين العرب والاتراك ، وعن وجوب تحقيق الوعود بالاصلاح التي قطعها الاتراك على انفسهم [٦٢] .

وبينما كان « السوريون العرب » ينعمون « بشهر عسل » سياسي في الاستانة ، تألفت في مدينة البصرة جمعية اصلاحية جديدة ، كانت في اتجاهاتها شديدة النقمة على الاتراك ، وعلى جمعية الاتحاد والترقي . ولم تظهر هذه الجمعية إلى الوجود فجأة . ذلك لان دعاة الاصلاح في البصرة وبغداد كانوا يتداولون الأمر منذ زمن بعيد ، وبكثير من العزم والنشاط وعلى مدى واسع النطاق ، لاسيما في

بغداد . وذلك بفضل النشاط السياسي الذي كان يبديه النادي العلمي الوطني برئاسة طالب النقيب (٦٣) . ففي ٢٨ آب بعث القنصل البريطاني العام في البصرة ، السيد كرو (Crow) ، برسالة ضمّنها نسخة بالعربية مع ترجمة لها ، عن برنامج : « جمعية الاصلاح البصراوية » التي يرأسها السيد طالب بك » (٦٤) . ويتألف البرنامج من سبع وعشرين مادة اهمّها الموادّ التالية :

« مادة ١٣ : للحكومة المركزية ان تعين الوالي ، لكن ينبغي له ان يكون مواطناً عراقياً يعرف البلاد واحوالها وعادات قبائلها معرفة جيدة ...

« مادة ١٨ : لغة البلاد الرسمية في جميع دوائر الحكومة هي اللغة العربية .

« مادة ٢٤ : جميع العلوم والفنون في المدارس يجب ان تدرس باللغة العربية ، هذا إلى جانب الاهتمام بتعلم التركية والتعليم الديني » .

وبعد يومين بعث السيد كرو رسالة ثانية ضمّنها نسخة بالعربية (مع ترجمة لها بالانكليزية) عن البيان الذي اصدره السيد طالب النقيب في البصرة . يقول السيد كرو : « لقد وزّع هذا البيان على افراد الجيش والقبائل العراقية العربية ... وفيه دعوة للثورة على الوزارة التركية الحالية التي يتهمها البيان بانها تتآمر لخلع السلطان ... وينتهي البيان بدعوة العرب وافراد الجيش للثورة اذا لم تستجب الوزارة إلى مطالبهم ، ولاعتبار هذه الوزارة الحاضرة وزارة خارجة على القانون وغير جديرة بالطاعة والولاء (٦٥) . وفي آخر هذا البيان مطالبة بالاستقلال : « ان العرب يطالبون بحكم مستقل في العراق (جزيرة العرب) يقوم على البرنامج الذي جرى نشره ... » .

وفي ٢٥ ايلول ١٩١٣ كتب السيد مارلنغ (Marling) من استانبول إلى السير ادوارد غراي (Edward Grey) يقول : « ان القصد من نشر هذا البيان ادانة جمعية الاتحاد والترقي ، وهي

الجمعية التي كان السيد طالب النقيب يتعاون معها ... اما الآن فهو ألدّ خصومها ومن اشدّ الناقمين عليها ، ويظن ان المحاولة الاخيرة لاغتياله كانت مؤامرة وضعت مخططها اللجنة المركزية في جمعية الاتحاد والترقي (٦٦) » . وفي رسالة ثانية (٦٧) بعث بها السيد مارلنغ ، ومؤرخة في اليوم ذاته ، ينهي كلامه قائلا : « يبدو ، في الواقع ، ان الدوافع الحقيقية التي كانت تحدو جمعية الاصلاح البصراوية للوقوف في صف المعارضة كراهيتهم لحكم جمعية الاتحاد والترقي اكثر مما كانت المطالبة بالانفصال عن العثمانيين وحكمهم » (٦٨) .

وفي هذه الاثناء نشأ خلاف بين قادة العرب انفسهم . ففي شهر ايلول من تلك السنة ساءت الحالة في استانبول . اما سبب الخلاف فأمر يختلف فيه الناس . فمنهم من يقول ان الاسباب كانت شخصيّة ، ومنهم من يقول ان اسباب الخلاف كانت تدور حول مستقبل العلاقات العربية التركية وتنفيذ مطالب الاصلاح . وفي الواقع ان الناس كانوا يتهمون جمعية الاتحاد والترقي بأنها هي التي أثارت المشاكل التي اسفرت عن النزاع الذي وقع بينهم وبين العرب ، لاسيما عندما جاء إلى استانبول في اواخر شهر آب وفد عربي ثان من سوريا وراح يتهم اعضاء الوفد الأول بانهم غير مخلصين في وطنيّتهم ، وبانهم يحاولون تسليم البلاد إلى دولة اجنبية وانهم « يريدون القضاء على الخلافة وعلى الاسلام والمسلمين » (٦٩) . ويحسن بنا ، في هذه المناسبة ، ان ننشر المقتطفات التالية من تقرير (٧٠) حول العلاقات بين تركيا الفتاة والشبيبة العربية :

« ان البرنامج الذي وضعته لجنة الاصلاح العربية البصراوية يتفق جوهراً مع الاصلاح الذي يطالب به العرب السوريون الذين كانوا قد عقدوا ، منذ امد قريب ، مؤتمراً في باريس . وقد ارسلت جمعية الاتحاد والترقي وفداً إلى باريس لحضور المؤتمر . وبعد مفاوضات أفلح الوفد التركي في استمالة الأعضاء العرب للأخذ

بوجهة نظره . وقد توصّل الفريقان إلى عقد اتفاقية بينهما على أساس القبول ببعض المطالب العربية . وتكريساً لهذا الحلف العربي التركي الجديد ، أقام الاعضاء البارزون في جمعية الاتحاد والترقي مأدبة تكريماً للوفود العربية . اما المطالب العربية التي وافق الاتراك عليها ، والتي صودق عليها بصدور ارادة ملكية ، فيمكن اجمالها في نقاط اربع هي :

« اولا : ان واردات الاوقاف المحلية لا تسلّم إلى وزارة الاوقاف في الاستانة ، ولكن للمجالس الاسلامية لتنفقها في تأسيس مدارس اسلامية على ما هي الحال في المؤسسات المسيحية واليهودية .

« ثانياً : ان الخدمة العسكرية في ابّان السلم تكون في الاقاليم التي ينتمي اليها الجنود وليس في اماكن اخرى ...

« ثالثاً : يجب ان تكون العربية لغة التدريس في المناطق التي تتكلم فيها غالبية السكان بالعربية .

« رابعاً : على جميع الموظفين في الولايات العربية ان يكونوا ملمّين باللغتين العربية والتركية ...

« وبعد انقضاء فترة قصيرة على عقد هذه الاتفاقية التركية العربية على الاسس التي اشرنا اليها آنفاً ، أعلن العرب في سوريا وفي ولايات عربية اخرى انّ الوفد العربي الذي مال إلى جانب تركيا الفتاة واخذ بوجهة نظر اعضائها لا يمثل شعور العرب وامانيهم . وهكذا توجّهت وفود عربية ، منها امثال السيد طالب من البصرة ، إلى استانبول لتشدّد في اصرارها على اتفاقية تكون اكثر شمولا واوسع اطاراً من الاتفاقية التي تمّ عقدها في باريس . فراح طلعت بك مع بعض الاتراك من جمعية تركيا الفتاة يوغرون صدور اعضاء هذا الوفد (الوفد البصراوي) ضد الوفد العربي السابق قصد ايقاع الشقاق بينهما على اساس طائفي ، اي شطرهما إلى مسلمين ضدّ مسيحيين . وهكذا استاء الوفد البصراوي وغادر استانبول ، وهم موطّدون العزم على الاستمرار بالمطالبة ببرنامج اكثر شمولا . »

اما فيما يتعلق بالخلاف الذي حصل بين قادة العرب وزعمائهم حول العلاقات القائمة بينهم وبين جمعية الاتحاد والترقي ، وحول علاقاتهم مع اعضاء مؤتمر باريس ، فان القائم بالاعمال الفرنسي في استانبول ، السيد ا. بوب (Bopp) ، كتب في ١٠ حزيران ١٩١٣ الى القنصل العام الفرنسي في دمشق ، السيد م . اوتاوي (Ottawi) يقول ان الصحافة التركية تنشر باستمرار وبسرور زائد البرقيات التي تردها من المدن العربية الرئيسية : حلب ودمشق وبيروت والتي تعبّر عن استيائها ومعارضتها لمقررات مؤتمر باريس . غير ان القنصل العام الفرنسي يضيف قائلا ان التعبير العربي عن هذا الولاء الذي يكنونه للعثمانيين امر مشكوك فيه ، ويبدو انه بايعاز من جمعية الاتحاد والترقي ، كما تدل على ذلك لغة البرقيات وصياغتها ، فانها كلها على نمط واحد . ويذكر القائم بالاعمال نصّ برقية واردة من من مدينة ، نشرت ذلك الصباح في الجريدة التركية « تصوير افكار » تحت عنوان « الاخلاص والولاء للوطن » ، يشير فيها علماء المدينة ووجهاؤها إلى اعضاء حزب اللامركزية انهم جماعة من الخونة الذين يسعون إلى بسط نفوذ الاجنبي في سوريا وفي بلدان عربية اخرى . « هؤلاء الاولاد » لا يمثلون ، ولا يمكن لهم ان يمثلوا ، الامة العربية او ان يتكلموا باسمها (٧١) .

يجب الاّ ننسى ان في هذه الاثناء ، عندما كان العرب يلحون في طلب الاصلاح ، كانت تركيا الفتاة تخوض حرباً ضروساً في شبه جزيرة البلقان ، حرباً تهدّد الاتراك بفاجعة . وبعد الهزيمة النكراء التي اسفرت عنها حرب طرابلس الغرب ، واحتلال ايطاليا لليبيا سنة ١٩١٢ ، وجدت تركيا نفسها في حرب ضد دول البلقان في ١٨ آب ١٩١٢ ، وهي الحرب المعروفة بحرب البلقان الاولى عندما اتحدت بلغاريا واليونان وصربيا والجبل الاسود ضد الامبراطورية العثمانية . وينقل لنا السيد هـ . أ . ر. ماريوت (Mariott) ما كتبه

السيد م . كشهوف (Gueshoff) رئيس وزراء بلغاريا بصدد هذه الحرب يقول : « لقد حدثت اعجوبة .... ففي غضون شهر واحد ألحق الاتحاد البلقاني هزيمة نكراء بالدولة العثمانية . اربع دول صغيرة عدد سكانها جميعاً عشرة ملايين نسمة تهزم دولة عظمى عدد سكانها ٢٥ مليون نسمة ! » (٧٢) وقد انتهت حرب البلقان الأولى بعقد معاهدة لندن في ٣٠ ايار ١٩١٣ . غير ان الذين انتصروا في هذه الحرب اختلفوا فيما بينهم حول اقتسام مغانم الحرب ومكاسبها ، فكانت النتيجة ان نشبت الحرب البلقانية الثانية في في ٢٩ حزيران ١٩١٣ . فقد هاجمت اليونان وصربيا ورومانيا معاً بلغاريا . وقد وجد الاتراك في هذه الحرب سانحة لاسترداد ادرنة في ٢٠ تموز . وقد انتهت هذه الحرب القصيرة بمعاهدة سلام عقدت في بوخارست في العاشر من شهر آب . وبالرغم من ان الاتراك استعادوا ادرنة ، فان الحرب كانت بالنسبة لتركيا الفتاة حرباً مفجعة فقدت فيها الجزء الاكبر من ممتلكاتها الاوربية . وقد كانت جمعية الاتحاد والترقي في حيرة من امرها لا تعلم اية سياسة يجب اتباعها لبناء تركيا الحديثة . لكن هذه الحروب ، وما اسفرت عنه من نكسة نفسية ، قضت على كل تردّد ، وأزالت كل وهم ، ودفعت باعضاء هذه الجمعية لاتخاذ مقرّرات حاسمة على ضوء نتائج الحرب . ذلك « لان الهزة التي احدثها هذا الانكسار كان لها اثر بعيد المدى تناول مختلف الطبقات التركية ... ويبدو ان الهزيمة ايقظت في نفوس الاتراك المفكرين المستنيرين رغبة صادقة لاحياء الروح الوطنية »(٧٣) .

قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى تفجّرت الروح القومية التركية وراحت تعبّر علناً عن عدائها الشديد العنيف لما هو عربي واسلامي (٧٤) وكان من اشهر الجمعيات الكثيرة التي تأسست برعاية الحكومة وتشجيعها لنشر « الطورانية » جمعية « ترك او جاقي » اي « الموقد التركي » ، ومركزها الرئيسي في استانبول ، وفروعها عديدة في مدن الاناضول وقراه . وقد تسرّبت الروح الطورانية إلى صفوف

الجيش ، فنشأت عداوة شديدة بين الضباط العرب والاتراك (٧٥) .

وعند مستهل ١٩١٤ اشار لودفيك دي كونتنسون (de Contenson) في كتاباته إلى ظهور ما سمّاه « قضية عربية » وإلى يقظة في الضمير العربي الوطني . فقد كتب يقول : « مهما يكن من امر ، فما دامت اوربا قد اعترفت للالبانيين ، المسلمين منهم والمسيحيين ، بحقهم في ان يحكموا انفسهم بانفسهم ، وبان لهم قومية مميّزة وانه لا يحق للاتراك ان يتدخلوا بادارة شؤونهم ، فبأي حق يرفض الاتراك ان يمنحوا السوريين نفس الحقوق التي حصل عليها الالبانيون ؟

« ان المنطق إلى جانب السوريين ، هذا اذا تمسّكنا بمبادىء السياسة الاوروبية . ونحن لا نلوم اوربا على اعترافها بمبدأ القوميات ، وكذلك لا نلوم المسلمين في الامبراطورية العثمانية لتمسّكهم بمبدأ القومية . غير اننا مقتنعون ان مبدأ اللامركزية الذي ينادي به العرب ينطوي على نتائج خطيرة في المستقبل . غير ان الأمر الهامّ هو ان نوفّق بين المبادىء السياسية المترتّبة على اللامركزية التي يقول فيها السوريون ، وبين سلامة الامبراطورية العثمانية في آسيا وعدم المساس بوحدتها » (٧٦) .

الفصل السادس

نشوء القومية العربية

٢- سنوات الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨)

ينبغي لنا قبل ان نتكلم عن بداية الحرب العالمية الأولى ان نقول كلمة في التفاهم المؤقت الذي تمّ بين الفرنسيين والانكليز حول « سوريا » . يقول ريموند بوانكاره (Poincarré) في مذكراته ان شائعات سرت في ١٩١٢ عن التحركات الانكليزية في سوريا « حيث كان معظم السكان متطلّعين إلى فرنسا لحمايتهم » . لكن في ٥ كانون الاول من السنة ذاتها ، اخبر السير ادوارد غراي وزير الخارجية البريطانية ، السفير الفرنسي في لندن ، السيد بول كامبون (Cambon) : « اننا لا ننوي القيام باية حركة في سوريا حيث ليس لنا مقاصد ولا اهداف سياسية » . ويضيف بوانكاره قائلا : « ان وزير الخارجية البريطانية قد سمح لي ان اعيد عبارته هذه بالذات في البرلمان الفرنسي » . ويتابع بوانكاره كلامه على البيان الذي القاه في مجلس الشيوخ الفرنسي فيقول : « قد يكون من المبتذل ان اكرّر على مسامعكم انّ لنا في لبنان وسوريا مصالح خاصة تعود إلى زمن بعيد ، وسنجعل غيرنا يحترمها . وقد اعلنت الحكومة البريطانية بروح الصداقة الخالصة ، ان ليس لها في ذلك الجزء من العالم اية مصالح سياسية ، وانها لا تنوي القيام باية حركة هناك . » (١)

وفي ١٣ كانون الثاني ١٩١٣ بعث السير ادوارد غراي إلى السفير البريطاني في روما ، السير ر . رود (Rodd) ، برسالة يخبره فيها بالحديث الذي جرى بينه وبين السفير الايطالي في لندن . قال السير

ادوارد غراي : « قلت له إننا ، نحن الانكليز ، ليس لنا اهداف سياسية في آسيا الصغرى . إن جل ما نتمنّاه ان يظلّ الوضع هناك وضعاً نرضى عنه ، ويؤمّن الاستقرار في منطقة الخليج الفارسي وسواحله ويقيها شرّ القلاقل والاضطرابات . غير ان الامر بالنسبة إلى روسيا على خلاف ذلك ، فان لها اهدافاً في المنطقة ، وذلك بفضل الإستراتيجية التي تفرضها حدودها مع تركيا . كذلك فان لالمانيا مصالح في انشاء الخط الحديدي الذي يربط الأناضول ببغداد . وتملك فرنسا خطوطاً حديدية في سوريا . واني اعتقد ان هذه الدول ، مجموعة كانت ام منفردة ، تأبى ان تقطع على نفسها عهداً الاّ تتدخل في شؤون آسيا الصغرى . » (٢)

غير ان الوثائق الالمانية تناقض ذلك وتعكس لنا وجهة نظر اخرى . فقد كتب الأمير لشنوفسكي (Lichnowsky) ، سفير المانيا في لندن (١٩١٢ — ١٩١٤) ، يقول : « عندما جئت لندن في تشرين الثاني ١٩١٢ ... لم يكن السير ادوارد غراي قد فقد الأمل بالوصول إلى اتفاق معنا . فقد جرى تبادل وجهات النظر عن طريق الوسيط ، المبعوث هر فون كولمان (Kuhlmann) القدير ، حول احياء الاتفاقية المعروفة « بالاتفاقية البرتغالية للمستعمرات » ، وحول قضية العراق (سكة حديد بغداد) . وكان الغرض من هذه المباحثات توزيع المستعمرات وتقسيم آسيا الصغرى إلى مناطق نفوذ . » (٣)

لقد افلحت الحكومة البريطانية في القرن التاسع عشر في المحافظة على استقلال الامبراطورية العثمانية وكيانها ، بما في ذلك الولايات العربية في الشرق الأدنى . وعندما اشرفت الحرب العالمية الاولى على الانفجار كانت بريطانيا لا تزال ترفض الاشتراك مع سائر الدول الأخرى في تقسيم الممتلكات العثمانية في آسيا . وفي ٢٧ حزيران ١٩١٣ كتب السير ادوارد غراي إلى السير ا. غوشن (Goschen) السفير البريطاني في برلين ، يقول : « اما فيما يتعلق بتركيا الأسيوية فاني أرى ان هناك سبيلين يمكن اتباعهما . السبيل الأوّل هو تقوية

ما تبقى من الممتلكات التركية وتعضيدها لكي تستطيع الحكومة التركية ان تقف على رجليها ... والسبيل الثاني هو تقسيم تركيا الاسيوية إلى مناطق نفوذ . وهذا يؤدّي إلى تقسيم الامبراطورية وزوالها من الوجود زوالا تاماً » . ويضيف صاحب الرسالة هذه قوله ان السفير الالماني اخبر السير ادوارد غراي « بأن العرب على شيء من القلق والاضطراب ، وبان زعيماً نجدياً قد اتصل بالالمان لبحث هذه الامور على اساس ان الامبراطورية العثمانية وشيكة التجزؤ فالزوال . غير ان الحكومة الالمانية رفضت الدخول معه في مثل هذه المباحثات » . وقد اجابه السير ادوارد غراي بقوله : « ونحن ايضاً قد اتصل بنا بعض الزعماء العرب ، واظنهم من منطقة البصرة والخليج الفارسي ، غير اننا لم نشجعهم على الدخول في مباحثات كهذه ، لانهم كانوا يفترضون ان زوال الامبراطورية العثمانية امر مفروغ منه . هذا فضلا عن ان البحث في هذه الأمور قد يسيء إلى الرأي العام بين المسلمين الذين يقطنون بلداناً واقعة تحت الحكم البريطاني عندما يعلمون ان سياستنا هي القضاء على الحكومة العثمانية ، ثم تجزئة اراضيها »[٤] . كذلك بعث السير ادوارد غراي برسالة إلى السير ج. بوخنان (Buchanan) ، السفير البريطاني في استانبول ، مؤرخة في ٤ تموز ١٩١٣ ، يقول فيها : « ان القضية على غاية من الخطورة لانها تتناول صلب سياستنا . ان السياسة الوحيدة التي نستطيع ان نتبعها ، والتي يمكن ان نتعاون مع الآخرين بموجبها ، هي السياسة التي تستهدف الابقاء على تركيا ، والحؤول دون انهيارها او تجزئة ممتلكاتها الاسيوية . ونحن اذا اتبعنا سياسة على نقيض هذه السياسة فان الأثر الذي ستتركه في نفوس رعايانا من المسلمين في الهند سيكون سيئاً ، هذا ناهيك بالملابسات والتعقيدات التي تتركها هذه السياسة في الدول الاوروبية الأخرى[٥] . »

وفي ٣٠ تشرين الأول ١٩١٤ طلب السفير البريطاني في استانبول تسليمه جوازه . وفي اليوم التالي عند الساعة الخامسة وخمس دقائق

بتوقيت غرينتش (Greenwich) بثّت لندن البرقية الخطيرة التالية : « من وزارة البحرية إلى جميع السفن . باشروا فوراً بالعمليات الحربية ضدّ تركيا . ارسلوا علماً باستلامكم هذه البرقية »[٦] . كانت هذه البرقية المقتضبة — وهي تتألف من ١١ كلمة باللغة الانكليزية — تنذر بحوادث جسام . اذ كانت بداية سقوط الامبراطورية العثمانية وتفجير طاقات غير مرئية كان لها دور حاسم في ولادة الدول العربية الحالية في الشرق الادنى .

ما ان بدأت الاعمال الحربية في يوم ٥ تشرين الثاني ، حتى كانت الحكومة البريطانية قد بادرت إلى توضيح موقفها من القدر المحتوم الذي كان ينتظر تركيا . ففي ٣ تشرين الثاني كتبت جريدة التيمز تقول : « ان تركيا ، بدخولها حرباً غشوماً ضد الحلفاء ، خانت الاسلام ، وحكمت على نفسها بالموت فالزوال » . ومن جملة الجرائد التي تنبّأت بهزيمة تركيا ، وبالتالي انقراض ملكها ، كانت جريدة الديلي مايل (Daily Mail) التي كتبت في ٢٣ تشرين الثاني ما يلي : « لا يخامرنا اي شك في زوال الممتلكات العثمانية في اوروبا ، تلك الممتلكات التي اخذت بالسيف ، لانها بالسيف ستؤخذ » . وكتبت جريدة الديلي نيوز (Daily News) في ٣١ تشرين الثاني تقول : « اذا انهزمت المانيا في هذه الحرب فان قصاص تركيا لدخولها الحرب إلى جانبها سيكون القضاء عليها ، كدولة ، قضاء مبرماً » . ولم يعثر للآن على اية وثائق تدل على ان الوزارة البريطانية ذاتها كانت على بيّنة من امرها فيما يتعلّق بحصّتها من المغانم في الشرق الادنى ، في حالة انتصار الحلفاء . لكن بعد انقضاء خمسة اشهر على بدء الاعمال الحربية ، قال السير ادوارد غراي للسفير الفرنسي السير م كامبون (Cambon)[٧] : « إن الوزارة هنا لم يكن لديها بعد متسع من الوقت للتفكير في حصتنا من الممتلكات التركية الاسيوية ... غير ان الوزارة انتهت إلى الاستنتاج التالي : لقد فكّرنا انه عندما يزول الحكم التركي عن استانبول والمضايق ،

فانه ينبغي قيام وحدة اسلامية سياسية ومستقلّة في بقعة ما ، وذلك لصالح الاسلام ولخيره . ومركز هذه الدولة الاسلامية ينبغي ان يكون في الاماكن المقدّسة ويجب ايضاً ان تضمّ الجزيرة العربية . لكن ينبغي لنا ان نقرّر اية اقطار اخرى يجب ضمّها إلى هذه الدولة . ونحن لم نتخذ بعد موقفاً حاسماً بشأن العراق واذا كان يجب ان يكون جزءاً من هذه البلاد الاسلامية المستقلة او اذا كان ينبغي لنا ان نطالب لانفسنا بتلك البلاد . »

لكن حكومة الهند من جهة ثانية كانت تصرّ على ضرورة وضع العراق مباشرة او مداورة تحت الحكم البريطاني ، وذلك لحماية الهند ولضمان سلامة المصالح البريطانية في الخليج الفارسي . ففي مذكّرة مؤرخة في ٢٦ ايلول ١٩١٤ للسير ادموند بارون (Sir Edmond Barron) ، الأمين العسكري العام لادارة الهند وعنوانها « دور الهند في حال نشوب حرب مع تركيا » يصرّ صاحبها على ضرورة توجيه حملة عسكرية لاحتلال البصرة ، ثم يخلص إلى القول بأن تلك « هي اللحظة الملائمة نفسياً لاتخاذ قرار بهذا الشأن ، اذ لا شك ان ضربة مفاجئة كهذه الضربة سيكون لها اثر نفسي عميق لأنه :

« اولا ، يقضي على المناورات التركية ، ويظهر لهم اننا اقوياء واننا نسدّد الضربات حيث نشاء ، وحين نشاء .

« ثانياً ، يشجّع العرب ويدفع بهم إلى الوقوف إلى جانبنا ويعزّز الموقف الموالي لنا الذي يقفه شيوخ المحمّرة والكويت .

« ثالثاً ، يحمي مصر ضد حملة تركية لان الاتراك لن يقدموا على مهاجمة مصر بدون عون يلقونه من العرب .

« رابعاً ، يحمي مصافي النفط في عبادان .

ان هذه النتائج تُبرّر القيام بهذا العمل العسكري [٨] » .

عندما انضمّت تركيا إلى المانيا في حرب ١٩١٤ ، كانت السياسة البريطانية بالنسبة إلى الممتلكات العثمانية الاسيوية ، تحتم عليها اعتبار هذه الولايات على غاية من الاهمية الحربية ، وذلك للموقع

الجغرافي الاستراتيجي الخطير الذي تحتلّه بالنسبة للخطط الحربية المقبلة ، ولان سكان هذه الولايات هم من العرب . وبما ان العرب قد عبروا عن سخطهم على الاتراك ، بدرجات متفاوتة بين ولاية عربية واخرى ، فكان من الطبيعي « ان تهاجم بريطانيا تركيا عبر ممتلكاتها العربية » [٩] . وعلى ضوء هذه السياسة نستطيع ان ندرك مبلغ الجهد الذي بذلته بريطانيا ، وكثرة الوعود التي قطعتها للعرب بغية استمالتهم للوقوف إلى جانبهم في الحرب . وقد كتب لويد جورج (Lloyd George) ، في معرض كلامه على الخطة الاستراتيجية للحرب يقول : « ان ازالة تركيا من صفوف اعدائنا يمهّد السبيل لنا للوصول إلى روسيا ورومانيا ، وهو ما كنا بامسّ الحاجة اليه . وكنا نعلم اننا اذا لم نوفّر سبل الاتصال بهما فإن هاتين الدولتين ستهزمان وتنسحبان نهائياً من المعركة ... ان مجرى الحرب ، لو اننا استطعنا تحقيق هذه الخطة ، كان سيتغيّر وتقصر مدّته ... فالامبراطورية العثمانية تمتد عبر الاراضي والبحار التي تقع في الطريق التي تؤدي بنا إلى ممتلكاتنا الكبيرة في الشرق ... فقد كان يتحتّم علينا ، في حال دخول تركيا الحرب ضدنا ، ان نوقع بها هزيمة سريعة حاسمة .... ولم يكن احد لينكر اهمية الانتصار السريع على تركيا ... » [١٠] لهذا السبب راحت بريطانيا تستميل « السكان الناقمين » في الامبراطورية التركية — ونعني بذلك العرب . فقد كانت الطريق ممهّدة والتربة مهيّأة .

وعندما دخلت تركيا الحرب في ٥ تشرين الثاني حكمت على نفسها بالهزيمة المحتمة المقدرة لها . وقرّر « الرجل المريض » اخيراً ان ينتحر [١١] . وفي هذه الاثناء ، حين كانت الامبراطورية تواجه مصيرها الغامض ، كان الذين يحكمون تركيا ثلاثة من الرجال الاشداء الشجعان : انور وطلعت وجمال . وكان الذي يأخذ بناصرهم ويشد ازرهم وزير المالية القدير جاويد الذي كان رجلا امينا صالحاً [١٢] . ويبدو ان هؤلاء القادة الزعماء كانوا على اقتناع

بان المانيا ستنتصر في البرّ [١٣] . وفي حديث جرى بين توفيق باشا ، سفير تركيا في لندن ، والسير وندام ديدز (Wyndham Deedes) قال توفيق باشا لمحدّثه البريطاني : « اننا على يقين ان انتصار الحلفاء في هذه الحرب سيؤدي إلى تقسيم تركيا — فتكون سوريا من نصيب فرنسا ، وارمينيا من نصيب روسيا ، والخليج الفارسي والبلدان الواقعة على شواطئه من نصيب بريطانيا . كذلك نعتقد ، من جهة ثانية ، ان انتصار المانيا ربما يبقي لنا ممتلكاتنا . فكان واجبنا الاول ان نلقي بثقلنا ضدّ الحلفاء وان نقف إلى جانب المانيا » . [١٤] وقد باءت بالفشل جميع الجهود التي بذلتها كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا لاقناع تركيا بعدم دخول الحرب ضدّها . وما ذلك ، في الاخص ، الا لان الاتراك كانوا يرون في المعاهدة البريطانية الروسية المعقودة سنة ١٩٠٧ « معاهدة صريحة بين دولة كانت إلى ذلك الوقت تعتبر افضل صديق لتركيا واقوى عضد لها ، لا تريد لها الاّ الخير ، مع دولة كانت تعتبر العدوّ اللدود التقليدي لها » [١٥] . فلا شيء كان « يستطيع ان يقتلع من نفوس الاتراك خوفهم من روسيا .... فقد كان الخطر الداهم من الشمال يفوق كل خطر آخر يخافه الاتراك » [١٦] .

في هذه الاثناء وجد العرب انهم يخوضون حرباً ليس لهم فيها مغنم او مأرب . غير ان عدداً قليلا منهم سرّ في داخله لاعتقادهم ان الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار و « ان ساعة الحساب قد دنت » . اما غالبية العرب الساحقة فقد ظلّت على ولائها للخلافة وللسلطان العثماني . واما بعض الزعماء فقد شعروا انه يتحتم عليهم أن يغادروا السفينة المشرفة على الغرق ، وان يسعوا لنيل استقلال اوطانهم ، ولو كان ذلك عن طريق الاستعانة بالاجنبي . وكان الاجنبي على اتمّ استعداد لتقديم العون لهم ، لان فرنسا وانكلترا كانتا تترقّبان هذه السانحة ، لاسيما انهما كانتا تعلمان ان العرب ناقمون على الاتراك ، خصوصاً الشريف حسين امير مكة المكرّمة

الذي كان غير راض عن حكمهم . وفي الواقع انه قبل نشوب الحرب بسبعة اشهر جرى اتصال مع بريطانيا بشأن تقديم العون للعرب . لكن بريطانيا في تلك الفترة « لم تكن لتفكر في امر تقديم السلاح لاستخدامه ضدّ دولة كبرى صديقة » . وكان الامير عبدالله ، الابن الثاني للشريف حسين ، هو الذي قام بهذه الاتصالات مع اللورد كتشنر (Lord Kitchener) والسير رونالد ستورز (Sir Ronald Storrs) ، وذلك في اثناء زيارة قام بها للقاهرة ، « حيث باح لرونالد ستورز بما في قرارة نفسه » [١٧] . لكن الظروف الآن قد تبدلت تبدّلا جذرياً ، ولذا ارسل اللورد كتشنر ، وكان آن ذاك وزير الحربية ، البرقيتين التاريخيتين التاليتين اللتين تعتبران بمثابة اوّل دعوة رسمية للعرب ان يثوروا ضد الأتراك »[١٨] .

ففي ايلول ٢٤، ١٩١٤، وردت البرقية التالية من اللورد كتشنر إلى المعتمد البريطاني في القاهرة : قل للسيد ستورز ان يعتمد رسولا اميناً يرسله سراً إلى الشريف عبدالله ، على انه مبعوث من قبلي ليسأله ، في حال نجاح السياسة الالمانية في استانبول في ارغام السلطان والباب العالي على دخول الحرب إلى جانبها ، اذا كان هو ووالده وسائر العرب في الحجاز يقفون إلى جانبنا ام انهم يكونون ضدنا »[١٩]

وفي ٣١ تشرين الاول ارسل كتشنر ايضاً البرقية التالية :

« السلام على الشريف عبدالله . لقد نجحت المانيا في كسب تركيا إلى جانبها عن طريق الذهب ، بالرغم من ان الحلفاء ، انكلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، قد تعهدوا بالحفاظ على سلامة الامبراطورية العثمانية اذا هي بقيت على الحياد في هذه الحرب . والحكومة التركية ، رغماً عن ارادة السلطان ، قد قامت بغزو الحدود المصرية . فاذا كانت الامة العربية على استعداد لمعاونة انكلترا في هذه الحرب فانها تتعهد بالاّ تسمح لاحد ان يتدخل في الجزيرة العربية ، وتعد بتقديم العون ضدّ اي اعتداء اجنبي خارجي عليها » [٢٠] .

ليس الغرض من كتابة هذا الفصل ان نسهب في وصف المفاوضات الطويلة التي تلت ، انما يحسن بنا الآن ان نشير إلى النقاط الهامة فيها . فقد بعث ستورز ، عند استلام هذه البرقية ، برسالة إلى الامير عبدالله مع مبعوث سرّي . فعاد المبعوث ومعه « رسالة طويلة مشجعة من الامير عبدالله » . وفي ١٠ كانون الاول عاد المبعوث السري ذاته بعد زيارة ثانية قام بها للشريف حسين « الذي ابدى عطفاً صادقاً ، لكنه لم يكن بوسعه ان يعلن انفصاله عن الاتراك فوراً » . وكانت «اول مقترحات محدّدة تقدّم بها الشريف وصلت إلى يد السير هنري ماكماهون (Sir Henry Macmahon) [٢١] في تموز ١٩١٥ (وكانت مرفقة برسالة من عبدالله لي شخصياً ، لكن لم تكن مؤرخة او موقعة) وفيها يطلب من حكومة جلالته تقديم العون لنيل العرب استقلالهم . وكذلك يقترح حدوداً معينة لمنطقة عربية مستقلة . » [٢٢]

اما الآن فينبغي لنا ان نشير إلى ما كان يجري في دمشق من حوادث . يقول جمال باشا في مذكراته انه ، بعد حوالي عشرة ايام لدخول تركيا الحرب ، استدعاه انور باشا ، وزير الحربية ، إلى بيته واخبره ، في جملة ما اخبره به ، ان لديه معلومات تفيد « ان الاخبار الواردة من سوريا تشير إلى قيام اضطرابات عامة في البلاد وان الثوار العرب يبدون نشاطاً ملحوظاً . وفي هذه الحالة يسأل انور جمال باشا اذا كان سعادته ، انسجاماً مع صدق وطنيته ، يرغب في ان يتولى قيادة الجيش الرابع » [٢٣] . وقد اسفرت هذه الزيارة عن وصول جمال باشا إلى سوريا في كانون الاول ١٩١٤ ، كقائد عام للجيش الرابع ، ومهمته العسكرية « ان يقوم بهجوم على قناة السويس لاشغال الجيش البريطاني في مصر ... وان يحافظ على استتباب الأمن والهدوء الداخليين في سوريا » [٢٤] . وحاول جمال ، في بادىء الأمر ، ان يكسب عطف العرب وان يستميلهم إلى جانبه باتباع سياسة سمّاها هو « سياسة الصفح والتسامح »[٢٥] .

فقد جاء في بيان القاه في دمشق في اوائل كانون الثاني ١٩١٥ قوله : « ايها السادة، ان البرنامج الاصلاحي الذي يستهدف خير العرب ، البرنامج الذي ينوي حزبنا تحقيقه تحقيقاً تاماً ، اوسع نطاقاً واكثر شمولا مما تستطيعون ان تتصوروه . فانني أنا ، شخصياً ، من اولئك الذين يعتقدون انه ليس بالأمر الضار لنا جميعاً ان يكون الشعبان ، العربي والتركي ، شعباً واحداً متحداً في الوقت الذي يحافظ كل منهما على شخصيته القومية على ان يخضعا لسلطة الخليفة ... وانني الآن في وضع استطيع معه ان اوكّد لكم ان اهداف العرب والاتراك لا تتعارض ، بل اننا اخوة في نضالنا الوطني ، لا بل اذهب ابعد من هذا لاقول ان جهودنا يعضد بعضها البعض الآخر ... » [٢٦] واكّد جمال باشا في هذا البيان ان هذه الحرب ، في جوهرها ، جهاد مقدّس للذود عن الاسلام وللحفاظ على سلامة دولة اسلامية كبرى ، هي الامبراطورية العثمانية .

وبالرغم من ان اصدار حكم منصف متزن على اي رجل يتولى السلطة في ظروف غير طبيعية وفي احوال دقيقة جداً امر عسير ، فان لدينا ادلة تبرّر القول بأن جمال باشا كان في جوهر ذاته رجلا طموحاً وطاغية عنيفاً . فانه ، ما ان عاد إلى سوريا ، حتى بدأ عهداً من الظلم والترويع عن طريق الشنق والنفي . وبعد ان فشل في حملته العسكرية ضد قناة السويس في شباط ١٩١٥ ، رجع إلى سوريا وامعن في سياسة القمع والاضطهاد ضد الزعماء العرب ، فحكم بالاعدام على بعضهم على انهم من « الخونة » الذين ارادوا اللامركزية ان تكون اداة في ايديهم لتجزئة الامبراطورية العثمانية « ولبيع اوطانهم للاجنبي » . وفي ٢١ آب ١٩١٥ علّق في ساحة البرج في بيروت ١١ عربياً من وجهاء العرب (١٠ من المسلمين ومسيحي واحد) . وفي ٦ ايار ١٩١٦ ، نصبت اعواد المشانق لواحد وعشرين رجلا من الزعماء العرب من المسلمين والمسيحيين (١٧ من المسلمين و ٤ من المسيحيين) ليعدموا فجر ذلك اليوم . وقد شنق منهم

١٤ في بيروت وسبعة في ساحة المرجة في دمشق .

وبين فترة واخرى كان الاتراك يحكمون بالاعدام على افراد في سوريا ولبنان . وقد حكم على اكثر من سبعين رجلا بالاعدام غيابياً . ونفيت عائلات عديدة إلى اماكن نائية في بلاد الاناضول ، وكانت تحجز اموالهم ويستولى عليها . وها نحن نقتطف الفقرة التالية من وثيقة اميركية مؤرخة في ايار ١٩١٦ لما فيها من قيمة تاريخية : « يبدو ان الاتراك يتبعون سياسة التريك في سوريا وفي الولايات العربية المجاورة لها . ويقال انه قد القي القبض على عدد من الوجهاء المسيحيين والمسلمين وسجنوا وحكم عليهم بالموت ... وقد قيل لي ان الحجة التي يتذرع بها الاتراك في معاملتهم رعاياهم العرب في سوريا هي ان العرب لا يدينون بالولاء للحكومة العثمانية ، وانهم قد عقدوا اجتماعات سرية في مصر وفي اماكن اخرى ليبحثوا امر انفصال سوريا عن الامبراطورية العثمانية وليتخذوا الخطوات التي تؤدّي إلى مثل هذا الأمر ... » (٢٧) .

وفضلا عن هذا فان ألوفاً من الناس اصبحوا فقراء معدمين ، ومات منهم الوف جوعاً ومرضاً . ذلك لان الحلفاء ضربوا الحصار على الطريق البحرية ، وراح جمال باشا يجمع مواسم الحبوب للجيش التركي والالماني . يضاف إلى هذا جشع تجار الحبوب وتحجّر قلوبهم ازاء بؤس المواطنين وشقائهم (٢٨) . ومما زاد في بلاء الجوع وقلة المواد الغذائية ظهور الجراد سنة ١٩١٥ باسراب كانت تحجب نور الشمس في رابعة النهار ، في كل من سوريا ولبنان وفلسطين ، فاكل كل شيء اخضر (٢٩) . وقد دافع جمال باشا عن نفسه في « مذكراته » وفي « الكتاب الاحمر » الذي صدر في الاستانة سنة ١٩١٦ (٣٠) بنشره صوراً فوتغرافية لرسائل ومستندات تبودلت بين بعض الزعماء العرب والحكومة الافرنسية (٣١) . وقد حاول جمال باشا في هذين الكتابين ان يبرهن على ان اولئك الزعماء العرب كانوا « خونة » يعملون ضد تركيا باتصالهم سرّاً بالعدو ،

لاسيما بفرنسا ، وان سوريا كانت على وشك ان تقوم بثورة ضد الحكم التركي . وجدير بالذكر انه ، في الوقت الذي كان حكم الاعدام ينفذ في القادة العرب ، كان الجيش البريطاني قد بدأ هجومه على الدردنيل ، وانزل جنوداً في غاليبولي . وكانت القيادة التركية قد ارسلت عدداً كبيراً من الكتائب العربية والتركية في سوريا إلى ساحة المعركة الحاسمة في الدردنيل ، تلك المعركة التي كان مصير تركيا وروسيا في الحرب يتوقف عليها . اما جمال باشا فقد كان يخشى انزال الحلفاء جيشاً على الشاطىء اللبناني ، جيشاً يلقى عوناً ومساندة من « الطابور الخامس » في البلاد . وكان جمال على يقين من ان هذا « الطابور الخامس » على اتصال بالدول الاجنبية .

غير ان كثيراً من الوثائق المنشورة في « الكتاب الاحمر » والتي اذا أنعم القارىء النظر فيها لا تبرّر الاتهامات الخطيرة التي وجهها ضدّ الزعماء العرب . ويصح ذلك على بعض ما ذكره جمال في مذكراته بشأن خيانة الزعماء العرب وعدم ولائهم لتركيا . فان قسماً من هذه الرسائل يناقض بعضها البعض الآخر ، وقسماً يدل دلالة واضحة على ان اصحابها لم يطالبوا بالانفصال عن تركيا وانما طالبوا بالاستقلال الداخلي . أفلا يمكن ان تكون غاية جمال باشا من تلك الاتهامات ، وما ترتّب عليها من اعدام ، المحافظة على حياته ، وهو الذي كان يخشى ان يقوم احد زعماء العرب (٣٢) فيفشي سرّ الاتصالات التي كان هو ذاته يقوم بها مع الحلفاء ؟ ويبدو مرجّحاً ان جمال باشا كان على اتّصال مع روسيا وفرنسا قصد الخروج من الحرب ، شريطة ان يسمح له ببناء دولة مستقلة تتألف من الولايات العربية الواقعة تحت الحكم العثماني (٣٣) . والوثائق السرية المحفوظة في الارشيف القيصري تلقي كثيراً من الضوء على هذه الناحية من اسرار الحرب (٣٤) .

ومهما تكن مرامي جمال باشا السياسية فان النتائج التي اسفرت عنها سياسته المعادية للعرب زادت في شقة الخلاف بين العرب

والاتراك ودفعت بالعرب للتصلب في كفاحهم من اجل الاستقلال . والواقع اننا لا نغالي إذا قلنا إن حكم جمال باشا في سوريا ، في اثناء الحرب العالمية الأولى ، كان احد العوامل الحاسمة في موقف اكثرية الزعماء العرب المسلمين من تركيا . اذ انه قضى على كل تردّد ، ودفع بهم إلى اتخاذ قرار بالانفصال التام عن تركيا [٣٥] . فقد ازداد شعور العرب القومي ، بعد ٦ ايار ١٩١٦ ، يوم شُنق عدد كبير من قادة العرب ، حماسة وتحفّزاً ، واصبح الاستقلال السياسي ، والسيادة القومية العربية ، امراً حيوياً بالنسبة إلى العرب[٣٦]

اذا كان حكم جمال باشا الطاغية في سوريا هو العامل الثاني الحاسم — العامل الأول كان السياسة المتعصبة التي اتبعتها تركيا الفتاة التي اشرنا اليها سابقاً — في تقوية القومية العربية ودعمها ، فان العامل الثالث الحاسم كان تشجيع الحلفاء للعرب للقيام بثورة ضد الاتراك ، ومساندتهم في حقهم بالمطالبة بالحرية والاستقلال . فقد كتب لويد جورج في « مذكراته » عن الحرب يقول : « ان عملاءنا (بين العرب) ، وفي جملتهم عدد ممن كان قد تمرّس باساليب الديبلوماسية الشرقية ، راحوا يشجعون القيام بثورة ، وكانوا يعدونهم بالسلاح والذخيرة ...[٣٧] » وجدير بالذكر ان الجهاد الذي اعلنته تركيا ضد الحلفاء عند بدء الحرب لم يكن له اي تأثير في الولايات العربية . وبهذا الصدد يقول ليمان فون ساندرز (Liman Von Sanders) في كتابه « خمس سنوات في تركيا » ان الجهاد الذي اعلنته تركيا كان امراً بعيداً عن الواقع ، ذلك لان الاتراك كانوا حلفاء دول مسيحية ، وكان ضباط المانيون ونمساويون يعملون في الجيش التركي [٣٨] . كذلك تقول خالدة اديب في كلامها عن هذا الجهاد : « من مهازل القدر انه كان في الجيش الفرنسي جنود مسلمون يحاربوننا ، وكذلك كان في الجيش الروسي ، في حين ان رعايا تركيا المسلمين ، خصوصاً العرب منهم ، كانوا مرتبطين بالمعسكر المعادي لنا » [٣٩] .

أشرنا آنفاً إلى الطريقة التي لجأ اليها اللورد كتشنر للاتصال بالأمير

عبدالله بواسطة رونالد ستورز ، وكيف ان الاتصال اسفر عن تبادل عدد من الرسائل بين الشريف حسين والسير هنري ماكماهون. وقد كانت النتيجة النهائية لتلك المفاوضات اعلان الثورة العربية في مكة في ١٠ حزيران ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين [٤٠] ، وبتعضيد عسكري ومالي من بريطانيا [٤١] . اما سرد حوادث هذه الثورة فلا يقع ضمن الاطار الذي حددناه لهذا الكتاب .

ان الامانة في تدوين التاريخ تفرض علينا القول بأن ليس جميع العرب ولا جميع قادة العرب في الولايات العربية الخاضعة للامبراطورية العثمانية كانوا موحّدي الكلمة فيما يتعلق بمفهوم معنى الاستقلال ، ولم يكن هنالك اتفاق على شكل الحكم او شخصية الحاكم الذي سيتولّى ادارة البلاد العربية . وفي ما يلي نثبت ما كتبه السير وندهام ديدس (Wyndham Deedes) الذي كان في الفرع المصري لمكتب الاستخبارات البريطاني ، وهي في نظرنا افضل خلاصة مقتضبة تعطينا فكرة عن التباين في المصالح العربية . ويعد كاتب هذا التقرير من افضل الثقاة في معرفة خفايا القضايا التركية . ففي الفترة الواقعة بين ٢١ و ٢٩ شباط ١٩١٦ كتب ديدس يقول : « ومما يعقد هذه المصالح المتباينة ويزيدها فوضى على فوضى قضية جديدة — هي القضية العربية . فانه إلى جانب الاحزاب التركية علينا ان نعالج قضايا ثلاثة احزاب عربية في هذه المنطقة .

« (١) الحزب الذي يمثل السوريين . وهذا يعنى في الدرجة الاولى بمستقبل سوريا . واكثر ما يخشاه هذا الحزب هو ان تأتي فرنسا إلى سوريا وان يكون لفرنسا في سوريا امتيازات خاصة تتعدّى الامتيازات الاقتصادية والمالية . وان كرههم لفرنسا شديد . ولو ان الفرنسيين كانوا ليحكموا سوريا اليوم ، فليس من المستبعد ان يدفعوا السوريين إلى احضان الاتراك ... وانه ليصعب تفسير هذه الكراهية الشديدة . ولو سئل السوريون عن السبب في ذلك لأشاروا إلى تونس وإلى اماكن اخرى من المستعمرات الافرنسية التي سكانها

من المسلمين . اما المسيحيون فاني لا ارى ان توقهم شديد بالنسبة إلى الحكم الفرنسي . والواقع اننا ، اذا استثنينا الطائفة المارونية ، نجد ان نصارى سوريا يعارضون الاحتلال الفرنسي لبلادهم معارضة لا تقل عنفاً عن معارضة المسلمين انفسهم . وهذا الموقف الحرج الذي نرى انفسنا فيه اصبح امراً واضحاً . ونحن نعلم ان وزارتنا الخارجية قد وصلت إلى نوع من الاتفاق مع الفرنسيين ونعلم انه ، بموجب هذا الاتفاق ، ستحصل فرنسا على ممتلكات في هذه المنطقة . وقد وصلت اخبار هذه الاتفاقية إلى اصدقائنا ، ولذا فهم يؤمّنون مكتبنا مستوضحين إن كنا قد بعناهم للفرنسيين .

« (٢) ولدينا حزب الشريف ، (شريف مكة) . ومفاوضاتنا مع هذا الحزب تتركّز فعلا على مخطط إقامة مملكة عربية دينية زمنية . وهذا ما يبدو لنا ان الشريف يسعى لاجله . اما اعتقادي الشخصي ، وهو لا يختلف عما يعتقده معظمنا هنا ، وعما يعتقده كثيرون من العرب وكل الاتراك انفسهم ، فهو ان هذه الفكرة ليست فكرة عملية ، لانه .... يستحيل جمع كلمة العرب في كل من سوريا والعراق واليمن وفي غيرها من البلدان العربية وحملهم على الاعتراف برئيس زمني واحد يتولى حكمهم ، ولو اعترفوا برئيس ديني واحد . واذا افترضنا انهم كانوا على استعداد للاعتراف برجل واحد فتبقى مشكلة من عساه ان يكون ذلك الرجل . ان للشريف حسين مكانة مرموقة ومعترف بها في بعض اوساط هذه البلدان التي ذكرناها آنفاً ، لكنه غير مقبول به في أوساط بلدان اخرى .... وحزب الشريف هو اكثر الاحزاب اعتدالا وتفهماً .... وهم شديدو الولاء لنا لمصلحتهم . ولان ابقاء الامر سرّاً شرط ضروري للنجاح ، تراهم حريصين على الاّ يعرف الآخرون شيئاً عن نشاطهم وعما يجري في الخفاء ...

« (٣) واخيراً لدينا الحزب العراقي . هذا الحزب يطلب اقامة حكومة مستقلة في العراق . وهو يرغب كثيراً في معرفة الاجزاء التي

ننوي اعطاءها للعراق . ثم ان اعضاءه يريدون ، اذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، معرفة نوع الحكم الذي سيقام في العراق . ومشكلتنا الكبرى هي الحكومة الهندية ، اي الحكومة البريطانية في الهند . فهي تنظر إلى علاقاتنا الودية مع هذه الاحزاب العربية وإلى المفاوضات الجارية معها ، نظرة ريبة وشك ، لاسيما فيما يتعلق بالعراق والبصرة ومنطقة الخليج الفارسي .

« ويبدو في بعض الاحيان اننا لا نستطيع ان نتعدّى مشاكلنا مع الحكومتين الفرنسية والهندية . وجدير بالذكر ان الاحزاب التركية ، لاسيما تلك الاحزاب التي تميل إلى استمرار شكل الحكم الحالي ... تنظر ايضاً إلى التحركات العربية نظرة ريبة وشك » . (٤٢) .

وفي هذه الاثناء كانت الدول الثلاث الكبرى ، بريطانيا وفرنسا وروسيا ، تفكر في تحديد « مطالب كل منها في الممتلكات العثمانية في آسيا » . وقد اسفرت هذه المفاوضات السرية بين هذه الدول الثلاث بشأن اقتسام الاجزاء الاسيوية من تركيا عن عقد اتفاقية تعرف باتفاقية سيكس بيكو (Sykes-Picot) التي تمّ التوقيع عليها في ايار ١٩١٦ (٤٣) . وإذا اردنا ان نفهم العوامل التي كان لها اثر حاسم في تقرير مصير الشرق الادنى ، بالنسبة للسياسة البريطانية ، يتحتّم علينا ان ننظر في محتوى وثيقتين خطيرتين يعود تاريخهما إلى سنة ١٩١٧ . الاولى منها وثيقة بريطانية موسومة : « بيان حول السياسة الخارجية مرفوع إلى المجلس الحربي الملكي » وقد قدّم السيد بلفور (Balfour) رئيس البعثة البريطانية الخاصة الذي كان يزور الولايات المتحدة ، نسخة عن هذا البيان إلى السيد لنسنغ (Lansing) وزير الدولة الاميركاني في ١٨ ايار ١٩١٧ ، وهذا نص الفقرة الخاصة بمستقبل تركيا :

« لا شك ان القضاء على الامبراطورية العثمانية قضاء تاماً هو من اهدافنا التي نريد تحقيقها . وقد يظلّ الشعب التركي — ونأمل ان يظلّ — مستقلا او شبه مستقل في آسيا الصغرى . فاذا نجحنا ، فلا

شك ان تركيا ستفقد كل الاجزاء التي نطلق عليها عادة اسم البلاد العربية (Arabia) وستفقد كذلك اهم المناطق في وادي الفرات ودجلة ، كما انها ستفقد استانبول . امّا سوريا وارمينيا والاقسام الجنوبية من آسيا الصغرى فانها ، إن لم تضمّ إلى الحلفاء ، فمن المرجّح انها ستبقى ضمن حكمها » .(٤٤)

اما الوثيقة الثانية فانها تبحث في امر « الولايات التركية الاسيوية ». ومما جاء فيها :

« لو كنت لانصّب نفسي محامياً يدافع عن الاتراك لما كانت تعوزني ادلة وشواهد . فليس هناك من امرئ يعرف الرجل التركي ويعرف تاريخه يجرؤ على اتّهامه بانه العامل المخرّب الوحيد الذي يعتبر مسؤولا عن فساد الحكم في الولايات التي يحكمها . فان عبئاً ثقيلا من اللوم يقع على كاهل الدول الاوربية التي كانت منذ زمن بعيد تعتبر تركيا حجراً من حجارة الشطرنج تنقلها كيفما شاءت اطماعها وبطريقة مخجلة زريّة . لكن الدفاع عنها لم يعد ينفع شيئاً . اذ ان الدموع التي ذرفتها عيون الرعايا الخاضعين للاتراك ، والدماء الغزيرة التي سفكت قد محت الماضي ، فنلق نظرة على المستقبل وما عساه يحمل بين طياته .

« انه لمن المسلّم به ان الولايات العربية لا يمكن ابقاؤها تحت السيطرة العثمانية ... وهذه البقعة هي من اهمّ المناطق الزراعية في العالم . وليست مصر الغنية بمواسمها افضل من العراق في خصب ارضه ، ومساحة العراق الزراعية اكبر من مساحة مصر بضعفين . وان الاهراء السورية ، مع انعدام وسائل النقل التي نعرفها اليوم ، كانت تموّن روما بالغذاء . وكانت التجارة العالمية في العصور القديمة والوسيطة تمرّ إلى المراكز الصناعية في الشرق ... وقد يكون في اعادة تعمير مناطق الشرق الادنى إلى ما كانت عليه سابقاً اعادة للتوازن ، وذلك بخلق سوق ظلت زمناً في حالة سبات وركود . هذا فضلا عن زيادة هائلة في ثروة عالم خرّبه الحرب وافقره ، وعن

توافر مجالات جديدة لانعاش الصناعة في اوربا ... وهكذا نعود فنوحّد مرة اخرى بين الشرق والغرب بواسطة مصالح مشتركة بينهما » . (٤٥)

ان قصة الثورة العربية والادوار التي قام بها كل من لورنس وفيصل في تنفيذ مخطّط « ثورة في الصحراء » ، وكيف انهما حقّقا اهدافها بدخولهما ظافرين دمشق في اول تشرين الاول ١٩١٨ ، كذلك قصة الوعود التي قطعتها كل من بريطانيا وفرنسا للعرب بمنحهم «الاستقلال» ، ثم ما تلى ذلك من مفاوضات واتفاقات سرية بين الحلفاء بشأن المناطق التي ستكون ضمن نطاق حكمهم المباشر او غير المباشر ، بناء على تحديدهم الخاص للفظة « استقلال » ، لأمر كان مدار جدل مرير في الخمسين سنة الماضية (٤٦) . وهو لا يقع ضمن اطار هذا الكتاب ، لانه يتناول قضايا لا تتعلّق بتاريخ العلاقات التركية العربية ، بل تتعداها إلى ناحية اوسع مدى واكثر تعقيداً من تاريخ العلاقات بين الشرق الادنى والغرب .

في اوائل كانون الثاني ١٩١٧ ، غزت القوات البريطانية — وكانت تعرف بالحملة العسكرية المصرية (The Egyptian Expeditionary Force) — جنوبي فلسطين واحتلت القدس في ٩ كانون الاول . وبعد انقضاء تسعة اشهر ، قام الجنرال اللنبي(Allenby) بهجوم شامل سريع ، فاحتلّ الاجزاء المتبقية من سوريا ولبنان بعد ان قضى على الجيش التركي الرابع . ثم تمّ احتلال حيفا في ٢٣ ايلول ١٩١٨ ، ودمشق في اول تشرين الاول من العام نفسه ، وبيروت في الثامن منه ، وحلب في ٢٥ منه . وفي اليوم التالي اشتبك جيش الحلفاء ، للمرة الاخيرة مع الاتراك ، في معركة جرت على بعد ٨ اميال إلى الشمال الغربي من حلب . وبعد خمسة ايام وصلت انباء عن الهدنة التي وقعت عليها تركيا في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ ، على ظهر سفينة حربية بريطانية اسمها أغممنون (Agamemnon) التي كانت راسية في ميناء مدروس(Mudros) في جزيرة لمنوس (Lemnos)

في بحر الايجي [٤٧] . وقد نصت المادة الخامسة والعشرون ، وهي المادة الاخيرة من اتفاقية الهدنة ، على « ان الاعمال الحربية بين الحلفاء وتركيا تنتهي ظهر يوم الخميس بالتوقيت المحلي في ٣١ تشرين الاول ١٩١٨ [٤٨] . ونصت المادة السادسة عشرة من اتفاقية الهدنة على « ان تسلم تركيا جميع الحاميات العسكرية في الحجاز وفي العسير واليمن وسوريا والعراق إلى اقرب قائد من قوّاد الحلفاء » [٤٩] .

ومن غرائب القدر ان الجيش التركي استسلم للحلفاء في سهل مرج دابق شمالي حلب ، حيث احرزت جيوش السلطان سليم الاول انتصاراً حاسماً على جيش المماليك لاربع مئة سنة خلت ، اي في سنة ١٥١٦ — انتصاراً جعل من الاتراك العثمانيين اسياداً على سوريا التي جرى تسليمها للحلفاء في سنة ١٩١٨ [٥٠] . وهكذا ، ففي السنة الاخيرة من سني الحرب العالمية الاولى تمّ انهيار الامبراطورية العثمانية واحتلت جيوش الحلفاء منطقة الشرق الادنى . فانقطعت بذلك الصلات بين الاتراك والعرب — هذه الصلات التي ظلّت قائمة بينهم مدة اربع مئة سنة . وما حدث من تطورات في البلدان العربية بعد الحرب العالمية الاولى اصبح مرحلة جديدة من تاريخ الشرق الادنى العربي .

الفصل السابع
خلاصة وكلمة أخيرة

مرّ الشرق الادنى العربي ، في خلال الخمسين سنة الأخيرة ، في فترة تتميز بالتغيّر والفوضى . فقد جاءت الاحداث السريعة تهزّه ليستفيق من سبات طال امده ، ولينفض عنه غبار تاريخ مثقل وحضارة قديمة . ولكن التغيّرات التي طرأت على المنطقة جاءت بسرعة اذهلت العقول واحدثت في بعض الاحيان صدمة عنيفة في النفوس ، لانها لم تكن نتيجة تطوّر طبيعي يستمدّ القوة من تربة المنطقة او من التقاليد التاريخية الأصيلة ، بل جاءت بشكل تغيّرات عنيفة سريعة من الخارج . ولم يكن هناك متّسع من الوقت استطاع فيه اهل المنطقة ان يكيفوا حياتهم لمتطلبات التغيرات الجديدة او ان يتمثّلوا هذه الحضارة الجديدة . ولذا يجب الاحتراس الشديد من الانزلاق إلى « استنتاجات » نهائية مما جرى من تعاقب الحوادث المختلفة في المنطقة . وسيحاول المؤلف في هذا الفصل الاخير ان يشير باقتضاب إلى بعض القضايا الاساسية والمشاكل المتعلقة بتاريخ العرب التي اشار اليها المؤلف في الفصول السابقة . ففي تاريخ العرب السابق لهذه الفترة تبدو لنا اربعة عوامل بارزة واضحة : الاسلام ، والاتراك ، وأثر الحضارة الغربية ، والقومية العربية .

اذا كان الاتراك قد استطاعوا ان يحكموا هذه المنطقة مدّة اربع مئة سنة ، واذا كان العرب قد خضعوا ، في اكثر الاحيان ، لهذه السيطرة العثمانية ، فان السبب يعود إلى ان الاتراك مسلمون . فقد استمرّ السلاطين العثمانيون في العمل على نشر الاسلام بعد ان

كانت مقدرات الاسلام قد وصلت إلى ادنى درجات الانحلال بعد خراب بغداد سنة ١٢٥٨ للميلاد ، على يد هولاكو وجيوشه المغولية . فقد استطاع الاتراك ان يجتاحوا اقساماً من اوربا ، مركز المسيحية ، وان يرفعوا رايات الاسلام عالية اينما وصلوا حتى عند مشارف فينا (Vienna). ان الشعوب المسيحية منذ ان احتل العرب اسبانيا ، ومنذ معركة بواتيه (Poitiers) في سنة ٧٣٢ ميلادية ، لم تكن تشعر بقوة دولة اسلامية ، ولم تكن لتتخوّف من قوة اسلامية كما كانت تشعر ، وكما كانت تتخوف من قوة العثمانيين قرابة اربع مئة سنة . وهذا مما جعل العرب ، كمسلمين ، يفخرون بعظمة الاتراك ومكانتهم العالية . فقد كانت الامبراطورية العثمانية امبراطوريتهم تماماً كما هي للعثمانيين . هذه الحقائق يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار اذا ما حاول أحد ان يدرس تاريخ العلاقات التركية العربية ، او اذا ما حاول ان يتفهّم موقف العرب من الدول الاوروبية . ولكن مما يؤسف له كثيراً ان عدداً كبيراً من الذين يعنون بتاريخ العرب المعاصر ينقسمون إلى فئتين ، فئة لا تعرف هذا التاريخ معرفة صحيحة ، وفئة تنظر إلى هذا التاريخ من خلال زجاج ملوّن بالآراء السياسية والقومية العلمانية فيتجاهلون عمداً ، وبالتالي يعجزون عن ادراك اهمية العامل الديني في تاريخ العرب ، ذلك العامل الذي كان له اكبر الاثر لعدة قرون في تكوين الشرق الادنى السياسي والاجتماعي ، وفي تقرير مصيره ، اعني الاسلام .

اذن ، على الذين يريدون ان يتفهموا الشرق الادنى العربي فهماً صحيحاً ، ولكي يستطيعوا ان يصدروا احكاماً صحيحة ، يتحتّم عليهم ان يدرسوا الاسلام ، والمؤسسات الاسلامية ، كما يجب ان يدرسوا مشاكل الاقليات وعلاقاتها مع الاكثرية الحاكمة في هذه المنطقة . امّا اذا اعوزتهم المعلومات الاساسية عن الاسلام ومؤسساته فان الدراسات التي يقومون بها لا تنفذ إلى الجوهر بل تبقى دراسات سطحية . واولئك الذين لا يرون في الشرق الادنى

العربي شيئاً سوى موقعه الجغرافي واهميته من الناحية « الاستراتيجية » او طرق التجارة التي تمرّ عبره، او مطاراته الدولية ، او ثروته النفطية يقترفون خطأً مبيناً يؤسف له . ان السبب الرئيسي للعجز والفشل في تفهم الشرق الادنى العربي هو عدم فهم العنصر البشري والقيم الانسانية في هذه المنطقة . فاذا اراد المرء تقييم الوضع في هذه البقعة من العالم تقييماً صحيحاً عليه اولا ان يفهم الاسلام تلك القوة الروحية التي هي مصدر جميع الحوافز وجميع الاعمال التي تصدر عن غالبية سكان العرب في الشرق الادنى . وبدون هذه المعرفة يستحيل عليه ان يدرك جوهر القضايا والمشكلات العميقة التي تعانيها المنطقة ، اذ ان كثيراً من هذه المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها ترتبط ارتباطاً محكماً بالدين . فللاسلام، كقوة روحية وسياسية، اثر عميق يفوق اثر القومية العلمانية . وهذه حقيقة أساسية يجب على المؤرخ الاّ يتغاضى عنها ، والاّ يتجاهل خطورتها .

وقد آن للمؤرخين الغربيين ان يتخلوا عن بعض ما علق بنفوسهم من اوهام وأخطاء حول حقيقة العلاقات بين العرب والاتراك . ذلك ان هؤلاء المؤرخين يركّزون اهتمامهم على العلاقات العربية التركية كما كانت عليه في الفترة الواقعة بين اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، اي في الفترة التي بلغ فيها سوء الادارة التركية الذروة في الضعف والفساد ، وفي الفترة التي بلغت فيها العلاقات التركية العربية الذروة في الفتور والتوتّر . مع العلم ان السبب في هذا يعود إلى قصر النظر من جانب الاتراك وإلى الدسائس التي كانت تحوكها الدول الغربية لمصالحها السياسية . فليس من الانصاف التاريخي بشيء ان نحكم على ثلاثة قرون ونصف القرن من حكم الاتراك السابق لهذه الفترة الحالكة بناء على استنتاجات مستمدّة من تاريخ هذه الفترة لنقول ان العرب قاسوا الأمرّين من الظلم التركي وعانوا من الاضطهاد ما عانوه مدة اربع مئة سنة ! ان

اصدار مثل هذه الاحكام بعيد عن الحقيقة كل البعد .

لا نكران ان الامبراطورية العثمانية كانت تتألف من اعراق بشرية مختلفة ، ومن قوميات متباينة ، ومن ديانات عديدة ، في الوقت الذي لم يحاول الاتراك ان يوحّدوا بينها بالقوة او « بالتتريك ». لكن يجب ان نتذكر ان اكثرية العرب في معظم هذه الفترة التي كان الاتراك يحكمون بلدانهم ، لم يشعروا ان الحكم التركي كان حكماً « اجنبياً » . وفضلا عن هذا فان لفظة « اجنبي » لم تكن تعني سابقاً ما اصبحت ترمز اليه في القرن العشرين من ان « الاجنبي » ينتمي إلى قومية اجنبية ، واحياناً تعني ، سياسياً، شخصاً غير مرغوب فيه . ان العالم الذي عاش فيه العرب والاتراك معاً قبل انصرام القرن التاسع عشر كان عالماً لا تُعرف فيه القومية بمعناها السياسي الحديث . فلم تبدر عن معظم العرب المسلمين الذين كانوا مواطنين في امبراطورية عثمانية اسلامية اي بادرة تدل على انهم يطالبون بالانفصال عن الاتراك الاّ بعد ١٩٠٨ ، عندما حاول قادة الاتراك انفسهم ان يؤكّدوا قوميتهم التركية ، وعندما ابتعدوا ، في نظر العرب ، عن ان يكونوا مسلمين حقيقيين واخوة للعرب في الدين . فمن هذه الناحية ليس هنالك ما يبرّر القول بان الاتراك اضطهدوا العرب الاّ في السنوات الاخيرة من العهد التركي ، عندما كان الاتراك انفسهم يقاسون ضروباً من البؤس والشقاء من جراء فساد الحكومة العثمانية . وهنالك حقائق ووثائق عديدة تثبت لنا ، بالدليل ، ان الحكومة العثمانية ، قبل انحلالها وسقوطها ، كانت على الاعم ، حكومة منظّمة ومنصفة في معاملة رعاياها .

اما من جهة ثانية فنلاحظ انه في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية العثمانية آخذة بالتقهقر والانحلال في اثناء القرن التاسع عشر كان العالم الغربي على عتبة تغيّر كبير وازدياد عظيم في قوته العسكرية والاقتصادية بسبب التطورات الجذرية التي اسفرت عنها الثورة الصناعية الرأسمالية والتقدم السريع في التقنية . وإلى جانب هذا

كان هناك اتجاه مستمرّ نحو علمنة المؤسسات الحكومية والاجتماعية في البلدان الغربية مما كان له اثر كبير في ظهور القومية المتطرفة العنيفة . وهذا يؤدي بنا إلى بحث العامل الثالث وهو تأثير الحضارة الغربية في البلاد العربية .

كانت معرفة العرب بالعالم الغربي ، قبل الحرب العالمية الاولى بسنوات عديدة ، مستمدّة عن طريق التجارة مع الغرب . وكانت معرفتهم هذه تقتصر على ما كانوا يسمعونه او يقرأون عنه. وكان بعضهم يعرف الغرب عن كثب ، وذلك عن طريق التسفار إلى الغرب ، او عن طريق الدراسة في بلد اوربي . وكانت نظرة العرب إلى الغرب بصورة عامة نظرة احترام لقوته العسكرية ، ونظرة اعجاب لتقدمه المادي ، وللمنجزات التي قام بها ، ولصدقه وامانته في المعاملات التجارية . فقد كان « كلام انكليزي » في التجارة مضرب المثل في الصدق والوفاء . وكان الاوربي — وفي لغة العامة الفرنجي — في نظر الناس وبوجه عام ، رجلا متمدناً ومتفوّقاً . وقد كتب السير فلانتين شيرول (Valentine Chirol) يقول : « عندما زرت الشرق من قبل خمسين سنة شعرت ان تفوق الغرب على الشرق كان امراً مسلماً به لا يتجادل فيه اثنان . وهذا التفوق الذي يدعيه الغرب مردّه إلى تفوّق حضارته ، وإلى انه استطاع فرض سلطانه عن طريق التفوق المادّي والاقتصادي .. [1] »

ومما يؤسف له ان الاتصال الفعلي بين العرب والغرب، في اثناء الحرب العالمية الاولى وفي الفترة التي تلتها ، تمّ بينهم وبين الغرب العسكري والسياسي . وبالرغم من ان العرب في مصر وفلسطين رأوا جيش نابليون وسمعوا قصف مدافعه في الفترة الواقعة بين ١٧٩٩ و ١٨٠١ ، فانها كانت فترة طارئة قصيرة الامد لم يكن لنتائجها اثر دائم في المنطقة . لكن الظروف التي تمّ فيها الاتصال بين العرب والغرب في القرن العشرين كانت ظروفاً تختلف كثيراً عن ظروف القرن التاسع عشر ، والصدمة النفسية التي شعر بها العرب جاءت

نتيجة تعرفهم إلى الغرب الذي كان بحكم الظروف غرباً يدين بالسياسة « الماكيافلية » التي تقوم على القوة وتخدم المصالح الامبريالية. وقد ابتهج العرب في بادىء الامر ابتهاجاً عظيماً لتحرير بلدانهم من ويلات الحرب وفظائعها ، لكن سرعان ما انقلب ذلك الابتهاج إلى خيبة امل مريرة ، وذلك لعدم تحقيق الامال الوطنية التي حلموا بها . فقد ادخل الغرب إلى الشرق الادنى انظمة سياسية جديدة باسم الديمقراطية وحاول « تطعيم » مجتمع اقطاعي بطبيعته وديني بروحه بهذه الانظمة الغريبة عنه . وكانت النتائج غير مرضيّ عنها ، وفي احيان كثيرة مخيّبة للآمال ، فتعرّضت الديمقراطية لدى الكثيرين من سكان الشرق الادنى لكثير من الامتهان لاسباب عديدة منها التوتر النفسي الذي نجم عن عجز المجتمع لتكييف ذاته لينسجم مع هذه المؤسسات السياسية الجديدة او لعجزه عن فهم روح الديمقراطية وتقديرها حق قدرها . وكثيراً ما يفوتنا ان الديمقراطية ليست مادة للتصدير او للاستيراد ، وليس هنالك ضمانات اكيدة ان النظام الديمقراطي ينجح فوراً في تربة جديدة وان خدعنا نجاح مظاهره الخارجية .

لا نكران بانه كان يستحيل ايقاف التيار الغربي بنواحيه المادية والتقنية ، وربما لم يكن ايقافه بالامر المستحسن ، اذ ليس هنالك من ضرر في تحسين الحياة المادية ، سواء أكان ذلك في بناء البيوت العصرية ، ام في شق الطرق الجديدة ، ام في رفع المستوى الصحي ، ام في ركوب السيارات واستعمال الهاتف ، ام في التمتع ببركات الكهرباء وبالخير الذي نجنيه من تحسّن حالة المواصلات والنقل . غير ان القيم الروحية في الحضارة الغربية لم تكن من الامور التي كانت تروق الناس وتستأثر بعقولهم ، إلا اذا استثنينا قلة من اهل الشرق كانت قد وقعت تحت تأثير الغرب وتقبّلت روح هذه الحضارة عن رضى . نعم كان زعماء الاصلاح من العرب المسلمين يسلّمون بضرورة تحسين الحالة الداخلية في البلدان العربية ، لكن لم

يكن يخطر لهم ببال ان يدخلوا الحضارة الغربية إلى بلدانهم ، ولم يعتقدوا قطّ بتفوّق هذه الحضارة على حضارتهم الشرقية. وفضلا عن هذا فان قادة العرب المسلمين والغالبية الساحقة من اتباعهم كانوا يؤمنون بان الرجوع إلى الاسلام الحقيقي وإلى المؤسسات الاسلامية الصافية هو الدواء الناجع لجميع الشرور التي تحيط بحياتهم . وكان خطر الحضارة الغربية في نظرهم خطراً مزدوجاً على بلدانهم وعلى شعوبهم . فالخطر السياسي كان يتجسّد في الاستعمار الغربي للاقطار العربية والخطر الحضاري في الفلسفة الغربية المادية العلمانية في العصر الآلي التي قد تغرق الاجيال العربية الناشئة في خضمّ من التشكيك والعلمنة . وقد ظهرت ردة الفعل العربية ازاء تفوق الحضارة الغربية وازاء تقسيم الشرق الادنى إلى مناطق انتداب ومناطق نفوذ ، في اعنف قوة متفجّرة برزت في المنطقة ، نعني القومية العربية التي لم يكن احد يتصوّر مداها ولا السرعة التي انتشرت بها بين الجماهير .

كثيراً ما يقال ان العرب مرّوا في فترة تيقظ ووعي قومي عند منصرم القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بعد ان « نام » شعورهم القومي قرابة اربع مئة سنة تحت الحكم العثماني . ليس هناك من ادلة تاريخية يرضى المؤرخ عنها لاثبات مثل هذا الزعم . فاذا كانوا يعنون باليقظة العربية استفاقة « الهوية » العربية ، اي « العروبة » ، فان هذا المصطلح اي « اليقظة » ، اصطلاح خاطىء يحتاج معناه إلى تحديد . فقد ظل العرب المسلمون في اثناء الاربع مئة سنة من الحكم العثماني يعتبرون انفسهم مسلمين وعرباً . ولا حاجة للقول انهم احتفظوا بلغتهم العربية . وفي الواقع ان معارضتهم العنيفة لسياسة « التتريك » التي حاولت تركيا الفتاة تطبيقها في الولايات العربية برهان ساطع ، في حدّ ذاته ، على ان « عروبة » العربي ظلّت في هذه الفترة الطويلة في حالة تنبه ويقظة . فلو ان الاتراك كانوا قد قضوا فعلا على العروبة ، ولو ان العروبة كانت في حالة سبات كما يدّعي اصحاب هذا الزعم ، لما كان من العسير

على تركيا الفتاة ان « تترّك » البلدان العربية .

ان معنى « القومية » تبدّل مراراً وتكراراً في غضون تاريخ نشوء القوميات عند مختلف الشعوب . لكننا اذا اخذنا بعين الاعتبار العناصر الاساسية التي تدخل في تكوين القومية ، من عرقية وحضارية وروحية، نجد ان القومية العربية ، من هذه الناحية، هي من اقدم القوميات في العالم .

ليس هناك دليل على صحة الزعم — ولو كان الزعم من قبل التعميم — ان القومية العربية ولدت « كحركة فكرية » في الاوساط الادبية وفي اوساط الجمعيات السرية او انها جاءت نتيجة للحماسة التي ولّدتها القصائد العربية الحماسية . ان المصادر الحقيقية للتاريخ العربي الاسلامي تجبرنا ان نجزم ان القومية العربية ولدت ونشأت يوم مولد الاسلام . ظهر الاسلام عن طريق نبي عربي وبلسان عربي وفي الجزيرة العربية . وفي القرآن الكريم : « لقد جاءكم رسول من انفسكم ... » [٢] و « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله [٣].. » فما كان للعرب الاّ ان يفتخروا بعروبتهم وان يحسّوا في قرارة نفوسهم انهم « شعب مختار » او « امّة مختارة » كما اصبحت لغتهم لسان الوحي والالهام : « وكذلك انزلناه قرآناً عربياً ... » [٤] « وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربياً ... » [٥] و « كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » [٦] ولقد كان من اهداف الاسلام الاساسية القضاء على الروابط القبلية الضيقة التي كانت تربط بين القبائل في الجاهلية واستبدالها بروابط دينية روحية مستمدّة من جوهر الاسلام ذاته . وكانت الغاية توحيد العرب في امّة واحدة ، الامة الاسلامية : « ان هذه امتكم امّة واحدة وانا ربكم فاعبدون » : [٧] « وإنما المؤمنون اخوة ... » [٨]

وهكذا نرى ان السبب الاساسي في خلق الامة العربية والشعور بالوحدة القومية بين المسلمين العرب يعود إلى الاسلام وستظل هذه

القومية المقترنة والممتزجة بالاسلام منذ تبلورها جزءاً لا يتجزأ من نفوس العرب المسلمين ومن عقولهم [٩] .

عندما اعتنقت شعوب غير عربية كالفرس والهنود والترك الاسلام ديناً، ظلّ العرب يشعرون في قرارة نفوسهم بتفوقهم على غيرهم من الشعوب ، وظلّوا يعتبرون انفسهم امّة تمتاز على غيرها من الامم التي انضوت تحت لواء الاسلام، مع العلم ان الاسلام دين عالمي و« لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » . وفضلا عن ذلك فقد كان العرب المسلمون يعتقدون ان لهم فضلا عظيماً على سائر المسلمين من الاعاجم لانهم « نجوهم من الشرك » . ففي اثناء الحكم الاموي (٦٦١ — ٧٥٠) بلغ الشعور القومي العربي والعزّة العربية ذروتهما : « وكان العرب في ايام هذه الدولة (عصر الامويين) يترفعون على سائر الامم من الموالي واهل الذمة ويعدون انفسهم فوقهم جبلة وخلقة وفضلا ... فكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ويرى انه خلق للسيادة وذاك للخدمة ... وتخاصم عربي ومولى بين يدي عبدالله بن عامر صاحب العراق فقال المولى: « لا كثّر الله فينا مثلك »، فقال العربي ، « بل كثّر الله فينا مثلك : فقيل له : « ايدعو عليك وتدعو له، ؟ » قال: « نعم ، يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا . »[١٠]

ان شعور العرب بقوميتهم لم يُخب يوماً طوال تاريخهم المديد ، وذلك بفضل رابطتين تعتبران ، بصورة عامة ، من اقوى الروابط التي تربط افراد الأمة في قومية واحدة ، اعني اللغة والدين . فقد ظلّ العرب يشعرون انهم عرب لانهم يتكلمون العربية ولانهم يؤمنون بدين واحد : الاسلام . وقد برهنت الروابط الحضارية الفكرية، إلى جانب الرابطة الروحية الدينية ، عند العرب المسلمين، على انها اقوى من العوامل الجغرافية ، سواء أكانت هذه العوامل تربط بين بلدانهم أم كانت تفصل بينها . ولذا يصح القول ان العرب لم ينسوا قوميتهم في فترة من فترات الحكم العثماني ، ولاسيما ان

الاتراك لم يحاولوا قطّ « تتريك » العرب – باستثناء الفترة الاخيرة وتحت تأثير فلسفة تركيا الفتاة – وجلّ ما كان يطلبه قادة العرب وزعماؤهم (العامة من الناس كانت بمعزل عن هذه الامور السياسية الفكرية) في بادىء الأمر هو ان تكون للولايات العربية الداخلة في الامبراطورية العثمانية حكومة عربية مستقلة استقلالا ذاتياً ضمن اطار الامبراطورية العثمانية . وكانوا يعتقدون ان افضل نوع من الحكم تستطيع الامبراطورية العثمانية التي تتألف من قوميات واعراق بشرية مختلفة ان تتبعه هو الحكم اللامركزي . وكان بعضهم يتصور ان تكون الامبراطورية العثمانية « مجموعة امم متحدة » اما فكرة الانفصال التام عن الدولة العثمانية قبل انقلاب ١٩٠٨ ، فقد كانت في مخيلة قلة من الزعماء العرب المسلمين المتطرّفين . لكن نصارى الشرق الادنى هم الذين كانوا يعضدون هذه الفكرة ويحبّذونها . حتى ان فكرة الانفصال التام كانت ، بعد ١٩٠٨ ، فكرة طارئة دفع قادة العرب اليها دفعاً ، وذلك بسبب قصر نظر « تركيا الفتاة » وسياستها القومية المتطرفة التي كانت تقول بالجامعة الطورانية . ثم عقب هذا سياسة الطاغية جمال باشا ، قائد الجيش الرابع في سوريا في اثناء الحرب العالمية الاولى التي قضت بتعليق زعماء العرب البارزين على اعواد المشانق في بيروت ودمشق في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ ، مما ترك اثراً بليغاً في نفوس العرب وزاد في شقة الخلاف بين العرب والترك ودفع بالزعماء العرب للابتعاد اكثر فاكثر عن الدولة العثمانية . واخيراً يضاف إلى جميع هذه الامور وعود الدول الغربية في اثناء الحرب العالمية الاولى للعرب من تحرير لاوطانهم من نير الحكم التركي ومنحهم الاستقلال التام ، الأمر الذي أدّى إلى اعلان الثورة العربية التي بدأت في ١٠حزيران ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين .

وعليه ، فاذا كانت « يقظة العرب » تعني توق العرب للانفصال عن الدولة العثمانية ، وتأسيس دولة عربية مستقلة ذات سيادة على

غرار الدول الغربية ، فان هذا المصطلح يحتاج إلى تعديل في مفهومه . فقد كانت يقظة العرب توقاً لتقرير المصير والاستقلال السياسي . إن يقظة العرب المثقفين الواعين لم تكن يقظة « العروبة » فيهم ، فان عروبة العرب لم تقع يوماً في سبات ، اذ كانوا يشعرون دوماً انهم عرب ، وانما كانت اليقظة ، كما اسلفنا ، توقاً لنيل الاستقلال السياسي . وهذه اليقظة السياسية يمكن اعتبارها جزءاً من يقظة سياسية عمّت اوربا قبل يقظة العرب بمئتي سنة ، وهي يقظة بدت طلائعها في الآونة الاخيرة . كانت الدوافع والقوى المحركة تصدر عن رغبة العرب في الاستقلال السياسي ، وفي نيل حقوقهم كاملة في توفير العدالة الاجتماعية والحرية . وهذه « القومية السياسية » (Political Nationalism) التي تتميّز بها الحركات العربية السياسية في الطور الثاني لنشوئها كانت في جوهرها وليدة الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في الحقبة الاخيرة من حكم الاتراك في الولايات العربية . وفي هذه الآونة ، لم يكن الدين منفصلا عن القومية العربية . ذلك لان العرب في غالبيتهم الساحقة كانوا مسلمين ، ولانه إلى جانب اهداف تقرير المصير والتوق للحكم الذاتي كان هناك اهداف وغايات اخرى ، منها النهوض لحماية الاسلام ولاستعادة امجاده الغابرة ، ولرفع مستوى العرب إلى « المقام الذي خصهم الله به ، حيث قال ، في كتابه العزيز « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » (١١) .

ان الرعيل الاول من زعماء القومية العربية ، لاسيّما الشريف حسين ، كانوا في اثناء الحرب العالمية الاولى يتصوّرون قيام دولة عربية على انقاض الدولة العثمانية بعد انهيارها ويكون على رأسها ملك عربي مسلم وتقوم على دعائم الاسلام . ففي مذكرة بتاريخ الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩ بعث بها الامير فيصل إلى مؤتمر الصلح يقول :

« ان البلاد الواقعة ضمن خط يمتد من الاسكندرونة إلى حدود

ايران شمالا، وجنوباً إلى الاوقيانوس الهندي، هي بلاد يسكنها العرب – نعني شعباً من الشعوب السامية يتكلّم لغة واحدة هي اللغة العربية – وهدف الحركات القومية العربية (التي كان والدي قائدها في ابّان الحرب بعد النداءات المشتركة التي وجهتها اليه كلّ من القيادات السورية والعراقية) هو جمع كلمة العرب وتوحيدهم في نهاية الامر في امّة واحدة ... » [١٢] وفي مذكرة ثانية بتاريخ ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩١٩ بعث بها الامير فيصل إلى مؤتمر الصلح يقول : « بصفتي ممثلا لابي الذي قاد الثورة العربية ضدّ الاتراك بطلب من بريطانيا وفرنسا جئت اطلب اعتبار الشعوب التي تتكلم العربية في القارة الاسيوية من خط يمتد من الاسكندرونة إلى ديار بكر، وجنوباً إلى المحيط الهندي شعباً مستقلا معترفاً به وتحت ضمانة جمعية الامم [١٣] ... »

اما الاتفاقية المعروفة باتفاقية سيكس–بيكو ، والمعقودة في ١٦ ايار ١٩١٦، فقد استحالت بقرار من مجلس الحلفاء الأعلى في جلسة عقدها في سان ريمو (San Remo) بين ١٩ و ٢٥ نيسان ١٩٢٠ إلى نظام الانتداب (Mandate) . وقد اسفر هذا الاجتماع عن الاعتراف بالعراق وسوريا « بلدين مستقلين » ، العراق تحت الانتداب البريطاني ، وسوريا تحت الانتداب الفرنسي إلى « اليوم الذي يستطيع فيه البلدان ان يديرا شؤونهما بانفسهما » . ولقد زاد الانتداب على البلدان العربية من حدّة المطالبة بتقرير المصير ، وبالاستقلال السياسي ، فضلا عن انه كان سبباً في قيام عدد من الاحزاب السياسة، بالاضافة الى انه وحّد المقاومة ضد الغرب . والفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى تعتبر الطور الثالث في نشوء القومية العربية وتطورها . وهي فترة تتميّز باليأس والقنوط وخيبة الأمل التي علّقها زعماء العرب على الوعود التي قطعها الغرب على نفسه بأن يمنحهم الاستقلال . وهي وعود ، لسوء الطالع ، فسّرها العرب تفسيراً حرفياً . وتتميّز هذه الفترة ايضاً بفقدان ثقة العرب بالسياسة

التي كانت تتبّعها دول الغرب في منطقة الشرق الادنى ، مما ادّى إلى العداء السافر فالثورات المتعاقبة ضدّ هذه السياسة . وهكذا اتجهت مقاومة العرب ناحية الغرب ، الغرب الذي حرّر البلدان العربية من حكم الاتراك ، لا ناحية الاتراك الذين زالت امبراطوريتهم من الوجود . ومما زاد في خطورة الوضع وتعقّده المنافسة في المصالح السياسية والاقتصادية التي كانت تقع بين الدول الغربية في هذه المنطقة .

اما الطور الرابع في نشوء القومية العربية فقد بدأ في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، عندما ظهرت بوادر اجراءات علمانية في بعض الدول العربية إلى جانب تطورات اقليمية، وبعدما راحت جذور القومية الاقليمية تتأصل وترسّخ في دول عربية اخرى، هذا ناهيك بان بعض هذه الدول اصبحت تتبع انظمة اشتراكية في سياستها الاقتصادية . ثم ان الاستقلال السياسي الذي كانت تمارسه الدول العربية ، والسيادة التامة وقيام الدولة بدوائرها الادارية المختلفة وبالشعارات الاقليمية المتعددة وما يحفّ بها من مظاهر الابّهة ، لمن العوامل التي قوّت ، ولا ريب ، روح القومية في كل بلد عربي . فهناك ، مثلا ، قومية عراقية متميّزة عن القومية السعودية ، وهاتان القوميتان تختلفان عن القومية اللبنانية . وهذا التمايز او هذا التباين بين قومية عربية اقليمية واخرى، اصبح حاجزاً يقف في وجه الوحدة العربية السياسية. وفي هذه الاثناء ظلت الوحدة العربية الهدف المثالي الذي يصبو اليه العرب بالرغم من ان جامعة الدول العربية عجزت عن خلق اتحاد (Federation) يضم الدول الاعضاء في الجامعة ، وبالرغم، ايضاً، من ان محاولات مختلفة للاتحاد فشلت او انها لم تدم طويلا . وفي هذه الفترة نفسها، حاولت الحركة العربية جهدها ان تحلّ فكرة القومية العربية محلّ فكرة الأمة الاسلامية العربية . فان لفظة « قوم » تعني مجموعة من الشعوب ، وبالأخص مجموعة من الناس . وفي القرآن الكريم ترد لفظة « قوم » كما في « قوم

نوح » و « قوم موسى » و « قوم ابراهيم » ، لكن هذه الكلمة « قوم » قد اصبح لها ، في الآونة الاخيرة ، مفهوم قوميّ بعيد المرمى في العالم العربي . وكانت لفظة « القومية » هذه قد استعملت في التركية كمرادف للفظة الافرنسية « Nationalité » ، وذلك بعد انقضاء سنة واحدة على اصدار « قانون الجنسية العثمانية » ، اي في ١٨٧٠ . إن « القومية العربية » ، هذا المصطلح الجديد ، لا يرمز إلى القومية العربية فحسب ، وانما يرمز كذلك إلى توق العرب للاتحاد . ويعتبرها اصحابها درعاً حصيناً ضدّ الاستعمار ، وأداة صالحة تؤمّن لهم النصر على اسرائيل . ويعتبرونها كذلك حركة تهدف إلى التحرر — إلى التحرر السياسي والاجتماعي حتى والديني — من التدخل الذي تمارسه دول الغرب في المنطقة ، سواء أكان التدخل سافراً ام خفياً مقنّعاً ، ومن روح الاقطاعية ، ومن عقلية المجتمع الأصيل ، ومن القيود الدينية التي كانت دوماً من العوامل الأساسية الفعّالة في كل تفكير سياسي في الشرق الادنى . والقومية العربية فكرة تجمع العرب حول الوحدة ، وهذه الوحدة العربية الشاملة تستأنف إلى قلوب العرب كما كانت تستأنف الجامعة السلافية الشاملة او الجرمانية الشاملة إلى قلوب اصحابها في القرن التاسع عشر . وفي هذه الاثناء اصبح اتجاه القومية العربية في بعض البلدان العربية نحو الاشتراكية على اساس ان الاشتراكية هي افضل دواء ناجع لمشاكلها الاقتصادية . ويحسن بنا ان نتذكر ان اليقظة العربية التي عمّت الجماهير في مختلف الاقطار العربية ، وتوق هذه الجماهير لتنعم « بحياة افضل » ونقمتها على الطبقة الغنية الرأسمالية بصفتها الاقلية المميّزة التي يحق لها وحدها ان تنعم بالحياة الطيّبة ، جميع هذه العوامل حتّمت على الجماهير في هذه البلدان ان تعتبر العدالة الاجتماعية مطلباً حقاً من مطالبها . ويظن بعضهم ان الاشتراكية (لاسيما الاشتراكية التي تدعمها الشيوعية) هي السبيل الوحيد ، في الوقت الحاضر ، الذي تستطيع به العلمنة ان تغزو الاسلام .

ان دعاة القومية العربية العلمانية ينظرون إلى القومية على انها تجسيد لشعور العرب بانهم امة واحدة تربطها روابط طبيعية. وهم يركّزون تركيزاً شديداً على الناحية الانسانية للاشتراكية التي يدينون بها اقتصادياً على انها اشتراكية تهدف إلى رفع مستوى العمال والفلاحين اقتصادياً واجتماعياً ، كما انها تهدف إلى خلق انسان عربي جديد ذي شخصية جديدة متحرّرة دينياً واجتماعياً من قيود الماضي ، وسياسياً وعسكرياً من ضغط الدول الغربية ، وتجعل هذا الانسان العربي الجديد يشعر انه مرتبط برباط قوي مع اخوانه العرب في سائر اقطارهم .

وهذا الاتجاه الذي تتجهه القومية العربية نحو الاشتراكية في بعض البلدان العربية يلقى تعضيداً شديداً من قبل الشباب المثقف . وفي السنوات الاخيرة كان اليسار ، عندما تقع ازمة وطنية ، يستغلّ هذا الاتجاه نحو الاشتراكية لصالحه ليقوّي مركزه وليظهر بمظهر الحارس الامين للقومية العربية ، والمحافظ المخلص لمصالحها العليا . وكنتيجة لهذا الوضع اصبح الشعور الوطني اكثر تصلباً وتطرفاً مما جعل الحكومات المتعاقبة عاجزة عن وضع مخطط لسياسة قومية اذا لم تكن « اشتراكية الجماهير » إلى جانبها .

ولا يظنّنّ احد انه بناء على وصفنا للأطوار التي مرّت بها القومية العربية ، يمكن بسهولة رسم خطوط واضحة تميّز طوراً عن آخر في تاريخ نشوء القومية العربية ، ذلك لان هذه الاطوار التي مرّت فيها القومية العربية متداخلة متشابكة ، بعضها ببعض . فان دعاة القومية العلمانية لا يزالون فئة صغيرة تنتمي إلى طبقة معيّنة . ولا يزال الدين عاملا فعالا قوياً . ولا يزال الاسلام ، كرابطة تجمع العرب المسلمين ، اقوى من اي نظام سياسي تأخذ به الدول العربية في منطقة الشرق الادنى . والواقع ان القومية العربية ، الان ، لا يمكن تحديدها تحديداً واضحاً ، اذ ليس هناك من تحديد واحد يمكن ان يشمل جميع النواحي المتباينة ، والمتناقضات البارزة ، التي تتميّز بها

هذه القومية . فهي حركة سياسية ، وهي نوع من الأحياء الديني ، وهي في الوقت ذاته حركة علمانية وثيوقراطية ، وقوة ايجابية هدفها وغايتها القصوى توحيد العرب ، وسلبية في موقفها ضدّ الغرب . ولسنا نشك في انه لو كان هناك اجماع في الرأي ، واتفاق في وجهات النظر في العالم العربي بصدد محتوى القومية العربية ومضمونها لزال كثير من الغموض والابهام والفوضى الضاربة في التفكير حول هذه القضية .

يحسن بنا ان نتذكر ان القومية العربية السياسية لا تزال في الاطوار الأولى من نشأتها . ففي الغرب كانت القومية السياسية جزءاً من حركة علمنة الحضارة المسيحية — وهي حركة علمانية بعض جذورها متأصل في الثورة الفكرية التي يطلق عليها حركة الاحياء (Renaissance) واسفرت المعركة بين القومية والمسيحية عن انتصار القومية . فكانت القومية اشبه باكتشاف اله وثني جديد رفعته إلى عرش الدولة جماعة من المفكرين كانت تظنّ ان خلاصها يتوقّف على وضع نظام سياسي اجتماعي علماني من صنع الانسان ذاته ، لا على نظام ديني . اما في الشرق العربي ، في اثناء القرن التاسع عشر ، فقد كان الاسلام ولا يزال عميق الجذور ، فلم تستطع الافكار القومية الجديدة من الغرب ان تحدث ثغرة في الاسلام ، بل استطاع الاسلام ان يقف في وجه كل محاولة للعلمنة . والمسيحيون القلائل ، وإلى جانبهم قلة قليلة من المسلمين ممن كانوا يحلمون بانشاء دولة عربية علمانية تقوم على حدود جغرافية وطنية معيّنة لا على اساس ديني ثيوقراطي ، لم تلق تعضيداً ولا تشجيعاً من قبل غالبية سكان هذه البلدان الاسلامية . وهكذا ، فلا يمكن الفصل التامّ بين الاسلام والقومية العربية ، وعليه لا يمكن القول ان القومية السياسية الجديدة جاءت نتيجة صراع داخلي او توتّر روحي كان العرب يشعرون به داخل الحضارة العربية الاسلامية .

قال الشاعر الالماني غوتي (Goethe) مرّة « من كان عليه ان

يرفع حملاً ثقيلاً ينبغي له ان يعرف مركز الثقل » . هل يكون مركز الثقل في المجتمع العربيّ المتجدّد الاسلام ، ام سيكون القومية العربية الاشتراكية العلمانية ؟ علينا ان نترقّب بعض الوقت لنرى اذا كان بالامكان نشوء قومية علمانية في البلدان العربية الاسلامية تقوم كلياً على اسس جغرافية وطنية معينة يوليها الفرد ولاءه واخلاصه . وبكلام آخر ، هل يمكن فصل القومية العربية في بلاد اكثرها من العرب المسلمين فصلا تاماً عن التراث الروحي الاسلامي ، وما الفائدة من هذا الفصل ؟ لسنا نعلم علم اليقين اي اتجاه ستتجهه القومية العربية آخر الامر ، حتى وان رحنا نقيس نشوءها بنشوء القومية الغربية الاوروبية ونتذرع بالقياس المنطقي والحجج البارعة . ويخيل الينا ان السؤال الاوّل الذي يسأله كثيرون من المعنيين بشؤون الشرق الادنى العربي ينبغي ان يدور حول هذه القضية : إلى اي مدى يستطيع الاسلام ان يحل المشكلات التي يواجهها من تيارات علمانية ماديّة ملحدة غزت اقطاره بشتى الاشكال ومن عقائد سياسية اشتراكية ماركسية هبت عليه من الشرق والغرب ؟

وعليه فان الازمة الحقيقية في الشرق العربي هي في جوهرها ازمة روحية كتلك التي جابهتها المسيحية في القرنين السادس والسابع عشر والتي انتهت بالقضاء على وحدة الكنيسة وبقيام دول اوروبية ذات حكومات علمانية . ان جميع الازمات التي تعصف بالانسان هي في جوهرها ازمات روحية ، ازمات ايمان واخلاق ، هذا اذا كنا نؤمن بان هناك نظاماً روحياً الهياً ينتظم فيه الانسان وهو جزء منها . ويعتقد المؤلف ان النزاع والصراع الرئيسيين بين الشرق والغرب ، لا بل النزاع في الشرق ذاته ، وفي الغرب ذاته ، هو نزاع انعدام القيم الانسانية والروحية من القلوب .

ليس هناك علاجات سياسية واجتماعية او اقتصادية ومادية تستطيع ان تحل كل مشكلات الشرق الادنى الاساسية ،

لاسيّما اذا كانت هذه العلاجات منفصلة تمام الانفصال وبعيدة كل البعد عن الحلّ الخلقي الانساني والتراث المعنوي الروحي . ومما يدعو إلى الأسى الشديد ان الذين يدركون ويعلمون السبب الحقيقي لهذا الوضع المفجع هم قلة من الناس منفتحة قلوبهم وعيونهم للحقيقة والنور .

ملاحق الكتاب

الملحق آ

الامبراطورية العثمانية

مساحتها وعدد سكانها والاجناس البشرية فيها واديانها كما كانت عليه سنة ١٨٤٤ [١] .

كانت مساحة الامبراطورية الشاملة ، بما في ذلك مساحة الولايات التي كانت تدفع لها خراجاً ، ١،٨٣٦،٤٧٨ ميلا مربعاً . اما عدد سكانها في الولايات الاوربية والآسيوية والافريقية فقد كان كما يلي :

الولايات	المساحة بالاميال المربعة	عدد السكان	عدد السكان في الميل المربع الواحد
الولايات التركية في اوربا	٢٠٣,٦٢٨	١٥,٥٠٠,٠٠٠	٧٦ و ١٠٠ / ١
الولايات التركية في آسيا	٦٧٣,٧٤٦	١٦,٠٥٠,٠٠٠	٢٣ و ١٠٠ / ٨
الولايات التركية في افريقيا	٩٥٩,١٠٤	٣,٨٠٠,٠٠٠	٣ و ١٠٠ / ٩
المجموع	١,٨٣٦,٤٧٨	٣٥,٣٥٠,٠٠٠	١٩ و ١٠٠ / ٢

(١) راجع : Farley, J. Lewis, *The Resources of Turkey*, pp. 2-3.

عدد السكان

كان عدد السكان يقدّر ، بحسب الاحصاء الذي جرى سنة ١٨٤٤ ب ٣٥،٣٥٠،٠٠٠ نسمة موزّع في مختلف الولايات كما يلي :

الولايات التركية في اوربا :

تراقيا (Thrace)	١,٨٠٠,٠٠٠
بلغاريا	٣,٠٠٠,٠٠٠
روميليا وتساليا	٢,٧٠٠,٠٠٠
البانيا	١,٢٠٠,٠٠٠
بوسنيا والهرسغ	١,١٠٠,٠٠٠
الجزر	٧٠٠,٠٠٠
ملدافيا (Moldavia)	١,٤٠٠,٠٠٠
الفلاخ (Wallachia)	٢,٦٠٠,٠٠٠
سربيا	١,٠٠٠,٠٠٠
المجموع	١٥,٥٠٠,٠٠٠

الولايات التركية في اسيا :

آسيا الصغرى او الاناضول	١٠,٧٠٠,٠٠٠
سوريا والعراق وكردستان	٤,٤٥٠,٠٠٠
الجزيرة العربية	٩٠٠,٠٠٠
المجموع	١٦,٠٥٠,٠٠٠

الولايات التركية في افريقيا :

مصـــر	٢,٠٠٠,٠٠٠
طرابلس الغرب وفاس وتونس	١,٨٠٠,٠٠٠
المجمـــوع	٣,٨٠٠,٠٠٠
المجموع الكامل	٣٥,٣٥٠,٠٠٠

الأجناس البشرية

يمكن تصنيف الأجناس البشرية التي كانت تقطن تركيا على الوجه التالي :

الاجناس البشرية	في اوروبا	في اسيا	في افريقيا	المجموع
العثمانيون	٢,١٠٠,٠٠٠	١٠,٧٠٠,٠٠٠		١٢,٨٠٠,٠٠٠
اليونانيون	١,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠		٢,٠٠٠,٠٠٠
الأرمن	٤٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠		٢,٤٠٠,٠٠٠
اليهود	٧٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠		١٥٠,٠٠٠
السلافيون	٦,٢٠٠,٠٠٠			٦,٢٠٠,٠٠٠
الرومانيون	٤,٠٠٠,٠٠٠			٤,٠٠٠,٠٠٠
الالبانيون	١,٥٠٠,٠٠٠			١,٥٠٠,٠٠٠
التتر	١٦,٠٠٠	٢٠,٠٠٠		٣٦,٠٠٠
العرب		٨٨٥,٠٠٠	٣,٨٠٠,٠٠٠	٤,٦٨٥,٠٠٠
السريان والكلدان		٢٠٠,٠٠٠		٢٠٠,٠٠٠
الدروز		٨٠,٠٠٠		٨٠,٠٠٠
الاكراد		١,٠٠٠,٠٠٠		١,٠٠٠,٠٠٠
التركمان		٨٥,٠٠٠		٨٥,٠٠٠
الغجر (النَوَر)	٢١٤,٠٠٠			٢١٤,٠٠٠
المجموع	١٥,٥٠٠,٠٠٠	١٦,٠٥٠,٠٠٠	٣,٨٠٠,٠٠٠	٣٥,٣٥٠,٠٠٠

الأديان

تصنيف السكان بحسب الأديان :

الدين	في اوروبا	في اسيا	في افريقيا	المجموع
مسلمون	٤,٥٥٠,٠٠٠	١٢,٦٥٠,٠٠٠	٣,٨٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠,٠٠٠
الروم الأرثوذكس و الأرمن	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٣,٠٠٠,٠٠٠		١٣,٠٠٠,٠٠٠
الكاثوليك(١)	٦٤٠,٠٠٠	٢٦٠,٠٠٠		٩٠٠,٠٠٠
اليهود	٧٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠		١٥٠,٠٠٠
طوائف مختلفة	٢٤٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠		٣٠٠,٠٠٠
المجموع	١٥,٥٠٠,٠٠٠	١٦,٠٥٠,٠٠٠	٣,٨٠٠,٠٠٠	٣٥,٣٥٠,٠٠٠

(١) بما في ذلك الموارنة في جبل لبنان ، وعددهم ١٤٠,٠٠٠

ملحق ب

الامبراطورية العثمانية سنة ١٩١٤
المساحة وعدد السكان [١]

خلاصة

	المساحة بالاميال المربعة	السكان
تركيا في اوربا	١٠,٨٨٢	١,٨٩٠,٠٠٠
تركيا في آسيا الصغرى بما في ذلك ارمينيا وكردستان	٢٧١,٢٦٢	١٢,٦٥٧,٨٠٠
الولايات العربية في الشرق الادنى :		
العراق :		
الموصل	٣٥,١٣٠	٥٠٠,٠٠٠
بغداد	٥٤,٥٤٠	٩٠٠,٠٠٠
بصرة	٥٣,٥٨٠	٦٠٠,٠٠٠
المجمـــوع	١٤٣,٢٥٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
سوريا :		
حلب	٣٣,٤٣٠	١,٥٠٠,٠٠٠
دير الزور (سنجق مستقل)	٣٠,١١٠	١٠٠,٠٠٠

(١) راجع : Meare, E.G., *Modern Turkey*, pp. 580-581, citing *Statesman's yearbook*, 1921 Edition.

سوريا	٣٧,٠٢٠	١,٠٠٠,٠٠٠
بيروت	٦,١٨٠	٥٣٣,٥٠٠
القدس (سنجق مستقل)	٦,٦٠٠	٣٤١,٦٠٠
لبنان	١,١٩٠	٢٠٠,٠٠٠
المجموع	١١٤,٥٣٠	٣,٦٧٥,١٠٠

ملحق ج

قرارات المؤتمر العربي الأول

« أقرّ المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس ، ١٨٤ ، شارع سانت جرمان ، في اجتماعه الذي عقد في ٢١ حزيران ، سنة ١٩١٣ القرارات التالية :

اولا : ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية ، فيجب ان تنفّذ بوجه السرعة .

ثانياً : من المهم ان يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً .

ثالثاً : يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها .

رابعاً : كانت ولاية بيروت قد قدّمت مطالبها بلائحة خاصّة صودق عليها في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١٣ بإجماع الآراء وهي قائمة على مبدأين اساسيين وهما : توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين اجانب . فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين .

خامساً : اللغة العربية يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب ان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

سادساً : تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات السورية والعربية الاّ في الظروف والاحيان التي تدعو للاستثناء الأقصى

سابعاً : يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية ان تكفل لمتصرفية لبنان وسائل تحسين ماليتها .

ثامناً : يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الارمن العثمانيين القائمة على اللامركزية .

تاسعاً : سيجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية .

عاشراً : وتبلغ ايضاً هذه القرارات للحكومة المتحابّه مع الدولة العثمانية .

حادي عشر : يشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكراً جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها .

ملحق بقرارات المؤتمر

اولا : اذا لم تنفّذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتمون إلى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول اي منصب كان في الحكومة العثمانية الاّ بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها .

ثانياً : ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ، ولا يمكن مساعدة اي مرشح في الانتخابات التشريعية الاّ اذا تعهّد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

ثالثاً : المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في موازرتهم له ، ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم [1] .

(١) راجع اللجنة العليا لحزب اللامركزية – المؤتمر العربي الاول ، ص١٣٢ – ١٣٤

ملحق د

برنامج الاصلاح على مبدأ الادارة اللامركزية

« ان القضية الكبيرة التي اخذ الناس يتساءلون عنها هي : القضية العربية . ان جميع الشخصيات السياسية التي كانت على اتصال بالأوساط العربية كانوا منذ زمن بعيد يترقبون ظهور هذه القضية على المسرح السياسي . منذ شهر تشرين الثاني الأخير حدّثني زعيم سوري مسلم له نفوذ عظيم في الاوساط السورية ، وعلى جانب وافر من الذكاء وعلى اطلاع وثيق بالسياسة الاوربية بقوله :

« اننا لا نفكر بالانفصال عن الدولة العثمانية ، بل الأمر على نقيض هذا، اذ إننا نسعى لنكون شركاء في الدولة العثمانية كي نصبح كتلة متراصّة تستطيع ان تقف في وجه المطامع الاوربية . غير اننا نعتبر شرطاً اساسياً ان تمنحنا الحكومة العثمانية ادارة حكومية مقبولة لدينا .

ان مجالس الادارة في ولايات بيروت وحلب وطرابلس وسوريا قد اعربوا عن هذه المطالب العربية وهي حكومة لامركزية تقرب من حدود الاستقلال الذاتي . ويمكن اختصار هذه المبادىء التي نطالب بها على الوجه التالي :

« اولا : الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية في جميع المحاكم والمكاتب على ان تظلّ اللغة التركية لغة المراسلات الرسمية مع استانبول . اما مجلس ولاية بيروت فقد طلب ان يعترف باللغة العربية في مجلسي النواب والأعيان .

« ثانياً : ويترتّب على هذا ان يكون الموظفون الاتراك في سوريا ممن يحسنون اللغة العربية باستثناء « موقت » الولاة الأتراك وذلك إلى فترة قصيرة تنتهي بعد ست سنوات من سنّ مثل هذا القانون .

« ثالثاً : عند تعيين الموظفين المدنيين والقضاة وضباط الجندرمة ينبغي ان تستشار السلطة المحلية بشأن تعيينهم .

« رابعاً : يجب انشاء محكمة عليا للنقض والابرام من شأنها ان تنظر في الاحكام التي تصدرها المحاكم في سنجق القدس والشام وبيروت وحلب وسواها وفي الواقع ينبغي ان يصدر كل نقض وابرام عن استانبول .

« خامساً : في وقت السلم تكون الخدمة العسكرية محلية .

« سادساً : ان الواردات الرئيسية ينبغي ان تقسّم إلى فئتين :

ا) واردات الجمارك والبرق والبريد وضريبة الإعفاء من من الجندية تعود إلى الحكومة المركزية .

ب) اما سائر الواردات الاخرى فيجب ان تعود إلى الحكومة المحلية لتنفق على حاجات الولاية .

« سابعاً : تشكل مجالس للولايات تكون لها صلاحيات ادارية ، وفي بعض الحالات ، صلاحيات تشريعية واسعة .

وجميع الامور ، باستثناء القضايا السياسية العامة والدفاع الوطني التي هي من شأن الحكومة المركزية ، تترك للحكومات المحلية تصرّفها بحسب صلاحياتها .

« ثامناً : يعيّن مستشارون اجانب لتنظيم الجندرمة والشرطة والقضاء والمالية . وهؤلاء يعيّنون لمدة ١٥ سنة ، ويكون اختيارهم بين الاخصائيّين الاوربيين الذين لهم اطلاع على العادات المحلية ، والذين يحسنون اللغتين العربية والتركية ».

وقد صرّحت لي بعض الشخصيات العربية في اثناء تحدّثي اليهم انّهم كانوا إلى جانب هذا يطالبون بشيء آخر : تعيين عدد من

الوزراء العرب في مجلس الوزراء .

وعندما سألت محدّثي من هؤلاء الشخصيات اذا كانت الحكومة المركزية تعتبر مثل هذا المطلب امراً عسيراً يصعب عليها تحقيقه اجابوني :

« نحن نعتبر هذه المطالب بالنسبة للولايات العربية لا يختلف روحاً عن التنازلات التي تنازلت عنها الدولة العثمانية ... للألبانيين في صيف ١٩١٢ » .

« وقد اعلنت حكومة غازي مختار باشا ان هذه الإصلاحات ستشمل جميع سكان الامبراطورية .

هل ستمنح الحكومة الحالية هذه المطالب » ؟[١]

---

(١) راجع : Contenson, Ludovic de, *Les Réformes en Turquie d'Asie.* *La Question Arménienne et la Question Syrienne*, pp. 63-67.

ملحق ه

مقتطفات من التقرير السنوي عن تركيا عام ١٩٠٨

(وهي من رسالة بعث بها السير ج . لوذر (Lother) إلى السير ادوارد غراي (Grey) رقم ١٠٥ تاريخ ١٧ شباط سنة ١٩٠٩) .

الحركة الدستورية

« لسنوات خلت كان الناس في تركيا وخارجها يعرفون انه قامت في تركيا حركة ثورية تتزعّمها جمعية « تركيا الفتاة » . كذلك كان الناس يعرفون — انّه بفضل نظام التجسّس التام الذي اقامه السلطان — هنالك عقبات كأداء كانت تعترض سبيل نموّ هذه الحركة الثورية .

« ففي الثالث والعشرين من شهر تموز عقدت الوزارة اجتماعاً لبحث هذه القضية ولم يكن لديها سوى احد حلّين فإما الاذعان لمطالب الثوريين او محاربتهم . ان جلالة السلطان لم يكن يستطيع ان يتصور ان جماعة صغيرة من الثوار لا يمكن القضاء عليها وعنده ما عنده من جيش عرمرم . غير ان الوزراء كانوا يدركون ان الامور تطوّرت بشكل خطير لا يمكن معه القيام بعمل ما ، وبايعاز من سعيد باشا صرّحوا بانهم ينصحون السلطان ان يمنح الدستور ...

« وفي الحادي والثلاثين من شهر تموز اعلن جلالة السلطان في السلاملك (قاعة الاستقبال الكبرى) ، وبحضور جميع الممثلين الاجانب ، عن عزمه الوطيد على تعضيد الدستور . وقد سمح للناس في جوار القصر ان يقتربوا بحرية وإلى مسافة قصيرة من السلطان مما ترك انطباعاً حسناً في نفوس الناس .

« وقد تميّزت أطوار الثورة الأولى بفورة من حماسة الجماهير على مختلف اعراقهم ومللهم في جميع انحاء الامبراطورية . ولكن كان يراود المرء شيء من الشك لا بل كان يستحيل على المرء ان يصدّق ما كان يراه بعينه عندما كان يشاهد رجلا روميّاً يعانق مسلماً ، ومسلماً يعانق ارمنياً . ولكن بعد زوال الشكوك التي شعر بها الناس في المناطق النائية من ان الحركة لم تكن حركة مخلصة في اهدافها ومن انها حيلة لجأ اليها السلطان ، اقول بعد زوال الشكوك شعر الناس في جميع انحاء الامبراطورية بشيء من الارتياح ان الحكم الاوتقراطي الذي طال امده مدة ثلاثين سنة قد زال ...

« وفي هذه الاثناء كانت فكرة الدستور تتخلّل اوساط المجتمع تدريجياً في كل البلاد . اما بين العرب فان فكرة الدستور لم تترك في نفوسهم انطباعاً عميقاً اذ انهم كانوا يشكّكون في امر اجراء الاصلاح ، واذا كانوا قد ارتضوا الحكم التركي فلانه كان حكماً اسلامياً ولانه كان للسلطان عندهم بقية احترام على انه الرئيس الديني الأعلى في الامبراطورية العثمانية . كانت هنالك ردة فعل تهامس بها الناس ، ولكن لم يكن بالعسير تعليل هذه الظاهرة اذ انها كانت ، بصورة عامة ، صادرة عن اولئك المتردّدين الذين لم يكونوا يؤمنون بان الحركة ستنجح ولذا لم يسمحوا لانفسهم ان ينغمسوا في غمرة الحماسة ....

« وفي اواخر شهر تشرين الاول اخذت بوادر ردة الفعل

تظهر بشكل اهتم لها المبعوثون السياسيون كما يظهر ذلك في رسائلهم التي كانوا يبعثون بها إلى المراجع المختصة . وكان العرب يتساءلون اذا كانت احكام الدستور تتفق مع مبادىء الشريعة وقد شكا اعضاء الرابطة من اللامبالاة التي ابداها السوريون ازاء الدستور ... (١)

---

(١) راجع : Gooche, G.P. and Temperley, Harold (Edit), *British Documents on the Origins of the War*, 1898-1914. vol.V: *The Near East*, 1903-9 (London, 1928), pp. 249 - 258

ملحق و

سلاطين آل عثمان

١	عثمان		١٢٩٩
٢	اورخان		١٣٢٦
٣	مراد الاول		١٣٦٠
٤	بايزيد الاول		١٣٨٩

(ثم يتلو فترة وقع فيها صراع حول العرش بين ابناء بايزيد الثلاثة وهم سليمان ومحمد وموسى) .... ١٤٠٢ – ١٤١٣

٥	محمد الاول		١٤١٣
٦	مراد الثاني		١٤٢١
٧	محمد الثاني		١٤٥١
٨	بايزيد الثاني		١٤٨١
٩	سليم الاول		١٥١٢
١٠	سليمان الاول (القانوني)		١٥٢٠
١١	سليم الثاني		١٥٦٦
١٢	مراد الثالث		١٥٧٤
١٣	محمد الثالث		١٥٩٥
١٤	احمد الاول	١٦٠٣	
١٥	مصطفى الاول		١٦١٧
١٦	عثمان الثاني	١٦١٨	
١٧	مراد الرابع		١٦٢٣
١٨	أبراهيم	١٦٤٠	
١٩	محمد الرابع		١٦٤٨
٢٠	سليمان الثاني	١٦٨٧	
٢١	احمد الثاني		١٦٩١
٢٢	مصطفى الثاني	١٦٩٥	
٢٣	احمد الثالث		١٧٠٣
٢٤	محمود الاول	١٧٣٠	
٢٥	عثمان الثالث		١٧٥٤

٢٦ – مصطفى الثالث ١٧٥٧
٢٨ – سليم الثالث ١٧٨٩
٣٠ – محمود الثاني ١٨٠٨
٣٢ – عبد العزيز ١٨٦١
٣٤ – عبد الحميد الثاني ١٨٧٦
٣٦ – محمد السادس (وحيد الدين) ١٩١٨
(في ١٩٢٢ خليفة فقط)

٢٧ – عبد الحميد الاول ١٧٧٤
٢٩ – مصطفى الرابع ١٨٠٧
٣١ – عبد المجيد ١٨٣٩
٣٣ – مراد الخامس ١٨٧٦
٣٥ – محمد الخامس (رشاد) ١٩٠٩
٣٧ – عبد المجيد الثاني (خليفة فقط) ١٩٢٢–١٩٢٤

ملحق ز

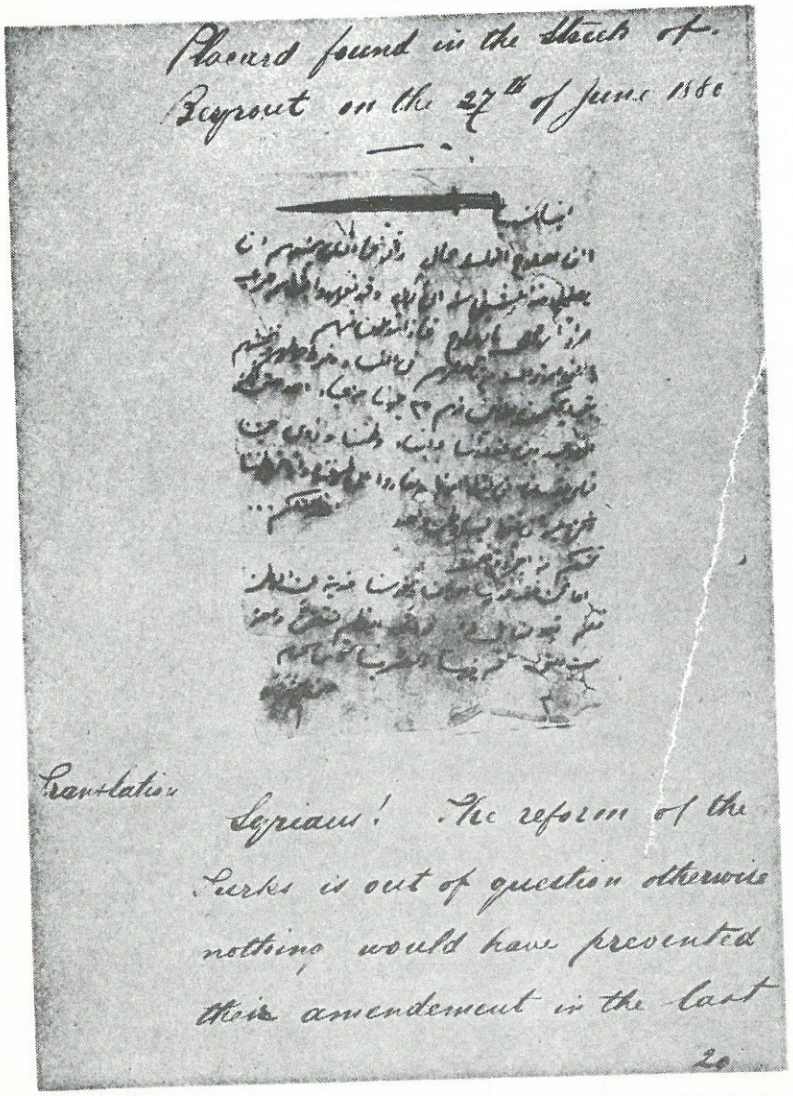
Placard found in the Church of Bagnout on the 27th of June 1880

Translation

Syrians! The reform of the Turks is out of question otherwise nothing would have prevented their amendement is the last

مرفق برسالة رقم ٤٧ ، بتاريخ ٣ تموز ١٨٨٠ ، تحت رقم ١٣٠٦/١٩٥ في سجلات وزارة الخارجية البريطانية.

ملحق ح

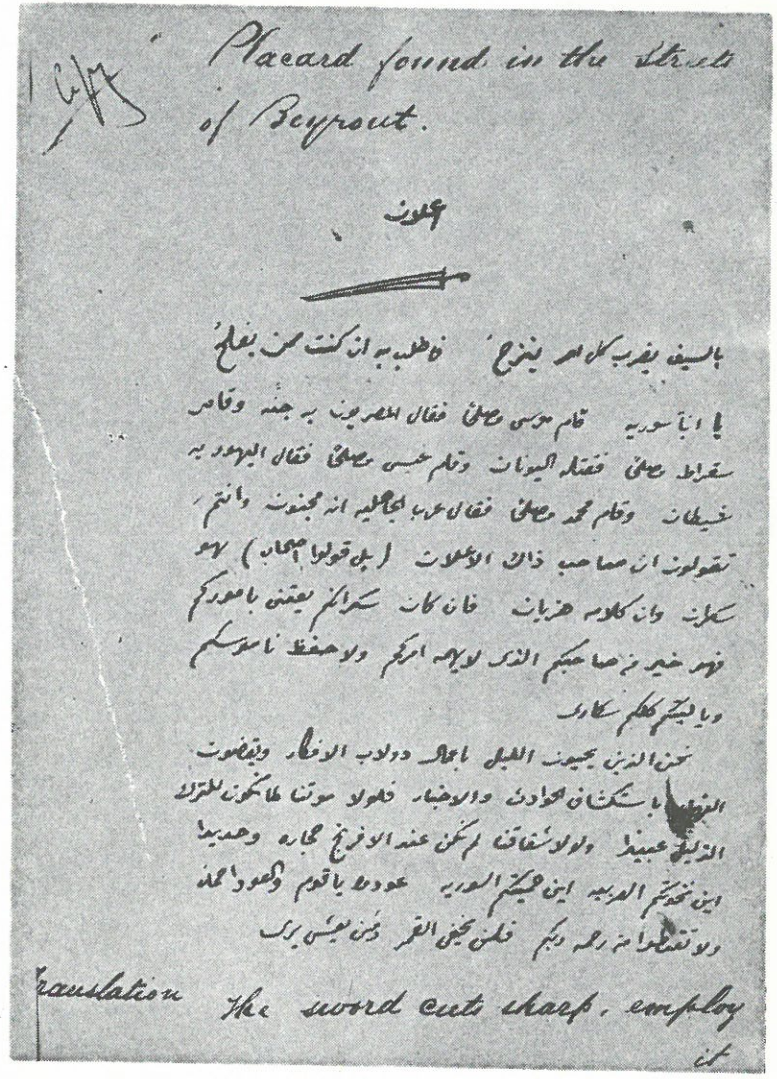

Placard found in the streets of Beyrout.

Translation

مرفق برسالة رقم ٤٧ ، بتاريخ ٣ تموز ١٨٨٠ ، تحت رقم ١٣٠٦/١٩٥
في سجلات وزارة الخارجية البريطانية .

ملحق ط

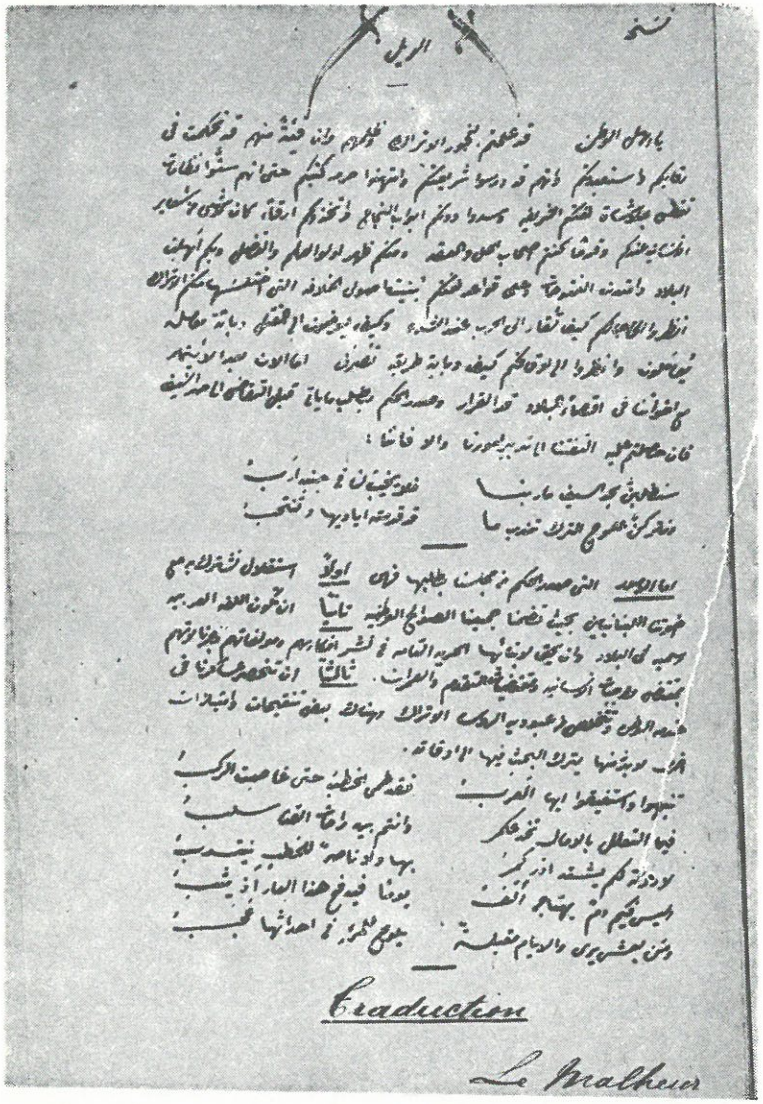

Traduction

Le Malheur

مرفق برسالة رقم ٢ بتاريخ ١٤ كانون الثاني ١٨٨١ ، تحت رقم ١٣٦٨/١٩٥
في سجلات وزارة الخارجية البريطانية

(١) ملحق ي

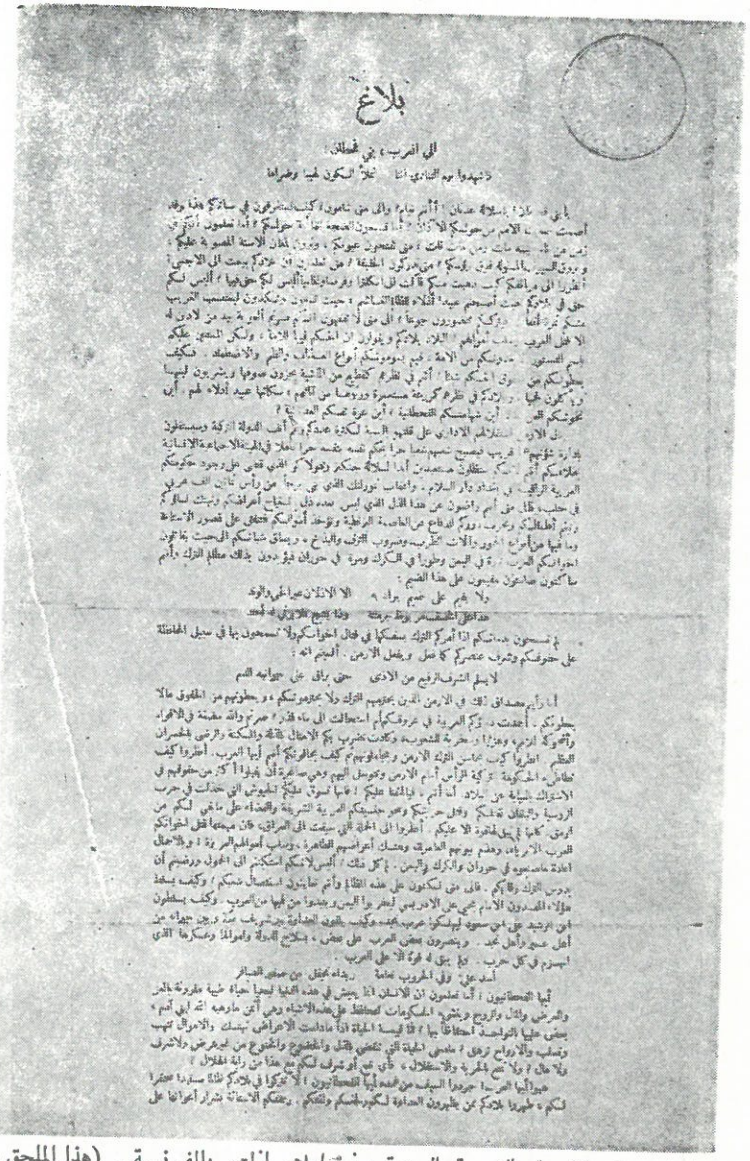

بلاغ

الى العرب ، بني قحطان :

اشهدوا يوم التنادي انني بلغت لكم غيبا وطرا

يا بني قحطان ! اسلالة عدنان ! أنتم عاربة وانتم كنتم تتكلمون في سالف ايامكم بهذا وقد أصبحت ... الامم من حولكم لا تزال ... تحسن الصنعة جدا ... حولكم ؟ اما تعلمون ... من ... بيننا مائة سنة ... قامت ... في شتحوين عيونكم ، ودون آذان الامة الصيوبة عليكم ، ودون الصبر ... والسلوة فوق ... ؟ من هو الذي الخليفة ! هل تعلمون ان عادكم بعثت الى الاجيال ... نظروا الى مراقصكم ... كيف بعثت مكم ما كانت قبل انكفاؤا وقد صادفتكم الباس لكم حق فيها ؟ أليس لكم حق في ... حيث أصبحتم عبيد ... أذلاء فقراء تائهين ... حيث تعدون ... ويكدون ليتصيب العرب منكم ثمرة ... ذكركم تصورون جوعا ؟ الى متى لا تفهمون اسم ... هو أعز ما يجد من لا دين له الا قول العرب ... ذات ... اللهم ، بلاغكم ويوازن ان الحكم في يد الامة ، ولكم السلطان عليكم باسم السلطان ... من الامة ... فيم ... ومنكم أنواع الاضطهاد ... فتكلفت بطولتكم من ... ان الحكم منذ ... أنتم في نظرهم كقطيع من الماشية يحرون صوفها ويشربون لبنها ... تكون نجيا ... ازدادكم في نظرهم كريشة مستمرة دورها من التأهم ، سكانها عبيد أذلاء لهم ... أن تحوشكم الغير ... أن تهاونكم القحطانية ، أن غرة تصمكم العدنانية ؟

... الى الاذى ... استقر الحكم الاداري على قلوبهم السيئة لكثرة عددكم ... أنف الدولة التركية ومستخلوق بلادة شعوبهم ... فريسة تصيح شعوبهم نشدا حرا ... تحكم نفسه بنفسه حرا ... عملا في الجامعة الانسانية علاوة حكم أنفسكم ... تستطيعون أبدا لسلالة حكمكم وهولا كو الذي قضى على وجود حكومتكم العربية الزاهية ... في بغداد دار السلام ... واخضاب نورلنك الذي بنى رؤوسا من رؤوس ثمانين الف عربي في حلب ... طالما على أمم راضون عن هذا الذل الذي ليس عنده ذل ... اشتاق أعراقكم وتبيت اسلافكم ... وتنم أطفالكم وتعرب ... وتم ادناع من الحاسة الوطنية وتوخد أمورانكم تحفظ على قصور الأسباط ... وما فيها من أدوات الدور والآلات الطرب ومشروب الخمر والبذخ ... ويساق شبانكم الى حيث يذهبون اخوانكم العرب ... في اليمن وطورا في التركية ومرة في خوزستان فيؤدون بذلك مظالم الترك ... أنتم ما تكونون صانعون مضيون على هذا القبيح :

ولا يقيم على ضيم يراد به ... الا الاذلان عير الحي والوتد

هذا الحضيض فهل من مرتقى صعد ... ولا سبيل الى العلياء لمن قعد

ثم تسمحون لانفسكم اذا أمركم الترك بمشكم في قتال اخوانكم ولا تسمحون بها في سبيل المحافظة على حقوقكم وشرف عنصركم كما تفعل ويفعل الاحرار ... القيام انه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

انا رأس مصدافي ثقة في الاحرار الذين يحترمهم الترك ولا يحترمونكم ... وحقوقهم من الحقوق مالا يحلمون بكم ... أجدت ... وكم العربية في عروقكم ... استحالت الى ماء قذر ... عرقم وداء مقيمة في الاعراق وأنوفكم الزنجية ... وعيونا ... حمرة الشعوبية ... وكانت تضرب بكم الامثال بقلة والمكنة والرشى بضعفكم الطبائع ... اطرقوا كرة خاسئ الترك الاحرار وحياء نفوسهم كيف يحاقرونكم أمم أبيا العرب ... اطرقوا كيف تطاول الحكومة تركية الرؤس أمم الاوس وتحوصل اليهم وهي صاغرة أن يقولوا أكثر من مخلوقين في الاسواق البيانية من بلاد ... أما أمم ... فيالها عليكم ! عاما فعوق عليكم تطويش الى حدات في حرب الروسية والبلقان تقاتلكم ... وقال حرتكم وعمر جنسيتكم العربية الشريفة والقضاء على ماضي أنفسكم من الرمق كأنما لم يبق لكم فخرة الا عنكم ... اطرقوا الى الخلة التي سيقت الى العراق ... فان مهمتها قتل اخوانكم العرب الاحرار ... وهدم يوم هم العاصمة ومشاق أعرافهم القاهرة ... وسلب أموالهم العزيزة ! ... والاحتمال اعادة ماضيهم في حوران والكرك واليمن ... إلا كل ذلك ! أليس لانفسكم المستكينة الى الخمول درؤسكم أن يدوس الترك وقاركم ... قال من تكونون على هذه القذارة وأنتم تتبرؤن استعمال شتائمكم ! وكيف يسخط هؤلاء المقدرون الامم حتى على الاوربي ليعتبروا اليمن وجنودا من فيها من العرب ... وكيف يسخطون ان ترشيد على من سموه ليهتكوا عرضه كيف شاءت ... الغيرة العدائية من شرف عند ورين جهاده من أجل عيش وأهل نجد ... ويتصورون بعض العرب على بعض ، بسلاح الدولة وأموالها وعسكرها الذي ليس له في كل حرب ... دم يبقى له قوة الا على العرب ...

أسد علي ... وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر

أيها القحطانيون ! أنا تعلمون ان الانسان انما يعيش في هذه الحياة فيعيا حياة شبيهة بحياة الطير والعرض والمال والزوج وبنيه ... الحكومات تحافظ على هذه الاشياء وهي أثمن ما وهبه الله أبي أمم ... بعض عليها الشواهد احتفاظا بها ؟ فما فيسة الحياة اذا ما دامت الاعراض تهتك ... والاموال تنهب وتسلب والارواح ترهق ؟ ما معنى الحياة التي تنقضي بذل وانخذلان وانخضوع والخوف من غير عرض ولا شرف ولا مال ؟ ولا نفع لغيرية ولا استقلال ... أي عيش تعرف لكم مع هذا من رتبة المقلال ؟

فيا أيها العرب ! جردوا السيف من غمده أيها القحطانيون ! ألا تذكروا في ملاحكم فتلا مسدودا احتقارا لكم ، طهروا ملاحكم من ظلم ودون العداوة لكم بغير نفسكم ولتكم ... وحكم الاعتداء بشرار أخوانها على

بلاغ اصدرته الجمعية الثورية العربية وفي اعلاه الختم بالفرنسية . (هذا الملحق وما يليه وثائق للدكتور صلاح المنجد سمح لي بنشرها .)

(٢) ملحق ي

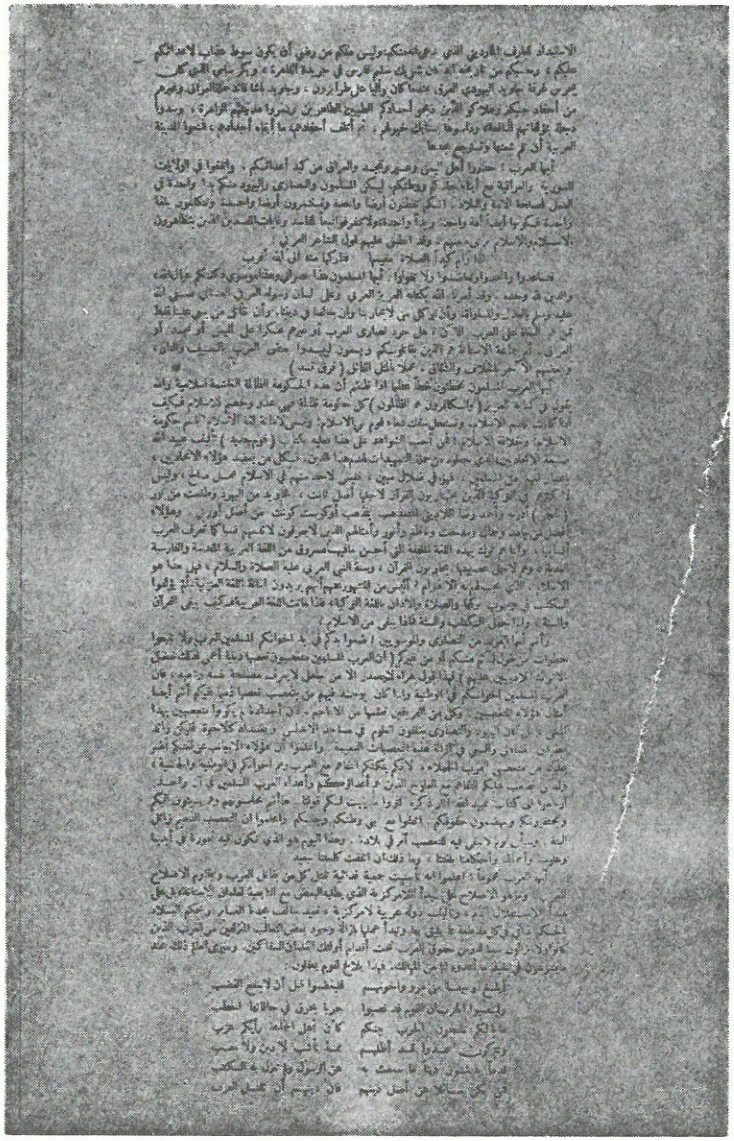

الاستعداد لطرف الثاروي الذي دعوتكم وليس منكم من رضي أن يكون سوطة عذاب لاعدائكم ... حليكم ، وحسبكم من الرعاة أن ... من شريك سليم قاسي في جريدة القاهرة ، وكرم بابي الذي كان ... قاسي غرة جاويد البيهقي العرق ، عندما كان وإياه حل طرابزون ، وبجاويد هذا قائد عثماني الذي ... من أعتاد جيشكم وعلاكم الآن ... ذكر أحداكم الطيبين القاهرين ... قاسيا ما يقوم القاهرة ، وسدوا ... وقائعهم الخالدة وبأسوها ... بأبناك خيرهم ، ثم أشف أحقادي ما أبناء أجدادهم ، فتسوا العينة العربية أن تم شتتها وتشويع بعدها

أيها العرب ! حضروا أهل ... وصبر وتجلد والعراق من كيد أعدائكم ... واتفقوا في الولايات السورية والعراقية مع أبناء جلدتكم لبكر الشاسون والصداري والبيوت منكم ... واحدة في العمل فتصبحوا الامة والبلاد ... انكم تحتضرون أرضا واحدة وتفتخرون أرضا واحدة وتكتفون بقاعدة واحدة فكروا أبدا أمة واحدة ... واحدة ... وتحتفرون أبناءها فقاسية ... وقاسية الشاسون الذين يتظاهرون بالاسلام والاسلام ... برئ منهم ... وقد أطلق عليهم قول الشاعر العربي

أتاك أبو الصلاة ... مقبلا ... فاذكرنا منه الى أين تذهب

تصاغروا واتحدوا وتضامنوا ولا تجزوا ... أيها المسلمون هذا عراقي ومقاتلوسوري ... فكروا في الوقائع والحوادث ... وقد أمرنا الله بكتابه العزيز العربي وعلى لسان رسوله العربي في أحاديثه صلى الله عليه وسلم بالمواساة وأن يركن من لا يغار بما وان ساقطا في دينه ، وأن شاكي من بني عمنا فقط ... من ... البلاد على العرب ... الآن ... على حرد تصاري العرب ... أن نهدم فكرا على العرب ... أو العرب ... أو جامعة الاسلام ... الذين شاقونكم ويحبون ليبيدوا ... حتى العرب الصريف والخلق ... ودينهم لا حرب الخلافة والخلافة ... تحلا بالقول الفاصل (فرق تسد)

أيها العرب المسلمون المخلصون ... نعلما علما اذا علمتم أن هذه الحكومة الثالثة المتشبثة بالخلافة الاسلامية وقد عثرت في ... العربية (بالكاردون ... الثالثون) كل حكومة ثالثة في عنادر وخصم الاسلام فكيف اذا كانت باسم الاسلام ... وتستطيل بذلك دماء هم في الاسلام ... وتمس كرامة الله الاسلام ... اسم حكومة الاسلام ... وخلافة الاسلام ... التي أسس الشواهد على هذا تعليه كتاب (فويجيه) تأليف عبد الله مستشار الاحكام ... الذي حضر من حرة الشيعة ... الذين ... شكل من يعتبر هؤلاء الاحكام ... بعض ... من السلمين ... فيرى في ضلال مبين ... قاسي لاحد منهم في الاسلام ... فيما مناع ... وليس ... الكرام في أوربا الذين ... يرون الحرام لا حيا أصل ثابت ... فيريد من أبيهم وطلعت من ... (ثم) ... أبيه ... واحد ومنا الآدمي المتشعب ... بمذهب أوكوسه كونت من أصل أوربي ... وهؤلاء ... قاسي من يعتد وهذا ... وبحث وأعظم دأبهم وأعظم العرب لا يعرفون لانفسهم شيئا كما تعرف العرب أنفسها ... وانما هم ترك بيده اللغة المقفرة التي أحسن مأثوبه مصروفي من اللغة العربية القديمة والقديمة ... جدا ... وهم لا يحل حديثها ... غير ... وسنة النبي العربي عليه الصلاة والسلام ، فهي هنا هو الاساس ... الذي عليه ... الادام ! الذين من الشهور ... ودون اللغة العربية ... ثم يقرأوا الكتب ... في الحروب ... ويحبها والصلاة والادان باللغة التركية ... هذا ما دامت اللغة العربية هي كتب ... في القرآن والسنة ... واذا خول الكتاب والسنة فلا بقي من الاسلام ...

وأنتم أيها العرب من الصداري والبوبون ... اشعروا بأنكم في يد اخواتكم المتشبعين ... ولا يجعوا ... تحذيرات من خلالكم منكم أو من غيركم (ان العرب المسلمون متعصبون جنسيا ودينا أخر فلا تستغل ... لا ترى لانفسكم ... عليهم) فهذا قول عراة للجسد ... الا من يتعلل لا يعرف ... مقدمة شيء من ... فان العرب ... لتسلمين اخواتكم في الوطنية واما كان ... وسعد فيهم من يتعصب جنسيا غير أنكم أنتم أيضا أعطال هؤلاء التعصبين ... وكل من العرب التي نفسها من الاحكام ... ذات أعدادية ... يكونوا متعصبين بهذا ... كما ... وما كان ... والصداري متقدون الحكم في صاحب الاصلي ... وتعتقد كلاحقة الترك واحد ... وتعرف ... فتادي والعربي في الزاوية عند التعصبات السيء ... واعتقدوا ان هؤلاء الاجانب عن تتحكم أشر ... عليه من متعصبي العرب الجهلاء ... لانكم يتكتم الشام مع العرب ... مع اخواتكم في الوطنية والعاطفة ... ولا ... من ... صاحب ... ذاتكم مع العراق الذين ... أعداء الكم ... أعداء العرب ... الذين ... أن ... واعتقد ... أن ... ذكروا في كتاب ... قيد الله ... الذين ذكروا ... يتبع ... فكم قوتا ... حاكم ... مخلصونهم ... ويتعرفون اليكم ... ويحبونكم ويحبون حقوقكم ... اخلوا مع بني وطنكم ... ويسلم ... واعلموا ان التعصب الديني ... ولكل ... البلاد ... ويسلم ... ان ... ليس فيه التعصب ... أمر في بلاده ... وهذا اليوم هو الذي تكون فيه العبرة في أبنية ... وعقيب ... وأعداء الله ... وأحكامكم بقتلة ... وبعد ذلك ان اقتضت الحالة عمله سيئة

أيها العرب ... عموما ! اعلموا انه لا يمكن حياة فعالة تقل كل من عاقل العرب ... والاوام الاصلاح ... ومن ... الاصلاح على ... الثورة المركزية التي عليها اليمن مع الاهمية لتعاقل ... استعمال على ... الاستعمال ... ذات ... ليست دولة عربية لامركزية ... غير ... ما لكم عند الصار ... وتحكم السلاد ... الحكم ... ذي ... وكل ... عاصمة ... ما بقي يد ... وتبدأ أهميا ... ذا ... وجود بعض الجانب الزاهين من العرب الذين ... ذكروا ... ذات ... من حقوق العرب تحت أقدام أوطان الشداد الشاكرين ... وسيرى العالم ذلك عند ... يتحررون ... ويتشفون أحقدهم الامن الوطنية ... هذا بلاغ لقوم يعقلون :

أبلغ رسالتنا عن عرب واخوتهم ... فليسمعوا قبل أن لا ينفع الندب

وليسمعوا الحرمان اليوم قد صهروا ... حرا يعزى في حالاتها الحطب

يا أكرم العرب حكم ... كان أجل الجانبة راكع العرب

وتحركوا عندما قد أظلهم ... غمة ناشب لا دين ولا حسب

قد ما يشعرون وما قد سمعت به ... من الرسالة وما جاء به الكتب

فمن يكن سائلا عن أصل دينهم ... فان دينهم أن يحمل العرب

ملحق ك

ملحق ل

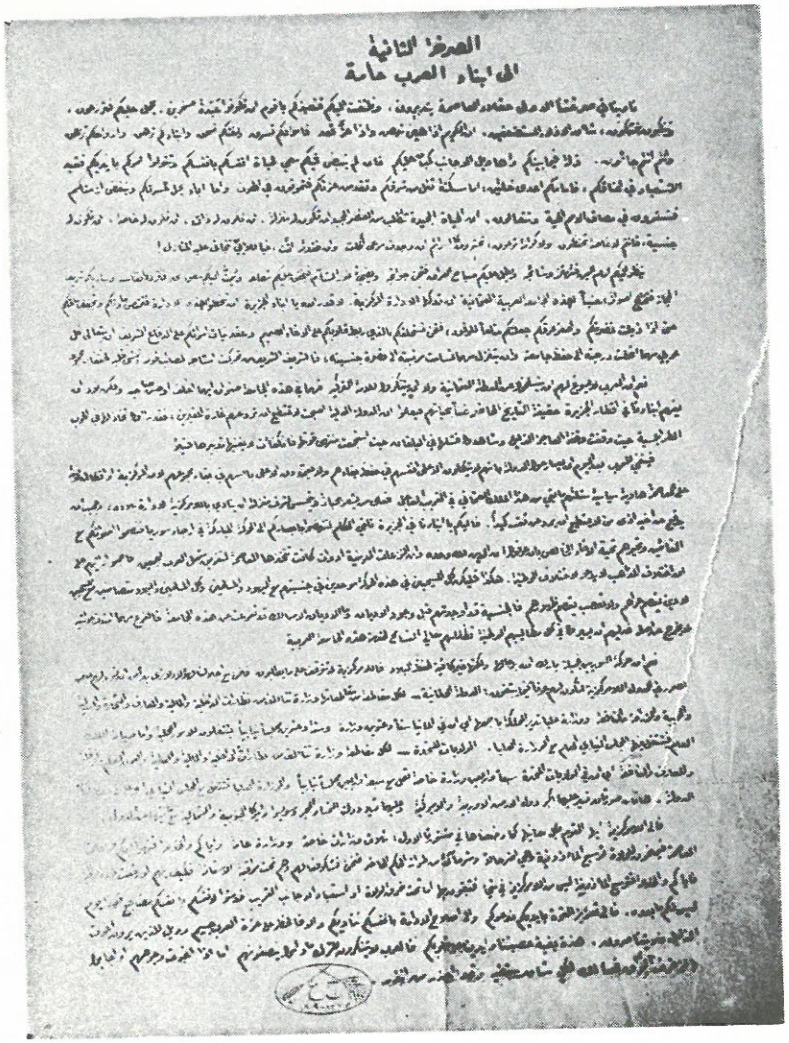

(١) ملحق م

دعوة

« الى أبناء الامة العربية »

نحن الجالية العربية في باريس قد أوقفتنا مناظرات الجرائد الأوربية ومناظر الساسة في الاندية العمومية على استقراء ماتجري من المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية ، وأخصها زهرة الوطن سوريا ، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لايعلم أن ذلك نتيجة سوء الادارة المركزية

لهذا بنا الامر الى الاجتماع ـ وعديدنا يبعد عن الثلثمائة في هذه المدينة ـ لجرى البحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الارض (المترعة بدم الآباء العظام ورفات الاجداد الابطال) من عادية الاجانب واتخاذها من صيحة التسيطر والاستبداد واصلاح أمورنا الداخلية على ما يتطلبه أهل البلاد من قواعد اللامركزية حتى يشتد بها ساعدنا وتستقيم قناتنا فينقطع بذلك خطر الاحتلال أو الاضمحلال وتنفى مذلة الرق وتختفي تأمة الاستبداد ويظهر للاعين بحياة الشعوب أننا أمة عيوف الضيم لاتستنيم لذل ولا تستكين لمسكنة

وبعد المداولة تقرر عقد مؤتمر للعرب يقوم به السوريون في أواخر شهر ايار المقادم اليه وفود أكابر من البلاد العربية وعقلاء أفاضل من السوريين المهاجرين لمصر وأميركا الجنوبية وأميركا الشمالية والبلاد الأوربية تمثل فيه الامة العربية المنتشرة في أقطار الارض وتحقق كلمة التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الامة في هذا المؤتمر حيث تبسط للامم الأوربية أن أمة مستمسكة ذات وجود حي لاينحل وذمام عزيز لاينال وخصائص قومية لاتنزع ومنزلة سياسية لاتقرع . ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا وأن حياتنا أقدس حق من حقوقنا وأن العرب شركاء في هذه المملكة ، شركاء في الحرية ، شركاء في الادارة ، شركاء في السياسة وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء أضعف .

(٢) ملحق م

ومن ثم انتخبت الجالية لجنة ادارية (وهي الموقعة على هذا) تقوم بالعمل فوضعت خطة المؤتمر وما سيجري فيه من المباحث على مشهد من أبناء الوطن الحبيب وبعض من كبار الاوربيين وممثلي الصحف الاوربية والاميركية . وهذه هي المسائل التي ستكون أساس المذاكرات :

١ ـ الحياة الوطنية ، ومناهضة الاحتلال

٢ ـ حقوق العرب في المملكة العثمانية

٣ ـ ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية

٤ ـ المهاجرة من سوريا والى سوريا

ومتى تمت المناقشات حول المؤتمر قراراته الى حيث يختم عليها التصديق وبحق التنفيذ

***

وبعد فاننا ندعو كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيراً أو كبيراً أن يلبي داعي الوطن ـ لاسيما أرباب الزعامات في مقاعد الجمعيات فعليهم نعتمد واليهم نتجه ، فاما أن يتصادوا الى وفود المؤتمر واما أن يبعثوا اليه بالرسائل البرقية أو الكتابية يظهرون فيها ارتياحهم لنيل الغاية واشتراكهم في شرف القصد حتى يعلي المؤتمر لدى الامم مجدته وتستوثق قوته بقوة أمته . وهنالك ينشق اليمين فيقال على هذه الامة جزء الحياة من بين انفاس النسق وركام الظلمات

وسلام على من تلقى هذا النور فأضاء ، ومن عرف واجبه فأداه

(لجنة المؤتمر العربي السوري)

عوني عبد الهادي نعمة مطران عبد الغني العريسي شكري غانم

جميل معلوف محمد محصاني خليل دياس جميل مردوم بك

المراسلات تكون باسم كاتب اللجنة ، وهذا عنوانه :

Abdul-Gani Araissi, 15 Rue Claude Bernard
Paris

ملحق ن

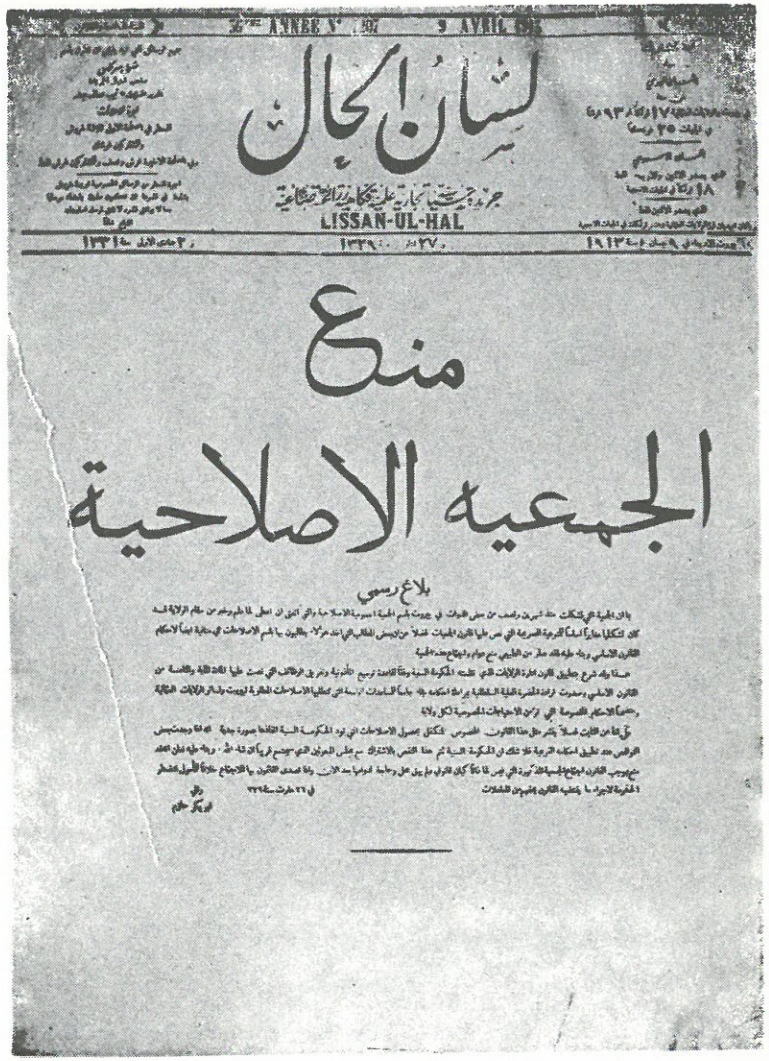

لسان الحال

جريدة سياسية تجارية علمية فكاهية أدبية اقتصادية

LISSAN-UL-HAL

منع

الجمعيه الاصلاحية

بلاغ رسمي

بلاغ بمنع اجتماع «الجمعية العمومية الاصلاحية» في بيروت ، ١٩١٣

ملحق س

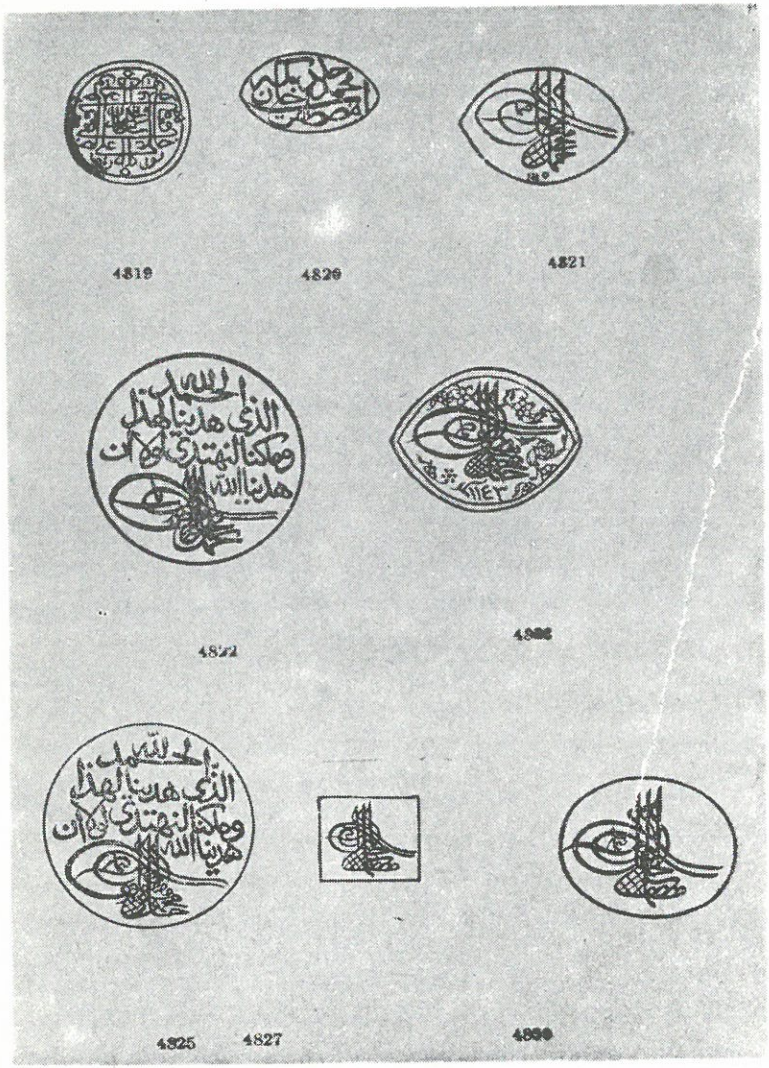

نماذج من اختام عثمانية سلطانية يظهر عليها كتابات عربية .

ملحق ع

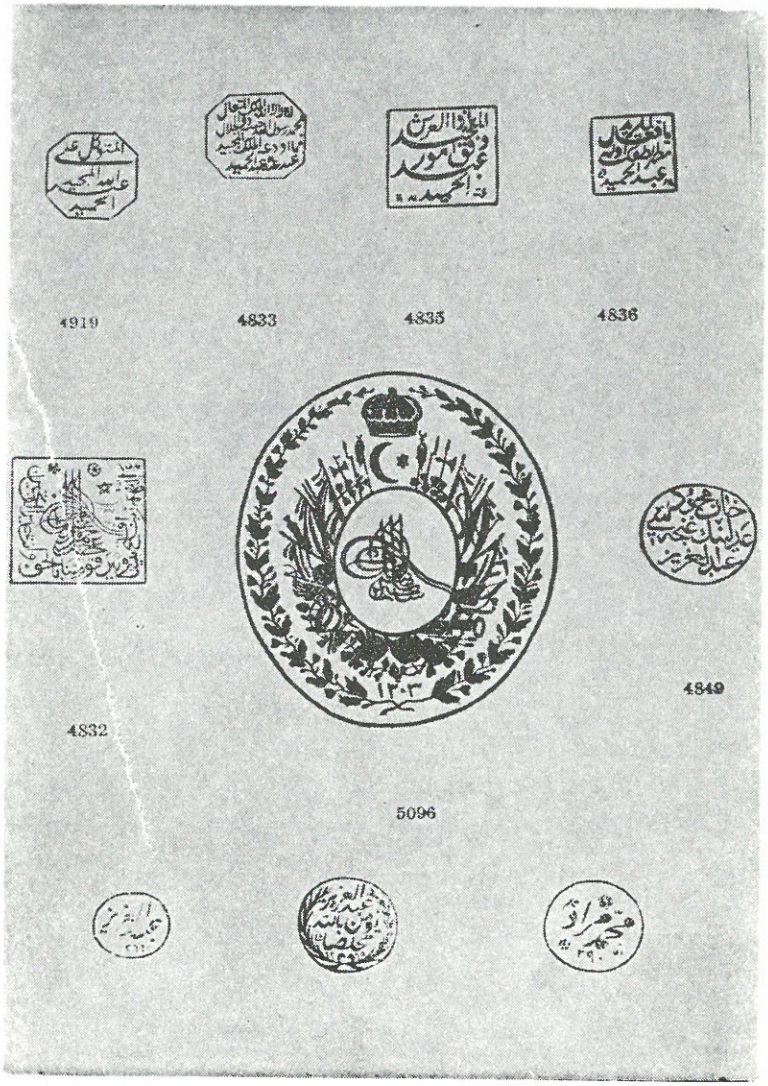

نماذج اخرى من اختام عثمانية سلطانية عليها كتابات عربية .

هوامش الكتاب

الفصل الاول

(١) « ظلت الامبراطورية العثمانية طوال القرنين السادس والسابع عشر دولة من اعظم دول الغرب واقواها ، ان لم نقل اعظمها واقواها على الاطلاق . . فقد كانت مساحتها تبلغ بضعة ملايين من الكيلومترات المربعة ، وكانت مصادر ميزانيتها أعظم وأثبت من مصادر اية دولة اوربية اخرى (بما في ذلك اسبانيا ومعادن الذهب فيها .) وكانت ادارتها الحكومية منظمة تنظيماً محكماً تهدف إلى توفير الخير العام . وكانت تثق بولاء شعبها واخلاصه لها ، ذلك الشعب الذي يعتبر الطاعة والنظام من ارفع الفضائل التي يتحلى بها المرء. اما جيشها النظامي فقد كان احسن الجيوش تدريباً ، وكانت مدفعيتها احسن مدفعية تملكها اية دولة . وكان اسطولها يسيطر على البحر الابيض المتوسط كله . فكان السلاطين يفرضون على الدول الاوربية ان تحسب لدولة قوية كدولتهم حسابها ... »

Sauvaget, J., ***Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman*** **(Paris, 1942... 1946), pp. 164-165.**

(٢) بعد موقعة نيقوبوليس (Nicopolis) ارسل السلطان بايزيد عدداً من الاسرى المدججين باسلحتهم الثقيلة إلى السلطان ظاهر سيف الدين برقوق ، سلطان مصر . وكان هؤلاء الجنود ممن وقع في الأسر في تلك المعركة . وقد استعرض الاسرى في اسواق القاهرة . كذلك فعل السلطان مراد الثاني بعد موقعة فارنا (Varna) ، فانه ارسل بعض الأسرى الهنغاريين إلى سلطان هرات في بلاد الافغان ! وقد استبقاهم السلطان في جيشه وجعل منهم « كتيبة دبابات » . وينبغي ان يكون هؤلاء الأسرى الشماليين الجبابرة في الحرب قد تركوا في نفوس المصريين والافغانيين وفي نفوس المسلمين عامة أثراً عميقاً لان العثمانيين كانوا يعتبرون حماة الاسلام . (من محاضرة للاستاذ بول وتك (**Paul Wittek**) عن الامبراطورية العثمانية القاها في كلية الدراسات الشرقية والافريقية التابعة لجامعة لندن في ٨ آذار سنة ١٩٥١) .

(٣) **Creasy Edward S.,** ***History of the Ottoman Turks*** **p. 64**

« لقد لبى نداء البابا مئة الف من اتباع الأمراء ، زهرة الفرسان الخيالة في فرنسا والمانيا ، وبعض نبلاء انكلترا وسكوتلندا وبلجيكا ولومباردى ، وجيش عظيم من فرسان القديس يوحنا ، وانخرطوا تحت لواء سيجسموند (Sigismund) غير انه في معركة نيقوبوليس (١٣٩٦) (Nicopolis) هزم الجيش العثماني القوات المسيحية ... وكان انتصار العثمانيين انتصاراً حاسماً . »

Marriott, J.A.R., *The Eastern Question* (Oxford 1917... 1947), p.66

(٤) كان سلمان السلطان العاشر من سلاطين آل عثمان . واعتلى العرش عند مستهل القرن العاشر للهجرة . لهذا السبب ولاسباب عشرية اخرى (اي ان تاريخها يقع في الرقم العاشر) لقبه شعبه « متمم العدد التام » . Creasy, p. 160

(٥) المصدر ذاته ، ص ١٩٧ . كذلك راجع Hammer, J. De, *Histoire de l'Empire Ottoman* (Transl.), (Paris, 1835),

(٦) انظر : Mattingly, Garrett, Edit., *Further Supplement To Letters, Despatches and State Papers, Relating to the Negotiations Between England and Spain, Preserved in the Archives at Vienna and Elsewhere* - (1513-1542) (London, 1940..... 1947), p. 206

(٧) انظر: Knolles, Richard and Rycaut, Paul, *The Turkish History From the Original of that Nation to the Growth of the Ottoman Empire...* Preface - "The Author to the Reader" - 6th Edition; (London, 1687).

(٨) انظر: Gibbons, H.A., *The Foundation of the Ottoman Empire* (Oxford 1916); Barthold, V.V., *Histoire des Turcs d'Asie Centrale* (Adaptation *Française* par Mme M. Donskis), (Paris, 1945); *Koprulu*, M.F., *Les Origines de l'Empire Ottoman* (Paris, 1935); Wittek, P., *The Rise of the Ottoman Empire* (London, 1938).

(٩) ان استعمال لفظة « تركي » بمعناها الحالي الشائع بدأ قبيل نهاية الامبراطورية العثمانية . واما في الأصل فقد كانت تستعمل بمعنى فلاح من بر الاناضول (كما هي في العربية) واذا اطلق احد الناس لفظة « تركي » على رجل من سكان الاستانة فانها اهانة تلحق به . انه عثماني احد رعايا الامبراطورية العثمانية.

(١٠) Koprulu, pp. 29, 33, and 78

(١١) المصدر ذاته ، ص ٥٨

(١٢) Barthold, p. 47

(١٣) انظر : Muir, Sir William, *The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall.* (London, 1899) pp. 437, 515-520. Diehl, Charles et Marçais, Georges, *Histoire Générale*, vol. III: *Le Monde Oriental de 395 à 1081* (Paris, 1944) pp. 378-379, 572-573.

(١٤) محمد بن احمد بن اياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، المجلد ٣ (القاهرة ١٣١٢ هـ .) ص ٥٨ و ٦٨ .

واذا اراد القارىء الاطلاع على اخبار فتح سوريا ومصر فليراجع المصدر ذاته وايضاً : Stripling, George W.F., *The Ottoman Turks and the Arabs.* 1511-1574, pp. 43-58. See, also Toynbee, A.J., *A Study of History*, vol. I, pp., 347-388.

(١٥) انظر : Bowen, Harold, *British Contributions to Turkish Studies* (London, 1945). p. 8.

(١٦) انظر : Stripling, p. 59.

(١٧) « ان مهمة الحفاظ على سلامة الدين الاسلامي وتقاليده ، والحرص على تطبيق شرائعه وفروضه من قبل الخلفاء تقع على عاتق جماعة تعرف بالعلماء . وهم ، في الاسلام ، اشبه بعلماء القانون عندنا . غير ان وظيفتهم مثلثة الجوانب : دينية وقضائية وعلمية . ومن بين صفوفهم يعين الملا والامام والقاضي في المحاكم الشرعية » . Gooch, G.P. and Temperly, Harold : *British Documents on the Origin of the War*, 1898-1914, vol. V, p. 6.

(١٨) المصدر ذاته . راجع ايضاً ، Young, Georges, *Corps de Droits Ottoman*, vol I ., p.6.

« وكان من صلاحياته تعيين المفتين في سائر انحاء الامبراطورية وترقيتهم . وفي عهود تالية اصبح هو الذي يعين القضاة . وتدخل دار الفتوى ضمن صلاحياته . ومن دار الفتوى تصدر الفتاوى المتعلقة بشؤون الدولة كاعلان الحرب وعقد الصلح ، او المتعلقة بالقوانين المدنية المقترحة ، او بقانون الاحوال الشخصية.

انظر: Great Britain, *Handbooks Prepared Under the Direction of the Historical Section of the Foreign Office* - No. 96 a & b, *The Rise of Islam and the Caliphate (And) The Pan-Islamic Movement*, p.31.

(١٩) كان السلاطين يعتبرون جميع حروبهم ضد الدول المسيحية حروب جهاد ، انما كان من حق شيخ الاسلام وحده اعلان الجهاد . ولا تكون الحرب جهاداً الا اذا صدر بشأنها فتوى من شيخ الاسلام .

(٢٠) راجع: Uzunçarsili, Ismail Hakki, *Topkapi Sarayi Muzesi Muhurler Sek siyonu Rehberi* (Topkapi Sarayi Muzesi Yazinlari No. 8) (Istanbul, 1959) pp. 13-20. (seal No. 4819).

تجد صور بعض هذه الاختام في ملاحق الكتاب .

(٢١) ويتك (Wittek) ص ١٤ ، ١٨ و ٤٥

(٢٢) « التعليل الشائع في يومنا هذا لهذه القضية هو ان الخليفة المتوكل تنازل بطريقة رسمية عن الخلافة وسلمها إلى السلطان سليم . لكن ليس لدينا اي مصدر معاصر يذكر هذا الامر»... Arnold, Sir Thomas W., *The Caliphate* (London, 1924), pp. 142- 143.

(٢٣) « بما ان الخلافة كانت في قريش فان انتقالها إلى السلطان العثماني كان امراً يصعب تبريره ، لذلك افتى العلماء المتساهلون بانه يجب ان يكون للمسلمين امام ، وان تكون الخلافة من حق حاكم قوي يستطيع ان يقوم بوظيفة الخلافة – وهي حماية الدين والدولة – بحسب ما ورد في القرآن الكريم ، سورة النساء ، الآية ٥٨ : « يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » .
Foreign Office, *Handbooks*. No. 96 a & b. - *The Rise of Islam and the Caliphate - The Pan - Islamic movement*, pp. 43-44.
تبدأ الفتوى التي اصدرها شيخ الاسلام ، عبد الرحيم افندي ، في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ – ١٧٣٠) هكذا : « بادشاه اسلام الذي ستبقى خلافته إلى يوم الدينونة ... » راجع : Document XXII in *Topkapi Sarayi Muzesi Arsivi Kilavuzu*,vol., II (Istanbul, 1940).
اما فيما يتعلق باول مرة لقب فيها السلطان التركي بأمير المؤمنين فان هـ . أ . ر . جب (H.A.R. Gibb) يقول : « انها ترد للمرة الأولى في « وقف نامه » التي نشرت مؤخراً في استانبول . وفيها يلقب السلطان بأمير المؤمنين وامام المسلمين ، سيد الغزاة والمجاهدين المؤيد بتأييد رب العالمين ، شمس سماء السلطنة والخلافة والدولة والدنيا والدين ، ابو الفتح والنصر السلطان محمد خان» .Gibb, H.A.R., *Studies on the Civilization of Islam* (edited by S.J. Shaw and William R. Polk, Boston, 1962),

(٢٤) « عندما كان يتسنم سلطان عرش الامبراطورية العثمانية كان يقلد سيف عثمان ، الجد الأعلى لآل عثمان . وكانت الحفلة التي يماثلها في الغرب تنصيب الملوك المسيحيين في اوروبا – تقام في مسجد ايوب القائم عند طرف القرن الذهبي خارج اسوار اسطنبول . وكان رئيس الدراويش المولويين ، ويسمى جلبي افندي ، هو الذي يقوم بمراسم الحفلة » .
راجع : Pears, Sir Edwin, *Forty years in Constantinople*
تبدأ معاهدة الخامس والعشرين من شهر شباط ، سنة ١٥٩٧ ، المعقودة بين هنري الرابع ملك فرنسا والسلطان محمود الثالث هكذا : أنا السلطان الذي بفضل نعم الله وآلائه التي لا تحصى ، وبفضل قوة الخالق العظيم ، وبفضل معجزات نبيه الاعظم ، امبراطور الاباطرة الظافرين ، موزع التيجان على اعظم ملوك الارض ، خادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وحاكم القدس الشريف وحاميها ... سيد البحار البيضاء منها والسوداء ... » France, *Ministère des Affaires Etrangères - Turquie*, Vol. I (1494-1644).
وفي نص اتفاقية الامتيازات التي منحت سنة ١٦٧٥ يتكلم السلطان محمود الرابع عن نفسه بقوله : « انا السلطان ، اعظم ملوك الدنيا وسيدها ، الذي تخشى الارض اسمه ، موزع تيجان الكون باسره ، السلطان محمود خان ... هذا الباب العالي الامبراطوري ملاذ امراء الدنيا وملجأ ملوك الكون » .
- Hinckley, Frank E., *American Consular Jurisdiction in the*

Orient (Washington, D.C. 1906) p. 7.
(٢٥) ان اليونانيين المحدثين سموا عاصمتهم باسم مشوه الاصل : « استانبول » . اما الاتراك فقد غيروا الاسم إلى « اسلامبول » (اي « مستودع الاسلام ») –
Mazas, Alexandre, *Les Hommes Illustres de l'Orient*, Vol. II (Paris 1847) ص ٣٨٣
(٢٦) يشير القس وليم جويت (William Jowett) مؤلف كتاب Christian *Researches in the Mediterranean* (لندن ١٨٢٢) صفحة ٤٢١ ، إلى رسالة كتبها القس جايمس كونر (James Connor) في ٢٣ شباط من سنة ١٨٢٠ يقول فيها : « يخبرني قنصلنا في بيروت ان عدد سكانها عشرة آلاف نسمة ، منهم ثلاثة آلاف تركي والباقون مسيحيون ينتمون إلى مختلف الطوائف » . لا شك ان لفظة « تركي » هنا تعني « مسلم » لان عدداً قليلا جداً من الاتراك يقطنون اقطاراً عربية داخلة في امبراطوريتهم العثمانية .
(٢٧) نكتفي بذكر بعض الامثلة البارزة ، منها ما قاله الجنرال علي فؤاد باشا جبسوي (Cebesoy) للمؤلف من ان الجنود العرب من دمشق وحلب والقدس برهنوا على جدارة عظيمة في ساحات الحرب . فانهم قاموا باعمال بطولية في معركة يلقنا (Plevna) تحت قيادة عثمان باشا بين شهر تموز وكانون الاول سنة ١٨٧٧ . كذلك في سنة ١٩١٥ في موقعة غاليبولي (Gallipoli) ، وفي سنة ١٩١٦ في رومانيا في معركة ارغوستولي (Argostoli)
(٢٨) As-Sa'id, General Nuri, *Arab Independence and Unity* (Baghdad, Government Press, 1943), p. 2.
(٢٩) Gibb and Bowen, Vol. One, Part I, p. 160.
(٣٠) انظر المصدر ذاته ص ، ٢٨١
(٣١) راجع مقالة برنارد لويس "Islamic Revival in Turkey" في مجلة *International Affairs* الجزء ٢٨ ، العدد الاول ، كانون الثاني ١٩٥٢ ص ٤٧. (الناشر : Royal Institute of International Affairs, London)
راجع كذلك سليمان فيضي – في غمرة النضال ، مذكرات سليمان فيضي ، ص ٢٠٨ – ٢١٩ ، امين شاكر ، سعيد العريان ومحمد مصطفى عطا – تركيا والسياسة العربية ص ٥ – ٨ و ٩٠ – ٩١ ، محمد جميل بيهم – العرب والترك ص ٨٠ ، عبد الكريم محمود غرايبه – مقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ – ١٩١٨ (دمشق ١٩٦٠) الجزء الاول ، ص ٨٨٩ – ٨٩ ، العرب والاتراك – المقدمة و ص ٢٨١ – ٢٨٣ .

الفصل الثاني

(١) راجع : عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية « (اسطنبول ١٣٠٩ هـ) الجزء الاول ص ٢٨١ – ٣٠٠

كذلك Gibb and Bowen, *Islamic Society and the West* Vol. One, Part I,pp. 107-199, and Vol, One, Part II, pp. 70-113, and Lybyer, A.H. *The Government of the Ottoman Empire in the times of Suleiman the Magnificent* pp. 146-226.

(٢) Arnold, Sir Thomas and Guillaum A., Edits) *The legacy of Islam* (London, 1931 — 1943) p. 286

(٣) « ...اما فيما يتعلق بالمذهب الحنفي في الامبراطورية العثمانية فقد تم جمع الشرائع وتفاسير اشهر علماء هذا المذهب وتعديلها بشكل نهائي لا يتغير ولا يتبدل في القرن الخامس عشر والسادس عشر عندما صنف كتابان يحتويان على اشهر آراء علماء الحنفية ، وهما كتاب « اللآلىء » و « مجمع البحار » Gibb and Bowen ص. ٢٢و٢٣

(٤) « كان المجتمع العثماني ينقسم إلى فئات معينة محددة ، انتماء الفرد إلى هذه الفئة او إلى تلك هو العامل الذي يوحد العلاقة بينه وبين الدولة . اذن ، لتحديد الواجبات المترتبة على هذه العلاقة القائمة بين الفرد والدولة من جهة المتوجبات والاحوال الشخصية والرواتب والألبسة وغيرها كان السلطان ذاته يصدر الاحكام التي تنظم هذه الامور . وهذه الاحكام تسمى « قانون » . المصدر ذاته ص ٢٣ . راجع ايضاً Lybyer ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٥) للاطلاع على المزيد من المعلومات حول قوانين الامبراطورية العثمانية راجع : Young, Georges, *Corps de Droit Ottoman* في سبع مجلدات

(٦) Khairallah, Ibrahim A., *The Law of Inheritance in the Republics of Syria and Lebanon* (Beirut, 1941) p. 149

(٧) ومن الطريف ، بهذا الصدد ، ان نشير إلى السياسة التي كانت تتبعها انكلترا في الهند : « كانت سياسة بريطانيا في الهند ، فيما يتعلق بالمسلمين ، تقوم على اساس تطبيق الشريعة الاسلامية على المسلمين . وهذه السياسة التي اتبعتها انكلترا انما تبنت التقليد المغولي عندما حكم المغول بلاد الهند . اذ طبقوا القوانين الاسلامية على المسلمين ، كما انهم طبقوا القوانين الهندية على الهنود من غير المسلمين ، لكي يضمنوا لكل من الفريقين حرية ممارسة دينهم » .
Fyzee, Asaf A.A., Outlines of *Muhammadan Law* (Oxford University Press 1949), p. 42.

(٨) تقدمت التجارة مع الشرق ، في العصور المتوسطة ، بفضل الامتيازات التي كانت تمنح للجاليات الاجنبية التي كانت تقطن بعض احياء المدن الكبرى واهمها حيث كان يسمح لهم ان يديروا شؤونهم بانفسهم . وهذا النظام ، نظام الامتيازات ، كان نظاماً تتبعه الدولة البيزنطية وكذلك الصليبيون في الدويلات التي أنشأوها في الشرق الادنى... « Cahuet Alberic, *La Question d'Orient dans l'Histoire Contemporaine*, 1821 - 1905 (Paris, 1905) p. 5.

(٩) « كان على السلطان (السلطان محمود الثاني) ان ينظم القضاء بالنسبة لرعاياه من

غير المسلمين الذين كانوا يشكلون غالبية السكان في امبراطوريته الجديدة . وقد تم له ذلك بعقد سلسلة اتفاقيات مع رؤساء مختلف الطوائف . فقد منح المسيحيين حرية العبادة والمعتقد ، وتطبيق شرائعهم الخاصة بهم ، واصول محاكماتهم القضائية . وفي الاستانة منح بطريك الروم الارثوذكس الصلاحيات التامة ، باعتباره القاضي الأول الذي له ان ينظر في جميع الشؤون المدنية والحقوقية المتعلقة بطائفته . كذلك منح الارمن امتيازات مشابهة للامتيازات التي منحها للروم الارثوذكس.» De Rausas, Plissie, *La Regime des Capitulations dans l'Empire Ottoman* (Paris, 1910), p. 10, cited in Ibrahim A. Khairallah's *The Law of Inheritance in the Republics of Syria and the Lebanon*, n. 45, p. 50,

« لقد حرص محمد الفاتح على مراعاة شعور رعاياه من غير المسلمين إلى مدى بعيد حتى انه بعد فتحه القسطنطينية ، دعا اكليروس الكنيسة الارثوذكسية لتنتخب بطريركاً مسكونياً . وكان هذا اول تدبير اقره بعد دخوله الاستانة . وعندما قدموا للسلطان جورج سكولاريس (George Scholarius) كمرشح وقع الخيار عليه ، حرص السلطان على ان يصدق على انتخابه بالطريقة ذاتها وبالمراسم ذاتها التي كانت تتبعها الامبراطورية الرومانية الشرقية » . Toynbee, vol. VI p. 203, n. 4.

(١٠) اما نص الامتياز الممنوح فقد كان باللغة الاغريقية ، وفي اعلى النص طغراء السلطان محمود الثاني — الفاتح — وفي اسفله ، بالحروف العربية توقيع«زغنوس»

(١١) سنة ١٥٣٥ كان السنيور ده لا فوره (Le Sr. de la Forest) اول سفير لفرنسا لدى الباب العالي الذي حصل ، سنة ١٥٣٥ ، على امتياز جزيل النفع لفرنسا من قبل جلالة السلطان سليمان . وفي سنة ١٥٣٧ افلح هذا السفير في عقد معاهدة من شأنها توثيق العلاقات بين بلاده وبين السلطان » . France-Ministère des Affaires Etrangères-*Turquie*, 1451 à 1643, *Supplément*, Vol. I

في سنة ١٥٩٣ كتب ملك فرنسا ، هنري الرابع إلى السلطان مراد الثالث يتوسل اليه الا يعطي اذناً صاغية لمن يجيئه من قبل ملك اسبانيا الذي كان يشن حرباً عدوانية ظالمة ضد ملك فرنسا . وفي هذه الرسالة يخاطب هنري الرابع السلطان بقوله : « إلى السلطان خليفة المسلمين مراد خان ، السلطان المعظم ، القادر ، الفاضل ، الكريم الظافر الذي لا يقهر صاحب المجد والفضيلة — صديقنا العزيز الودود ...» المصدر ذاته .

وفي ٢٥ شباط من سنة ١٥٩٧ جددت المعاهدة (الامتيازات ١٥٣٥) المعقودة بين هنري الرابع « امبراطور فرنسا » والسلطان محمد الثالث « امبراطور المسلمين » . وفي هذه المرة منح ملك فرنسا امتياز جديد وهو ان سفير فرنسا يحظى بالاسبقية على جميع السفراء في الاستانة ، وعلى الخصوص سفير ملك اسبانيا .

(١٢) Toynbee, vol. II, p. 181, n. 2

(١٣) ...وقد كتب نيفن كر (Niven Kerr) إلى ايرل ابردين (Earl of Aberdeen) من قبرص في ٦ آب ١٨٤٤ يقول : « سيدي ... يجدر بي ان اذكر لسيادتكم ان القنصلية البريطانية هنا هي القنصلية الوحيدة التي ليس عندها سجن خاص بالقنصلية ... واني بكل احترام اتوسل إلى سيادتكم ان تسمحوا لي ببناء سجن صغير بالقرب من القنصلية حيث يمكن توقيف الرعايا البريطانيين فيه، تبعاً للتعليمات التي وردتني مؤخراً ... وسجن صغير لائق يمكن بناؤه هنا بما لايزيد عن ثلاثين ليرة استرلينية ... » - Great Britain, Foreign Office (F.O.) 78/580 - *Turkey*, Despatch No. 13 -

« ومما زاد مشكلة القضاء والادارة تعقيداً شديداً الامتيازات التي منحت للاجانب والتي بموجبها نالت الدول العظمى امتيازات تخولها ان يكون لها محاكم خاصة ، ودائرة بريد خاصة ، وامتيازات اخرى . » Seton - Watson, R.W., *The Rise of Nationality in the Balkans* (London, 1917) p. 101

(١٤) Lybyer, p. 173

(١٥) « كان سكان بعض المناطق الجبلية في البانيا وكردستان والصحراء العربية يقعون اسمياً ضمن الادارة الحكومية التركية ، لذلك فلم يخضعوا الا خضوعاً قليلا للاتراك ، بل ظلوا على ما كانوا عليه من نظام قبلي قديم على رأسه شيخ وراثي منحه الاتراك حقوقاً وامتيازات لقاء خدمات عسكرية يؤديها . وكان لاتباع الشيخ ان يدفعوا بعض الضرائب ، كما انه كان من الممكن الا يدفعوا » . المصدر ذاته ، ص ٣٠ .

(١٦) انظر : مار اسطفان الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية (بيروت ١٨٩٠) ص ١٥٢ – ١٥٣ وتاريخ الامير حيدر احمد شهاب (القاهرة ١٩٠٠) الجزء الاول ، ص ٥٦١ – ٥٦٢ .
كذلك راجع Hitti, Philip, K., *Lebanon in History* (London, 1957) ص ٣٥٧ – ٣٥٩

(١٧) Young, Vol. I. p. 224

(١٨) Gibb and Bowen, p. 200

« وأخيراً ينبغي لنا ان نذكر هذه الحقيقة وهي ان الاتراك قلما كانوا يفرضون شرائعهم وقوانينهم على اهل الولايات الجديدة الداخلة ضمن اطار امبراطوريتهم ، بل كان الأمر على نقيض هذا . اذ كانوا يحرصون على الابقاء على المؤسسات القديمة القائمة في البلاد حرصاً منهم على تجنب اي تدبير من شأنه ان يقوض المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في تلك البلاد – ما دامت سيطرتهم العسكرية والسياسية مضمونة . » - Manstram, Robert; et Sauvaget, Jean, *Les Provinces Syriennes*, Réglements Fiscaux Ottomans - (Beyrouth, 1951), Introduction, p. X.

(١٩) Young, Vol. II pp. 223-229.

(٢٠) راجع كتاب الدكتور المحامي صبحي محمصاني : الاوضاع التشريعية في الدول

العربية ، ماضيها وحاضرها ، ص ١٧٤ – ١٨٠

(٢١) كانت المحاكم النظامية تتألف من محاكم بدائية واستئنافية ، محلية واقليمية ، ويلحق بها محكمة للنقض والابرام في استانبول للنظر في القضايا الجزائية وكانت محكمة الاستئناف تتألف أيضاً من ثلاث غرف ، كل غرفة منها تعنى بناحية : الجزاء ، والحقوق ، والتجارة . وقد فصلت المحاكم التجارية البدائية والاستئنافية عن صلاحية وزارة التجارة والحقت بوزارة العدل » .
Great Britain, F.O. 371/345 - "Extracts from the Annual Report for Turkey for the year 1906" - cited in Gooch, G.P. and Temperly, Harold, *British Documents on the Origins of the War*, 1898-1914, Vol. V, P. 3

(٢٢) صبحي محمصاني ، الاوضاع التشريعية في الدول العربية ، ماضيها وحاضرها ص ٩ .

(٢٣) Gibb and Bowen, p. 201 وكان إلى جانب هؤلاء الموظفين في ادارة الولايات موظفان آخران يشغلان وظيفتين هامتين وهما الدفتر دار وهو ضابط الحسابات ، والكتخودا (وقد تحرف الاسم إلى كخيا او كيخيا) وهو الناظر العام الذي يعين على اساس سنوي وكانت صلاحيته تصريف سائر الشؤون الادارية الاخرى . اما « القاضي وسائر رجال الدين » : فكانوا يديرون شؤون القضاء بموجب الشريعة الاسلامية . وكان يحق لهم « ان يبعثوا بالاعتراضات والمذكرات التي ترفع اليهم إلى الاستانة » . (المصدر ذاته)

(٢٤) للاطلاع على المزيد من التفاصيل المتعلقة بهذه القوانين والوحدات الادارية راجع : Young, Vol. I, pp. 29-69

(٢٥) Farley, J. Lewis, *The Resources of Turkey* p. 5
اما فارلي فيعطي احصاء السكان على الشكل التالي : الموصل ٦٥,٠٠٠ بغداد ١٠٥,٠٠٠ حلب ١٠٠,٠٠٠ بيروت ٥٠,٠٠٠ دمشق ١٨٠,٠٠٠ .
كانت ولاية حلب تضم اربعة سناجق : سنجق مرعش واورفا والزور وحلب .
وكان عدد الايالات في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية في اثناء القرن السادس عشر وعند مطلع القرن السابع عشر يتراوح بين ٣٥ – ٣٦ ايالة ، وفي الربع الاخير من القرن السابع عشر كان عددها ٣٩ – راجع Gibb and Bowen p. 142.

(٢٦) « وكان المتصرف ، بحكم الضرورة ، مسيحياً . وكان هنالك مجلس ادارة يتألف من اثني عشر عضواً : اربعة عن الطائفة المارونية وثلاثة عن الدروز واثنين عن الروم الارثوذكس وواحد عن الروم الكاثوليك وواحد عن المسلمين السنيين وواحد عن الشيعة (المتاولة) . وكان سنجق لبنان يقسم إلى سبعة اقضية ، اربعة منها للموارنة وواحد للروم الارثوذكس وواحد للروم الكاثوليك وواحد في الشوف . وكان رئيس الشرطة دوماً مارونياً . وكان لهذا السنجق

نظام ضرائبي خاص به » . Great Britain, Admiralty-*A Handbook of Syria (including Palestine)*, p. 243. See also Great Britain, Foreign Office, *Correspondence Relating to the Affairs of Syria*, 1860 - 61 Part II, p. 314.

(٢٧) للاطلاع على نص البروتوكول بكامله راجع Young, vol. I, pp. 139-154. وراجع ايضاً لحد خاطر ، عهد المتصرفين في لبنان (من منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٤) بيروت ١٩٦٧ ، ص ٩ — ٢٥

(٢٨) لمعرفة اهمية قانون التجنس العثماني راجع غالي ، بول *Les Nationalités de l'Empire Ottoman à la suite de la guerre*, (Paris, 1934), pp. 61-71.

(٢٩) وجدير بالذكر ان العهد القديم يشير إلى الله انه الراعي وان شعبه هو الرعية . وفي العهد الجديد يقول يسوع عن نفسه انه هو « الراعي الصالح » .

(٣٠) كان ب . رزيس (P. Rizzis) رجلا مالطياً يسكن في مدينة بورت سعيد ، (وهي تقع في ارض عثمانية) واراد ان يغير جنسيته البريطانية إلى جنسية عثمانية . وعندما نظر القنصل البريطاني في امر طلبه بعث الى وزارة الخارجية البريطانية برسالة يقول فيها : « كل انسان في الدولة العثمانية هو اما من رعايا السلطان او تحت حماية قنصل ما من قناصل الدول الغربية . وهكذا فانني اذا رفعت الحماية القنصلية عن السيد رزيس واخبرت الحكومة المصرية عن هذا التدبير فانه يصبح حالا من رعايا السلطان ويبقى كذلك إلى ان يطلب حماية قنصلية اخرى. » F.O. 78/5238 - *Turkey - Egypt* - Letter of D.A. Cameron, British Consul in Port-Said, dated June 10,1902,to the Marquess of Lansdowne.
راجع ايضاً المنار ، الجزء ١٧ ، قسم ٧ ، ٢٣ حزيران ١٩١٤ ، ص ٥٣٤ — ٥٣٩ .

(٣١) أهمل استعمال كلمة « رعية » واستعيض عنها بلفظة « تبعة » وكان كثيرون من المسيحيين يسعون للاستخدام في قنصلية أجنبية ، أو في سفارة اجنبية في الامبراطورية العثمانية — وكان مثل هذا الاستخدام يعتبر امتيازاً رفيعاً — لكي يصبح من جملة الذين تشملهم الحماية القنصلية . راجع Francis, La *Protection diplomatique et consulaire dans les Echelles du Levant et de la Barbarie*, (Paris, 1899).

(٣٢) Chévrillon,André,*conference sur la Syrie* (*Rown*,(Rown,1897),p.18.

(٣٣) Great Britain, Foreign Office, *Correspondence Relating to the Affairs of Syria*, 1860-61, Part II, p. 191.

(٣٤) كان الاتراك يسمون بطاركة الطوائف المسيحية المختلفة « ملة باشي » : اي رئيس الملة او الأمة .

(٣٥) Paris, Archives du Ministère des Affaires Etrangères, *Turquie-Beyrouth* - 1888, Despatch No. 13 of March 25, 1888: "Notes sur

la Syrie"
ومن جملة الامور التي كان على العثماني ان يذكرها في هويته الملة التي ينتمي اليها (المذهب) .

في١٩ آب ١٨٥٦ بعث السيد دي لسيبس (E.de Lesseps)، قنصل فرنسا العام في سوريا تقريراً ضمنه مقتطفات من رسالة بعث بها اليه نائب القنصل العام في طرابلس ، السيد بلانش (Blanche) . يقول بلانش : « من ابرز الحقائق التي يلحظها من يريد درس هذه البلدان المكانة التي يحتلها الدين في نفوس الناس والسلطة التي لها في حياة الناس . فالدين يظهر في كل امر وفي كل مكان في المجتمع الشرقي . يظهر أثر الدين في الاخلاق العامة ، وفي اللغة ، وفي الادب ، وفي جميع المؤسسات الاجتماعية . والرجل الشرقي لا ينتمي إلى وطن ولد فيه — الشرقي ليس له وطن — بل إلى الدين الذي ولد فيه . وكما ان الرجل في الغرب ينتمي إلى وطن فانه في الشرق ينتمي إلى دين . وامة الرجل الشرقي هي مجموعة الناس الذين يعتنقون الدين ذاته الذي يعتنقه هو ، وكل فرد خارج عن حظيرة الدين هو بالنسبة اليه رجل اجنبي غريب » . Paris, Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Turquie, Vol. II - No. 32.

(٣٦) نشأت الامبراطورية العثمانية ، اول ما نشأت ، على نقيض ما تنشأ عليه الدولة القومية . فانها لم تعرف باسم شعب يقطن ارضها بل سميت باسم الامير مؤسسها : عثمان . نعم ، كان عثمان وكانت قبيلته اتراكاً ، لكنهم كانوا اتراكاً من جملة قبائل تركية تربو على الاثنتي عشرة قبيلة ضاربة في بلاد الاناضول . وكان جيرانهم من الاتراك اشد الناس عداوة لهم وأعنفهم منافسة وخصومة ...
« وقد كانت محاولة تنمية الوجدان القومي عند الاتراك تقليداً واتباعاً للحركات القومية في اوربا ، وكانت إلى حد ما استجابة للظروف والاحوال ذاتها التي كانت سائدة في تركيا ...» Great Britain, *Handbooks Prepared under the Direction of the Historical Section of the Foreign Office*, No. 96 c & d, *The Rise of the Turks - the Pan-Turanian Movement*, pp. 16-17.

الفصل الثالث

(١) « في عهد السلطان محمود ، وفي اوائل عهد السلطان عبد الحميد كانت تركيا اشبه بمركب ينبغي تجديد قعره ، وسواريه ، واشرعتهو ، بحارته. هذه هي الصورة التي كانت تظهر بها تركيا . »
Engelhardt, Ed., *La Turquie et le Tanzimat* pp. 4-5

(٢) ينبغي الا نفترض انه لم تطرأ تغييرات بين سنة ١٨٣٩ و ١٨٧٦ في الامبراطورية

العثمانية . كانت الحياة في اوربا تمر في تغييرات وتطورات عظيمة . فاستحال البطء والتمهل اللذان كانت تتميز بهما الحياة في القرن الثامن عشر إلى تقدم سريع قوامه التصنيع والتقنية وانتشرت بين الناس عقائد سياسية جديدة اوحت بها الثورة الافرنسية . وبعض هذه الافكار الغربية والازياء المستحدثة والاساليب الجديدة في العيش وصلت شواطىء البوسفور وضربت الشواطىء الغربية في آسيا الصغرى والشرق الادنى . وفضلا عن هذا فان احمد امين ذكر في كتابه تركيا في اثناء الحرب العالمية (ص ٢٦) « في سنة ١٨٤٨ ، فترة الثورات في اوربا ، وصل إلى تركيا جملة صالحة من الرجال الافاضل الاقوياء » . ويتابع الدكتور امين كلامه فيقول : « انهم جاءوا لاجئين ورفضت تركيا تسليمهم بالرغم من ان النمسا وروسيا هددتا بالحرب في حالة تسليمهم . وكثيرون منهم تجنسوا بالجنسية التركية والتحقوا كموظفين في الحكومة التركية . » وهكذا ازداد نقاط التماس مع العالم الغربي . ولكن غزو الحضارة الغربية الامبراطورية العثمانية ، في تلك الفترة بالذات ، كان اقرب ان يكون تقليداً سطحياً للمظاهر الخارجية لحضارة الغرب. وقد كتب Panaretoff في كتابه الموسوم *Near Eastern Affairs & Conditions* (new Haven, 1922, p. 130) ما يلي : « لقد وجدت العادات الغربية واساليب العيش الحديثة طريقها إلى عاصمة تركيا . واصبح السلطان بزيه الاوربي مثالا يقتدي الناس به في الملبس . وراح يولم الولائم في قصره ويحيي الحفلات الموسيقية والحفلات الراقصة كما يفعل اي ملك اوربي ». هذه الامور وغيرها من مظاهر الحضارة الغربية السطحية غزت العاصمة كما انها غزت اماكن اخرى في البلاد . ولكن لا ينبغي لنا ان نخلط بين هذه الامور السطحية وبين الاصلاحات العميقة التي كان يفكر بها رجال امثال رشيد باشا ومدحت باشا . كلاهما كانا يطالبان بالاصلاحات الدستورية التي لها مغزى ابعد من هذه الامور . كانا يطالبان بتبني النظام الدستوري الغربي في الحكم ، ذلك النظام الذي يقول مدحت باشا فيه « انه العامل الاول في تقدم الشعوب ورقيها ». ويضيف قائلا : « ولان تركيا تعتبر في مصاف الدول العظمى ، عليها ، اذا ارادت ان تحتفظ بهذه المكانة واذا رغبت في مواكبة سائر الدول على قدم المساواة في مضمار التقدم العلمي ، ان تتبع الانظمة ذاتها التي تتبعها الدول العظيمة . »

Midhat, 'Ali. Haydar, *The life of Midhat Pasha*, p. 80

راجع كذلك : Karal, Enver Ziya, *Osmanli Tarihi*, VI cilt: *IslahatFer-mani Devri*, 1856-1861 (Ankara, 1954); Contenson, Baron Ludovic de, *Les Réformes en Turquie d'Asie, La Question Arménienne La Question Syrienne;* Bailey, Frank Edgar, *British Policy and the Turkish Reform Movement*, 1826 - 1853; and Davison, Roderic H., *Reform in the Ottoman Empire*, 1856-1876 (Princeton University Press, 1963)

(٣) سركيس ، سليم : سرمملكة ، ص ٥ :

« عندما وطدت الحكومة العثمانية عزمها على ان تضع الامبراطورية على اسس جديدة لم تكن مخلصة في تصريحاتها تمام الاخلاص ولم يكن لديها صورة واضحة عن الاصلات وكيف يجب ان يكون عليه. نعم انها أعلنت عن اصلاح شامل جذري ولكن غايتها لم تكن اعادة الحياة الناشطة إلى تركيا بقدر ما كانت رغبة منها لكسب الرأي الاوربي العام . ولم يكن همها سن الشرائع والقوانين بقدر ما كان يهمها ان تحبر المقالات الصحفية عن مثل هذه القوانين . وعليه فقد كان الإصلاح المنوي تحقيقه امراً مفاجئاً وأبعد تحقيقاً مما كانت الحكومة تستطيع ان تحققه ، ولذا وجدت نفسها حيرى في خضم من التشريعات العصرية ، وساد الشك بين انصار القديم والحديث ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يترددون بين هذا وذاك . ومنذ برهة وجيزة قال لي احد الباشوات : « ماذا عساني ان افعل ؟ انني والي على ولاية فيبعث الي الصدر الاعظم بتعليمات وأوامر مبنية على النظرة العصرية التي نصرح باننا نؤمن بها . ولكن شيخ الاسلام يشكو مني لاني لا اطبق القوانين القديمة التي هي في نظره قوانين مقدسة . وهكذا اشعر ان القديم والجديد لا يلتقيان ، اذ انهم يطلبون الي ان أبقي على القديم ، ولكنهم يطلبون ايضاً ان أغلفه بلباس جديد . لذا تراني حائراً لست ادري ماذا أصنع » .

Sir Henry Bulwer, British Ambassador in Constantinople, in a Raport on "the Finances of the Turkish Empire," August 1861 - cited by Madden, Richard Robert in the *Turkish Empire*, pp. 407-408.

وفي شهر ايلول ، سنة ١٨٣٠ كتب السيد ميشو (Michaud) من بيرا (Pera) في اسطنبول عن موضوع الاصلاح في تركيا (*La Réforme en Turquie*) يقول : « لإقامة حضارة ما على المرء ان يدرك اولا ما هي. الحضارة هنا شيء مجهول لا يعرف المرء كنهه . انها عالم جديد مجهول . وانه من العسير على المرء ان يتجه في سيره نحو هدف يجهله . واعسر من هذا ان يسرع المرء في خطاه نحو هدف وهو لا يعرف على وجه اليقين في اي اتجاه يسير . والواقع انه ليس هناك من هدف معين لانه ليس هناك من ايمان به ولا اقتناع بخطورة شأنه . فان السلطان نفسه لا يؤمن بثورته . ومن هنا كان هذا التردد الذي يشبط كل عزم وتصميم ومن هنا كان التخلي عن مشاريع الإصلاح » .

Poujalet, M., *La France et la Russie à Constantinople* (Paris, 1853) pp. 148-149.

(٤) Temperley, Harold, *England and the Near East, The Crimea* (London, 1936), "Foreward", p. VII.

(٥) المنار ، المجلد السابع عشر ، الجزء السابع ، ٢٣ يونيو ١٩١٤ ص ٥٣٤

(٦) راجع الرسالة الخالدة (القاهرة ١٩٤٦) ص ١٠٥ و ١٤١

(٧) راجع : Gibb and Bowen, vol. one, Part I, p. 159.

(٨) المصدر ذاته: «الاسلام دين بطبيعته لا يشجع على نشوء القومية . فإن خصائصه الامية من شأنها ان تخفف من حدة الفلسفة العرقية والاختلافات الحضارية التي قد

تتحد فتصبح على مر الزمن خصائص ومميزات قومية مستقلة ... ان القاسم المشترك الوحيد في العالم العربي (في العهد التركي) كان اللغة وسيطرة تركيا على الدول العربية واخضاعها لحكمها . فان السوريين والمصريين ، البدو والفلاحين ، المثقفين والعامة من الناس كانوا فئات تفرق بينها العادات والافكار والتقاليد فلم تكن في وضع اجتماعي تشعر معه انها تؤلف وحدة ، اللهم اذا استثنينا رابطة الدين . » Dodwell, H., *The Founder of Modern Egypt*, pp. 127-128.

(٩) Toynbee,A.J. and Kirkwood, K.p.,*Turkey* (New York, 1927) p.42

(١٠) Raymond, Jean, *Mémoire sur L'origine des Wahabys, sur la naissance et sur L'influences dont ils jouissent comme nation* (1806). (La Société Royale de Geographie d'Egypte, 1925), p. 34.

(١١) رستم ، اسد *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition* 1831 - 1841 p. 85.

ويضيف الدكتور رستم قائلا : يبدو ان ابراهيم باشا ، بسبب اتصالاته باوربا وبالضباط الاوربيين ، اقتنع اقتناعاً شخصياً بصحة الفلسفة القومية ... ومما لا شك فيه هو ان ابراهيم باشا ، من هذا القبيل ، يستحق ان يحتل مرتبة رفيعة في تاريخ القومية في الشرق العربي » . المصدر ذاته ص ٩٦ .

ويبدو ايضاً ان عدداً من النواب في البرلمان الافرنسي كانوا يقولون بتعضيد سياسة محمد علي باشا وبمد يد العون اليه لكي يستطيع ان يشطر الامبراطورية العثمانية إلى شطرين ، شطر عربي وآخر تركي وهكذا يفلح باقامة « مملكة عربية ». غير ان فريسينه (Freycinet) يضيف قائلا : « بالرغم من ان هذه السياسة هي السياسة الواقعية في تلك الحقبة فانها اشبه « بمذهب سياسي رومانطيقي » وان الفكرة ذاتها فكرة خيالية » . Freycinet, C. de, *La Question d'Egypte*, p. 76

« وجلي ان محمد علي لم يكن يرغب في ان يكون داعية لجامعة عربية شاملة ... انما كان يرغب اولا في زيادة قوته» . راجع Temperley, Harold, *England and the Near East- The Crimea*, pp. 96 and 419-422.

(١٢) راجع : Antonius, George, *The Arab Awakening*, p. 60

(١٣) Toynbee, vol. II, p. 224

(١٤) Wortabet, Gragory, *Syria and the Syrians*, vol. I, pp. 35-43.

(١٥) وبعد انقضاء سبع سنوات كتب فارلي (Lewis Farley) يقول : « لسنوات خلت طرأ تحسن ملموس على الحالة التجارية في سوريا مما أدى إلى شيء من الازدهار في كل مكان .... في الاسكندرونة واللاذقية وطرابلس وصيدا وحيفا ويافا . فقد بدت علامات تدل على توسع التجارة وتقدمها ..... »

راجع : Farley, Lewis, *The Resources of Turkey*, pp. 206-207

(١٦) منذ خمس عشرة سنة فقط لم يكن هنالك من مواصلات بحرية بين بيروت واوروبا

اما الان ... فان هنالك سفريات بحرية منتظمة بين بيروت وليفربول ... وهذا الخط البحري يعود إلى الشركة المعروفة باسم "Messageries Impériales" ... كذلك شركة «لويد» (Lloyd) النمساوية اخذت في توسيع اعمالها .

(١٧) اذا رجعنا إلى سنة ١٨٤٣ نجد السفير الافرنسي في الاستانة ، السيد م. بوركنسي (Bourquency) يكتب إلى غيزو (Guizot) عن النشاط التربوي الذي يقوم به اليسوعيون فيقول : « ان دور القوى الفكرية الحضارية في الشرق يزداد شأناً واهمية يوماً بعد يوم . وأرى ان من واجبنا ان نهتم بهذه الناحية الحضارية الاهتمام كله ، وان نرعى التيارات الفكرية وهي لا تزال في طور نموها الاول ، وان نعمل على توجيهها – ذلك لان لنا من القدرة ، والنفوذ والمكانة في هذه البلدان ما يبرر رعايتنا هذه الناحية كي يكون نموها وتطورها في المستقبل مرتبطين بنا » . France, Archives du Ministère des - Affaires Etrangères, *Turquie*, 1843-44, Despatch No. 130/60, vol. 290, pp. 67-68.

(١٨) راجع : Wortabet, vol. I, pp. 205-206

(١٩) المصدر ذاته . ص ٤٧ – ٤٩ . قلما كان المسلمون يرسلون اولادهم إلى مدارس الارساليات التبشيرية او إلى المدارس الاجنبية ، بل ظلوا بمعزل عن المؤسسات التربوية المسيحية ، لانهم كانوا يبتغون تربية عربية اسلامية في برامجها وفي روحها . لذا تأسست في بيروت ، في سنة ١٨٩٥ ، مدرسة اسلامية كان مؤسسها الشيخ احمد عباس الازهري وكانت تعرف بالكلية العثمانية الاسلامية . وكان عدد من الزعماء السياسيين المسلمين ومن الذين اسسوا الجمعيات السرية من خريجي هذا المعهد .

(٢٠) في الرسالة التالية التي عثر عليها المؤلف في دائرة السجلات العامة في لندن ما يوضح بجلاء ما نحن بصدده ، ولذا ارتأينا ان نثبت الرسالة المذكورة :

« سيدي

« تسلمت رسالتكم رقم ٣٦ والمؤرخة في العاشر من الشهر المنصرم مع جميع الوثائق الأخرى المضمنة .

بالإشارة إلى احدى الوثائق المضمنة ، اعني الرسالة المرقمة ٣٧ ، والمرسلة إلى السير ستراتفورد كانتغ (Stratford Canning)حول موضوع حماية الروم الارثوذكس في حاصبيا وجوارها الذين يعتنقون المذهب الانجيلي ، يسرني ان اعلمكم ان حكومة جلالتها توافق تمام الموافقة على منحكم الحماية الكاملة لجميع المسيحيين في تركيا الذين يطلبون اليكم حمايتهم من ظلم الموظفين المسلمين التابعين للباب العالي . ولكن ، مع تسليمنا بان هذا التدبير (حماية المسيحيين) هو ، مبدئياً ، تدبير حسن ، يحسن بي ان الفت نظركم إلى انه ينبغي لممثلي حكومة جلالة الملكة ان يحرصوا الحرص كله على ان يتجنبوا التدخل في شؤون المسلمين الدينية بشكل سافر يتجاوز كل حد ، بحيث يظهر وكأن ممثلي حكومة جلالتها يعضدون النشاط التبشيري الذي تقوم به الارساليات

الاميركية ، وغيرها من الارساليات الاجنبية ، في الامبراطورية العثمانية ، لاجتذاب الافراد المسيحيين من مختلف المذاهب وضمهم إلى المذهب الانجيلي .

« ان حكومة جلالتها، وعن غير قصد وتصميم ، تؤثر ، بطبيعة الحال ، ان ترى الناس من جميع الاديان والمذاهب يعتنقون المذهب الانكليكاني ، سواء اكانوا من المسلمين ام من الروم الارثوذكس ام من غيرهم من الطوائف . ولكن من الحماقة ، ومن عدم اللباقة السياسية – ان لم نقل انه من الامور التي تهدد السلام العالمي – ان تسمح حكومة جلالتها لنفسها او لممثليها ، بناء على روح المبدأ هذا ، ان يرعوا شؤون هؤلاء المسيحيين المنضمين إلى المذهب الانجيلي . ان مثل هذا التدبير من شأنه ان يثير حفيظة أتباع الأديان غير المسيحية ، وينمي روح العداء عند مختلف الطوائف .

« ان امبراطور روسيا ، وهو اعظم رئيس للكنائس الارثوذكسية، قد علم بأمر النشاط القوي الذي تقوم به الارساليات الانجيلية في الشرق لاجتذاب اكبر عدد ممكن من الكنائس الارثوذكسية إلى المذهب الانجيلي . وليس لي ان الفت نظركم إلى انه من غير المستحسن اثارة العداء الديني او التدخل الروسي الفعال في شؤون الشرق .

« ولذا يتوجب عليكم ان تمتنعوا كلياً عن القيام باي عمل من شأنه ان يفسر انه تعضيد من قبلنا او تشجيع لحركة انضمام الارثوذكس إلى المذهب الانجيلي ، وهي الحركة التي تقوم بها الارساليات في تركيا بكل نشاط وحزم . ولكن في الوقت ذاته آمل ان تثابروا بكل ما اوتيتم من قوة على حماية المسيحيين من من مظالم المسلمين». راجع : F.O.78/575, *Turkey* (Diplomatic),January to December 1844, The Earl of Aberdeen to Consul Rose (Beirut), Despatch No. 10, dated Sept. 19, 1844.

(٢١) «منذ زمن طويل وانا احاول ان ابحث عن هدف الاميركيين الذين وفدوا إلى هذه البلاد واخذوا بالتبشير . وقد اصبحت مقتنعاً ان ليس لهم من هدف سوى الهدف الديني ، ولست أرى انهم يضمرون اغراضاً سياسية من وراء عملهم هذا». راجع : France, Archives du Ministère des Affaires Etrangères, *Turquie-Beyrouth*, 1888. Le Vte de Petiteville - French Consul General in Beirut writing to the Ministry of Foreign Affairs, Paris. Depatch No. 13-Letter of March 25, 1888.

(٢٢) في افتتاحيته في المنار هاجم رشيد رضا في ١٨ كانون الاول سنة ١٩١٣ بعنف الأثر السيء الذي تتركه التربية الغربية في البلدان الاسلامية – وهي تربية تهدف إلى تعليم صغار التلاميذ من العرب ان يحتقروا تاريخهم وان يمجدوا كل شيء غربي – وذلك باسم الحضارة. ويرى رشيد رضا ان «المتخرجون من هذه المدارس... يجرفون ثروة الامة إلى جانب ويقذفونها بالفجور والنفوذ الاجنبي من كل جانب ... فينالون منها جميع المآرب يحقرون لها سلفها ويعظمون في نفسها كل ما هو اجنبي عنها ... وهم الالات التي يستعين بها الاجانب على ادارة امر البلاد

لانهم تربية مدارسهم ... او الجيش السلمي لشكناتهم ولا يتم لهم ما يسمونه الفتح السلمي بدونهم ... » المنار مجلد ١٧ الجزء الاول ٢٨ ديسمبر ١٩١٣ ص ٩ – ٨ .

(٢٣) يذكر شارمتان (Charmetant) ما قاله له غمبتا (Gambetta) : « ان الكردينال لا فيجري (Lavigerie) والمرسلين التابعين له (في سوريا) قد ادوا إلى فرنسا خدمات لا يستطيع جيش ان يؤديه » . ويضيف قائلا : « نعم ، خدمات لا يستطيع جيش كبير ان يوديه او اسطول » . وقد كتب القاصد الرسولي نفسه قائلا : « نحن نريد سوريا كلها من غزة إلى أدنه ومن لبنان إلى الموصل » . Mgr.Charmetant,protonotaire apostolique directeur général de l'OEuvre des Ecoles d'Orient, Constantinople, Syrie et Palestine, *Lettre Ouverte à Nos Hommes d'Etat*, pp. 13 and 35.

وفي الرابع عشر من شهر تشرين الاول سنة ١٨٨٧ بعث وزير خارجية فرنسا برسالة إلى بتيتفيل (Petiteville) ، القنصل الفرنسي العام في بيروت – وذلك بمناسبة ٨٢ منحة دراسية قدمتها فرنسا إلى تلاميذ سوريين ليدرسوا في المعاهد اليسوعية هناك – يقول فيها : « الآن وقد تقرر منح هذه المنح الدراسية لسوريا فاننا نقترح ان يكون هدفنا مزدوجاً . اولا ان يكون لنا اصدقاء وعملاء في العائلات التي فاز ابناؤها بهذه المنح . وهدفنا الثاني في تشويق رؤساء المعاهد والطلاب للاقبال على تعلم اللغة الفرنسية . وقد تحقق بعض هذين الهدفين . ونحن نبغي ان نقيم علاقات طيبة مع العائلات ذات النفوذ، العائلات التي يتعلم ابناؤها في مدارسنا . فان لم ينشأوا على حب فرنسا فعلى الأقل يكونون من الذين لهم معرفة بلغتها وتاريخها . France, Archives du Ministère des Affaires Etrangères, *Turquie*, vol. 30, Despatch No. 51.

« يعتقد القناصل البريطانيون في سوريا ان مصالح الامبراطورية البريطانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمصالح جمعيات الكتاب المقدس العديدة التي لها عملاء مقيمون في سوريا » . Madden, p. 370

(٢٤) كانت اسئلة الامتحان في اللغة الانكليزية للسنة الرابعة (سنة التخريج من الكلية) سنة ١٨٧١ تشمل سؤالا في الترجمة من الانكليزية إلى العربية . وكانت الفقرة المطلوب ترجمتها سهلة بسيطة المعنى تحتوي على ١٥ سطراً . وإلى جانب هذا السؤال كان هنالك اسئلة من هذا النوع : ما هي المنطقة الجغرافية ، واين تقع منطقة الامطار الغزيرة ؟ ما الفرق بين هاتين الكلمتين : Principle, Principal وما الفرق ايضاً بين هاتين الكلمتين : Compare و Contrast . اما اسئلة التاريخ (وكانت الاسئلة بالعربية) فكانت على هذا النمط : من هم الهكسوس (دولة الرعاة) ومتى احتلوا مصر ؟ ما هي الادلة على ان بلاد بابل كانت اقدم بلد عمره الانسان ؟ كيف نشأت دولة اشور ، وكم من الزمن دام حكمها ؟ (راجع برنامج الكلية السورية الانجيلية في مكتب التسجيل ، في الجامعة الاميركية) .

وكان برنامج المدرسة الانجيلية المشيخية في دمشق يشمل المواضيع الآتية : القراءة ، صرف ونحو اللغة العربية ، التوراة ، التاريخ ، الجغرافيا ، الحساب ، واللغة الانكليزية . : وكانت المدرسة تبدأ نهارها ، قبل البدء بالدروس ، بقراءة فصل من الكتاب المقدس ، ثم صلاة ، كذلك كانت الدروس تنتهي على هذه الصورة . وعلى هذا المبدأ كانت تسير جميع المدارس الانجيلية . وكان رؤساء المدارس من المبشرين انفسهم يساعدهم في تعليم المواضيع العالية جماعة من الوطنيين من خريجي مدرسة عبيه الدينية». Wortabat,vol.I, pp. 209-210.

(٢٥) Volney, M.C. - F., *Travels in Syria and Egypt during the years 1783, 1784 and 1785*, 2 vols. (Perth, 1801) vol. I, p. 273.

(٢٦) « يدلك على عدم الاقبال على التعلم قلة الطلب على شراء الكتب . ففي سوريا شراء الكتب قليل جداً حتى اني لم اعثر على مخزن او دكان لبيع الكتب في دمشق وحلب ... كانت مطبعة بولاق الحكومية في القاهرة ترسل ببعض مطبوعاتها إلى سوريا للبيع ولكن الاقبال على شرائها قليل جداً ، ولكن بعض هذه المطبوعات المصرية وجدت سبيلها إلى بعض المدارس ، وإلى بعض المكتبات الخاصة » . *Report on Commercial Statistics of Syria*, by John Bowing (Parliamentary Papers, 1840) quoted by Antonius, p. 38, n.2

(٢٧) قد يكون بعض ما سنذكره من قصص واخبار تدور حول موظفي مراقبة المطبوعات اقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ولكنها قصص تدل على مبلغ الجهل الذي كانوا عليه.يقال مثلا ان مراقباً تركياً للمطبوعات في بيروت رفض ان يسمح للكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم) ان تتسلم كتاباً في الفيزياء لانه لحظ ان لفظة "Revolution" تتكرر في الكتاب . وهذه اللفظة "Revolution" في الفيزياء تعني « دورة » فظنها تعني « ثورة » ! ومراقب تركي آخر لم يسمح بتسليم كتاب في الكيمياء للكلية المذكورة لانه لحظ ان هناك تكراراً ل H2O وهو التركيب الكيميائي للماء ، فظنه يعني : عبد الحميد الثاني يساوي صفراً !

راجع : Ramsaur, E.E., *The Young Turks*, pp. 104-105.

(٢٨) اما الروح الطيبة التي كان يتحلى بها القس دانيال بلس (Daniel Bliss) ، رئيس الكلية السورية الانجيلية فقد كانت موضع احترام وتقدير عظيمين . كان رجلا من النوع الذي يبخل به الزمان، وكانت محبة الناس له عظيمة وذلك لعمق تفهمه ولعظيم شعوره الصادق نحو البلاد وساكنيها . وفي السابع من شهر كانون الاول سنة ١٨٧١ عندما وضع الحجر الأساسي لبناية الكلية بحضور النبيل وليم ايرل دودج (William Earl Dodge) الاول ، القى دانيال بلس كلمة رائعة جاء فيها قوله :

« ان هذه الكلية هي لكل الاحوال ولكل انواع البشر دون اي اعتبار للون او القومية او الجنس او الدين. فيمكن لاي رجل ابيض كان او اسود او

اصفر ، مسيحياً كان او يهودياً او مسلماً او وثنياً ان يدخل الكلية ويتمتع بكل ما يمكن ان تسديه من نفع في سنوات ثلاث او اربع او ثمان ثم يخرج منها مؤمناً باله واحد او بآلهة كثيرة او غير مؤمن باي اله. غير انه يستحيل على احد من الناس ان يبقى عندنا طويلا دون ان يعلم ما نؤمن انه حق والاسباب التي تدعونا إلى ذلك الايمان » – راجع : *The Reminiscences of Daniel Bliss* (New York, 1920) p. 198

الفصل الرابع

(١) Pears, Sir Edwin, *Life of Abdul Hamid*, pp. 43-44

للاطلاع على تقييم رصين لشخصية عبد الحميد ولسياسته الخارجية راجع مقالة Professor A.Vambery,"Personal Recollections of Abdul Hamid II and His Court" in the *Nineteenth Century And After*, for June and July 1909.

كانت ام عبد الحميد (قادين افندي) قد توفيت وهو بعد طفل صغير . راجع ايضاً كتاب المؤرخ التركي انور ضيا قارال : Osmanli Tarihi, VIII cilt-*Birinci Mesrutiyet ve Istibdat Devirleri*, 1876-1907. (Ankara, 1962)

(٢) France - Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Turquie Vol., 423 (Decembre, 1878)

(٣) « في السنوات الأولى لحكم عبد الحميد كان في الجوامع الرئيسية في استانبول نصوص من الكتابات المقدسة التي تحتوي على الصفات والمؤهلات التي ينبغي ان تتوافر في الخليفة . وفي سنة ١٨٩٠ ازيلت هذه الكتابات بأمر من عبد الحميد ذاته ، مما اثار حفيظة العلماء .... » Pears, p. 149

(٤) « كان يؤثر العرب والشركس على انهم أخلص ولاء واكثر اتضاعاً واحتشاماً من الاتراك . وهذا يفسر لنا اختياره عزت ابو الهدى ، وامين افندي . » Professor A.Vambéry,"Personal Recollections of Abdul Hamid II and His Court" in *The Nineteenth Century and After*, July 1909, p. 989.

(٥) وها نحن نذكر للقارىء بعض الاسماء : عزت باشا العابد الذي كان الاتراك يسمونه استهزاء « عرب عزت » الذي كان كاتم الاسرار الثاني عند عبد الحميد ، ونعوم باشا « السوري » وكان وكيل وزارة الخارجية ، وسليم باشا ملحمة وكان مارونياً من لبنان ، وقد شغل منصب وزارة التعدين والغابات والزراعة . ونجيب باشا ملحمة (وهو اخو سليم) وكان يوكل اليه امر حراسة السلطان وسلامته . اما بالنسبة إلى وظيفته الرسمية فقد كان وكيل وزارة الاشغال العامة ،

ولكن بطريقة غير رسمية كان رئيس مكتب وشرطة التحري والموفد السياسي الخاص للسلطان . ومحمود شوكت باشا ، وكان ينتمي إلى احدى العائلات العراقية المعروفة . وقد شغل منصب رئيس اركان الجيش الثالث في سالونيكا . راجع : Goach and Temperley, vol. V, pp. 7-20. وكذلك احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ص ٨٢ – ٨٠ .

(٦) Great Britain,*Handbook* No. 96 a and b, *The Rise of Islam and The Caliphate; The Pan-Islamic Movement*, pp. 54-55.
« كان في بلاطه عدد من علماء الدين العرب ، وكان اكثرهم من اتباع الطرق الصوفية . وكانوا يتنافسون فيما بينهم في مناصرة السلطان وتعضيده كي يحظوا بعطفه وكرمه . منهم كان الشيخ محمد ظافر من مكة المكرمة وكان من اتباع الطريقة الشاذلية ، والشيخ فضل العلوي وكان من حضرموت . وكان ابعدهم اثراً الشيخ ابو الهدى الصيادي ، من اتباع الطريقة الرفاعية ، وكان عربياً من سوريا من ولاية حلب . وكان ينتمي إلى عائلة عريقة ذات نفوذ وشهرة في الاوساط الصوفية . وكان هذا الرجل بفضل مواهبه وقوة شخصيته قد احرز صيتاً بعيداً وشهرة واسعة . فسافر اولا إلى بغداد ومن ثم إلى الاستانة حيث فرض شخصيته على السلطان عبد الحميد ونال عنده حظوة رفيعة بفضل ما كان يعزى اليه من كرامات تجري على يده ، وبفضل ما اوتي من بعد نظر وحنكة سياسية». راجع Hourani, Albert, *Arabic Thought in The Liberal Age*, 1798-1939 (Oxford University Press, 1962) p. 107

(٧) راجع : *The Illustrated London News* of October 10, 1908 (No. 3625, vol. CXXXIII) p. 428
« كان السلطان عبد الحميد خارج البلاد التركية رجلا محبباً إلى نفوس المسلمين . فقد رأى بثاقب نظره ان انكلترا وفرنسا – وهما البلدان اللذان يعيش في امبراطوريتيهما اكبر عدد من المسلمين – ستتأثران من جراء قيام « جامعة اسلامية » فجاء انشاء الخط الحديدي الحجازي احسن دليل على براعته السياسية وعلى انه يرعى السياسة التي ترمي إلى اقامة الجامعة الاسلامية» . راجع : Edib, Halidé, *Turkey Faces West* (New Haven, 1930) p. 93
راجع : روحي خالدي المقدسي ، الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة ، نقله الهلال الجزء ١٧ ، القسم الثالث (١ كانون الاول ١٩٠٨) ص ١٣٩

(٨) وكذلك Us, Hakki Tariq, *Meclis-i-Meb'usan, A.H.* 1293 (1877 A.D.) 2 vols. (Istanbul, 1954).

(٩) غالنغا (Gallenga) ، مراسل جريدة التيمز (The Times) بعث بتقرير في ٢١ حزيران سنة ١٨٧٦ يقول فيه ان اقامة حكومة دستورية في تركيا اشبه ان يكون « حياكة نسيج بخيوط من رمل . » نقله في كتابه : Seton - Watson, R.W., *Disraeli, Gladstone and the Eastern Question*, (London, 1935), p. 38.

(١٠) راجع اعداد جريدة لسان الحال، عدد ٩٢، تاريخ ١٤ ايلول سنة ١٨٧٨ ،وعدد ١١٧، تاريخ ١١ كانون الاول سنة ١٨٧٨. وهذه الجريدة لا تزال تصدر كجريدة يومية في بيروت .

(١١) راجع جريدة لسان الحال،عدد ١٠٩ تاريخ ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٨٧٨ ،وعدد ١١٢ ، تاريخ ٥ كانون الاول سنة ١٨٧٨ .

(١٢) بعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ وفد إلى القاهرة عدد من العاملين في السياسة العربية القومية حيث شعروا انهم يستطيعون ان ينعموا هنا بالحرية التي تمكنهم من القيام بنشاطهم السياسي . وبعد سنة ١٨٩٧ بقليل من الزمن تأسست اول جمعية سياسية على ايدي زعماء من العرب المقيمين في مصر ، وكان اسمها « جمعية الشورى العثمانية » وكان من مؤسسيها محمد رشيد رضا ورفيق العظم . غير ان زعماء آخرين من مختلف انحاء الامبراطورية اسهموا في تأسيسها ، منهم اتراك وشراكسة وارمن . وكانت الغاية من تأسيس هذه الجمعية الوقوف في وجه المظالم الحميدية وفساد الحكم الجائر ، والعمل على تبديل الحكم واقامة حكومة تمثيلية برلمانية . ولا شك في ان ظهور هذه الجمعية اقض مضجع السلطان عبد الحميد . وقد اعترف عبد الحميد نفسه إلى احد اعوانه انه عندما سمع خبر هذه الجمعية فارقه النوم مدة ثلاث ليال إلى ان اخبره احد عملائه السريين في مصر عن الاشخاص الذين اسسوا هذه الجمعية . وقد سماها عبد الحميد « جمعية الشر والفساد » .
وكان لجمعية الشورى العثمانية فروع في جميع انحاء الامبراطورية . وكانت نشراتها الاعلامية والدعائية تصدر بالتركية والعربية . وكان بعض النسخ يرسل إلى الموانىء التركية على البحر الاسود مع المسافرين او مع بحارة السفن الروسية . ومن تلك الموانىء كان الرسل السريون يوزعونها في جميع انحاء الاناضول . وبعد ان ظهرت جمعية تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ ، حلت الجمعية نفسها . راجع العظم : مجموعة آثار رفيق بك العظم ، الجزء الاول .
وبعد انقضاء سنوات قليلة كتب رينه بينون (Pinon) ما يلي : « لقد اصبحت مصر ... مركز احياء عربي حقيقي حضارة ولغة وادباً ودينا . فمن الطبيعي اذن ان نفترض ان القومية العربية وما لقيته في اوربا الغربية من دعاية واعلان لم تكن من الحوادث الطارئة المنفصلة بعضها عن بعض ، بل انها ، على وجه التحديد ، مرتبطة بحركات الاستقلال التي ظهرت في الجزيرة العربية ، تلك الحركات التي كانت بريطانيا تعضدها علنا وترجو لها النجاح » .
- Pinon, R., *L'Europe et l'Empire Ottoman*, (Paris, 1908), p. 382

(١٣) يعود الفضل في امكان الاتصال بين الاحرار والمناوئين للاتراك إلى وجود وسائل بريدية في الولايات الاسيوية في الامبراطورية العثمانية ، لان المراسلات والاتصالات البريدية كانت ، عموماً ، في منأى عن عيون الجواسيس والرقباء الذين كانوا يعملون لحساب عبد الحميد – الا في حالات استثنائية عندما كان موظف يرتشي لكي « يبيع » بعض الرسائل إلى السلطة العثمانية .

(١٤) Antonius, P. 79

(١٥) ولد فارس نمر باشا في بلدة حاصبيا ، لبنان . وعلى الارجح كانت ولادته سنة ١٨٥٤ . وغادر بيروت متجهاً إلى القاهرة في شهر شباط ، سنة ١٨٨٥ ، حيث ، بالاشتراك مع يعقوب صروف وشاهين مكاريوس اسس ، سنة١٨٨٦ جريدة المقطم اليومية ، وهي من اشهر الجرائد العربية في العالم العربي . توفي فارس نمر باشا سنة ١٩٥١ .

(١٦) كان من الاعضاء البارزين ابراهيم الحوراني ويعقوب صروف وابراهيم اليازجي وفارس نمر باشا وشاهين مكاريوس .

يقول فارس نمر باشا ان الجماعة كانت تضم في بادىء الأمر قرابة ١٢ عضواً ثم ارتفع العدد إلى حوالي سبعين عضواً . وقد اخبر فارس نمر باشا المؤلف الكثير عن الأثر الذي خلفه الياس حبالين ، وكان يدرس اللغة الافرنسية في الكلية السورية الانجيلية في بيروت من سنة ١٨٧١ – ١٨٧٤ . . كان الياس حبالين مارونياً ثم انضم إلى محفل ماسوني . وكان قد قرأ فولتير واصبح تقدمياً وثورياً في افكاره . وكان ، بعد ان يختصر درس الفرنسية في صفوفه ، يعود إلى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الاتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة . وهكذا اصبح طلابه ، وجميعهم نصارى ، من اشد اتباعه اخلاصاً وولاء ، فكان كل واحد منهم يطمح ان يكون « حبا لينا » يبز استاذه . وراحوا ينشرون افكاره بين الطلاب . وكان هنالك رجل آخر شديد الحماسة : سليم عمون من دير القمر . وكان عمه حاكم لبنان في عهد ابراهيم باشا المصري . وكان سليم عمون قد قرأ رواية ديماس (Dumas) الافرنسي الموسومة « بالفرسان الثلاثة » فراح ، مع اثنين من اصدقائه ، يؤلف جمعية الفرسان الثلاثة السرية وغايتها تحرير لبنان من الحكم التركي . ويعتقد فارس نمر باشا ان الافكار الثورية التي كان يأخذ بها عمون واصحابه عندما كانوا في الكلية السورية الانجيلية كانت افكاراً افرنسية المصدر ، وقد جاءتهم عن طريق الياس حبالين .

ولد الياس حبالين في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ في بلدة الذوق في لبنان، وتوفي في ٨ تشرين الاول سنة ١٨٨٩ في مصر. درس في مدرسة عينطورا اللعازرية واصبح متمكناً من اللغة الافرنسية وآدابها . ولمدة من الزمن كان يعلم في احسن مدارس بيروت واشهرها . وفي سنة ١٨٦٦ اصبح مدير التحرير للجريدة الرسمية « لبنان » . ثم عينته الحكومة الافرنسية ترجماناً من الدرجة الاولى في قنصليتها في بيروت ، وظل في هذه الوظيفة إلى سنة ١٨٧٥ عندما غادر بيروت إلى القاهرة . لمراجعة سيرة حياته المختصرة ، انظر في كتاب الكونت فيليب دي طرازي تاريخ الصحافة العربية (بيروت ١٩١٣ ، ص ١١٥ – ١١٦ .

وفي مقال تحت عنوان « النهضة الدستورية وسياسة العثمانيين في الديار المصرية » كتبه فارس نمر باشا ونشر في المقتطف ج ٣٦ (مارس ١٩١٠)

ص ٢٥٠ – ٢٧٠ ، يقول الكاتب :

« على ان كثيرين من احرار سورية النابغين يعترفون بالفضل في خدمة الحرية للمرحوم الياس بك حبالين. كان رحمه الله يدرس شبان سورية اللغة الفرنسوية ولكنه وقف جهده على ارضاعهم لبان الحرية واضرام نار البغض بين ضلوعهم للسلطة الاستبدادية سياسية كانت او طائفية . وشاركه في هذا الفضل رجال العشيرة الماسونية في سورية من مسلمين ومسيحيين . فيا طالما سهروا الليالي وبذلوا الرخيص والغالي لاعداد ابناء سورية لقبول المبادىء الحرة والنظامات الدستورية » .

(١٧) تأسس عدد من المحافل الماسونية في بيروت ودمشق . فان « محفل الشرق » الفرنسي اصدر براءة سنة ١٨٦٨ يسمح بموجبها تأسيس محفل تابع له في بيروت وقد تأسس هذا المحفل في ٤ كانون الثاني سنة ١٨٦٩ ، وكان يعرف بمحفل « لبنان » . كذلك فعل المحفل الاكبر الاسكوتلندي ، فانه اصدر براءة يسمح بموجبها تأسيس فرع له في لبنان . راجع : Morris, Robert, *Freemasonry in the Holy Land* (5th, edition, N.J., 1873) pp. 470-473 and 557

(١٨) F.O. 195/1306 - *Turkey*, 1880 vol., II

(١٩) المرجع ذاته

(٢٠) راجع صور هذه المناشير في باب الملاحق من هذا الكتاب

(٢١) France - Ministère des Affaires Etrangères: *Turquie*, vol. 23,1880

وقبل هذا بسنة ، اي في ٩ تشرين الاول سنة ١٨٧٩ ارسل السيد دلابورت (Delaporte) ، قنصل فرنسا العام في بيروت ، إلى ودينغتون (Waddington) وزير خارجية فرنسا ، بتقرير عن وجود مؤامرة عربية ذات شركاء لها في حلب والموصل وبغداد ومكة والمدينة وغايتها اقامة مملكة عربية . ويبدو ان هذا القنصل كان قد حصل على بعض المعلومات عن وجود جمعية سرية في بيروت . وقد ورد اسم عبد القادر الجزائري، الزعيم الجزائري ، والمقيم في دمشق ، على انه قد يكون ملكاً على هذه المملكة المزمع اقامتها . ويؤكد القنصل الفرنسي في تقريره ان جميع هذه الأخبار هي من قبيل الاشاعات وانه ليس في وضع يستطيع معه ان يثبت او ان ينفي صحتها . ولكنه يمضي قائلا ان هنالك من الفوضى السياسية والانحلال الإداري في الامبراطورية العثمانية ما يجعل قيام مثل هذه المؤامرة محتملا . France - Ministère des Affaires Etrangères: *Turquie*, vol. 22, 1879 - Despatch No. 19.

(٢٢) F.O. 195/1368 - *Turkey*, 1881, vol. II - Despatch No. 1 of (Beyrout), January 3, 1881.

(٢٣) المصدر ذاته

(٢٤) راجع الملحق رقم ١ في هذا الكتاب

(٢٥) المصدر ذاته . الرسالة رقم ٢ (بيروت) المؤرخة في ١٤ كانون الثاني ، ١٨٨١ .

وقد وجد منشور ثوري باللغة العربية ، ومطبوع، على ما يبدو ، في لندن وجد سبيله إلى بغداد الثانية . ويناشد المنشور العرب « ومسيحيي سوريا » الاتحاد لتحرير الامة العربية من الاتراك المعتدين . وعنوان المنشور « بيان من الامة العربية » صادر عن الامة العربية (« جمعية حفظ حقوق الملة العربية ») ومؤرخ في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ هجرية (١٩ آذار سنة ١٨٨١) .

F.O. 195/1370: *Turkey* (Baghdad) 1881, vol. I - Despatch No. 21 of 20th May, 1881, from political Agent and Consul General Chichele Plowden to the Earl of Granville.

(٢٦) F.O. 195/1368 - Despatch No. 3 Confidential, of (Beyrout) January 17, 1881.

(٢٧) من المفيد جداً ان نشير إلى اقدم « دعوة للتحرر من حكم الاتراك الغاشم » ظهرت في سوريا ، وربما كانت اقدم دعوة من نوعها في العالم العربي ، وهي الدعوة التي ظهرت سنة ١٨٥٨ . والتي أشار اليها تقرير بعث به السيد ج . هـ . سكين (Skene) ، قنصل بريطانيا في حلب ، إلى السفير البريطاني في الاستانة في ٣١ تموز سنة ١٨٥٨ . يقول سكين : « ... يظهر ان السكان المسلمين في شمالي سوريا تدغدغ افئدتهم احلام جميلة بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، وباقامة دولة عربية على رأسها شريف من اشراف مكة ... »

Great Britain, F.O. 78/1389, No. 20 of 31st., July 1858, enclosure in No. 33 of 7th August 1858.

عند قراءة هذا التقرير قراءة سريعة لا يتبادر إلى ذهن القارىء انها تحتوي اشياء ذا خطر ، وانما عند قراءتها بتمهل يتضح ان « هناك روحاً ثورية واغراضاً مبطنة ضد السلطة الشرعية . » كانت تتأجج في نفوس اهل حلب منذ زمن . وقد أدى هذا الشعور إلى « شيء من الشغب وإلى حدوث بعض الحوادث » . وسبب ظهور هذه الروح العدائية ضد الاتراك هو ، اولا ، شعور زعماء اهل حلب ، بحسب ما جاء في تقرير سكين ، « ان ظلماً قد وقع عليهم وعلى مصالحهم الخاصة من قبل الحكومة العثمانية » ، وثانياً « لان العرب الثائرين تلقوا تشجيعاً وتعضيداً من قبل ما تبقى من جيش الانكشارية ، وكانوا جماعة مؤتلفة في حلب عدد افرادها لا اقل من ٢٥ الف جندي وذلك بعد ان قضي عليهم كقوة عسكرية سنة ١٨٢٦ . » وفضلا عن هذا « فان السكان العرب في هذا الجزء من سوريا كانوا يشعرون بالكراهية نحو الجنود الاتراك والموظفين الاتراك ويعتبرونهم من المسلمين المنحطين اخلاقاً » وهذا مما يبين بوضوح مرة ثانية اهمية الرابطة الدينية التي كانت تربط بين العرب والاتراك . وهذه « الحركات الثورية » العربية ضد السلطة العثمانية لا يمكن اعتبارها بحال من الاحوال دليلا على وجود القومية العربية كعقيدة في نفوس العرب وانما يجب اعتبارها تعبيراً صارخاً عن عدم الرضى وعن النقمة التي كان يشعر بها الاهلون نحو السلطة . واني مدين للسيد نورمان لويس (Norman Lewis)

للفت نظري إلى هذه الرسالة .

(٢٨) راجع عادل الصلح – سطور من الرسالة صفحة ٩٢ – ١٠١ و ١٢٦

(٢٩) F.O. 195/1412 - *Turkey* - Despatch No. 7 of (Jerusalem) September 23,1882: British Consul Moore to the Earl of Dufferin

(٣٠) F.O. 195/1480 - *Turkey* - Despatch No. 16 of (Damascus) April 19, 1884: Acting British Consul General John Dickson to the Earl of Dufferin.

(٣١) Paris, Ministère des Affaires Etrangères - *Turquie*: *Damas*, vol. 14

(٣٢) يذكر اسم جمال الدين الافغاني دوماً على انه من جملة المصلحين العرب . والواقع ان جمال الدين لم يكن عربياً ، ومن المرجح انه ليس افغانياً بل فارسياً . وكان يطمح إلى الوصول إلى مركز ديني مرموق وإلى زعامة وقيادة سياسية . وقد اشتهر اسمه بين المسلمين في اقطار العالم ، في ايران والهند والبلاد العربية وتركيا ، لاسيما في الاوساط الدينية والسياسية ، وذلك عن طريق دعوته إلى الحرية السياسية وإلى استقلال المسلمين جميعاً ، ومهاجمته العنيفة للاستعمار الغربي . وكان يقول ان وحدة المسلمين كانت امراً طبيعياً وضرورة منطقية لحماية انفسهم وللابقاء على كيانهم . وفي سنة ١٨٨٤ اصدر ، بالاشتراك مع صديقه وتلميذه محمد عبدو مجلة « العروة الوثقى » في باريس « والغاية منها ايقاظ المسلمين ليدركوا هم بانفسهم ضرورة اتحادهم ضد تعدي الغرب واستقلاله » . راجع Adams, Charles, *Islam and Modernism in Egypt*, pp. 1-13; Hourani, Albert, *Arabic Thought in the Liberal Age*, 1798-1939, pp. 108-129

راجع ايضاً المنار ، مجلد ٨ (١٧ آب ١٩٠٥) ص ٥٥

وهناك كتاب ، على غاية من الاهمية ، يحتوي على وثائق عربية وفارسية تتعلق بحياة جمال الدين الافغاني واعماله وقف على تحريره الدكتور ايرج افشار والدكتور اصغر مهدوي وقد اصدرته جامعة طهران في سنة ١٩٦٣ تحت رقم ٨٤١ من منشوراتها . وللكتاب عنوان بالفارسية والافرنسية. وعنوانه بالافرنسية : *Documents Inédits Concernant Seyyed Jamal al-Din Afghani*

(٣٣) (١) المنار ، مجلد ٨ جزء ١٢ (١٧ آب ، ١٩٠٥) ص ٤٦٥ وجزء ٢٣ (٢٦ كانون الثاني ، ١٩٠٦) ص ٨٩٣ .

(٣٤) Gibb, H.A.R., *Modern Trends in Islam*, p. 33

(٣٥) راجع Antonius, pp. 95-98

(٣٦) الكواكبي : ام القرى ص ٢٣٩

« وقال أيضاً : انه غير متعصب للعرب وانما يرى ما لا بد ان يراه كل حر

مدقق يتفحص الامر : من ان الغيرة على الدين واهله والاستعداد لتجديد عز الاسلام منحصران في اهل المعيشة البدوية من العرب، اذ يرى ان المشيئة الالهية حفظتهم من تلك الامراض الاخلاقية التي لا دواء لها ... »

(٣٧) المصدر ذاته ، ص ٢٢٨ — ٢٣١ :
« قال الامير : اريد ان احترام الشعائر الدينية في اكثر ملوك آل عثمان هي ظواهر محضة وليس من غرضهم بل ولا من شأنهم ان يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك وهذا مرادي بان الدين غير الملك ... » ص . ٢٢٨.

(٣٨) المصدر ذاته ص ٢١٧ — ٢٢٢ : قرار عدد (٦) :
« ان الجمعية بعد البحث الدقيق والنظر العميق في احوال وخصال جميع الاقوام المسلمين الموجودين وخصائص مواقعهم والظروف المحيطة بهم واستعداداتهم وجدت ان لجزيرة العرب ولاهلها بالنظر إلى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم . بناء عليه رأت الجمعية ان حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً ، وان انتظار ذلك من غيرهم عبث محض » ص ٢١٧

(٣٩) راجع Adams, pp. 181-187
لقد أدرج في الآونة الاخيرة اسم الشيخ رفاعة بدوي رافع الطهطاوي (١٨٠١ — ١٨٧٣) في قائمة اسماء المصلحين العرب . كان الشيخ رفاعة شاباً مصرياً أعجب كثيراً بالافكار الافرنسية وبالثقافة الافرنسية، ذلك لانه عاش مدة خمس سنوات في باريس (١٨٢٦ — ١٨٣١) . وقد عبر عن اعجابه بالحضارة الفرنسية في كتاب الفه بعد رجوعه إلى مصر وعنوانه تخليص الابريز في تلخيص باريز . ولكن الطهطاوي لم يكن مصلحاً دينياً ولم يكن ثورياً تقدمياً . كان همه الاول ان تصبح مصر بلداً عصرياً وان يصبح المجتمع المصري مجتمعاً راقياً . غير ان العقلانية الفرنسية لم تكن في نظر الطهطاوي بديلا عن الاسلام القويم — فان الطهطاوي هو اولا مسلم مؤمن . وليس هناك من دليل على تغيير اساسي في تفكير الطهطاوي او تطور اساسي في نظرته إلى الاسلام . انه يبدي اعجابه وتعجبه من الامور الغريبة المستحدثة التي رآها في باريس والاشياء التي تعلمها في فرنسا ، غير ان فرنسا ذاتها ظلت في نظره « ديار كفر وعناد » يقول الشيخ رفاعه الطهطاوي :
« البلاد الافرنجية قد بلغت اقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة اصولها وفروعها ... غير انهم لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم ولم يسلكوا سبيل النجاة ولم يرشدوا إلى الدين الحق ومنهج الصدق » . راجع الطهطاوي : تخليص الابريز في تلخيص باريز ، القاهرة ١٢٥٠ هجرية (١٨٣٤ ميلادية) ص ٥ ، ٧ ، ١٥ — ١٦ .
راجع ايضاً احمد ، جمال محمد : *The Intellectual Origins of the Egyptian Nationalism* (Oxford University Press, 1960), p. 11

(٤٠) ان وضع المحاكم الحكومية (المدنية) اسوأ مما كان عليه سابقاً ، فالناس

لا يزالون يشكون من فقدان العدالة » .

Great Britain, F.O. 195/1365 - "State of Affairs of Syria," despatch No. 46, dated "Beyrout, October 5, 1881." See also F.O. 195/1369, despatch, No. 60, dated "Beyrout, December 19, 1881."

(٤١) France, Archives du Ministère des Affaires Etrangères, *Turquie*, vol. 14, *Damas* - 1855-1888.

(٤٢) France, Archives du Ministère des Affaires Etrangères, *Turquie*, *Beyrouth*, 1888

(٤٣) راجع De Contenson, p. 3

(٤٤) راجع الملحق « هـ »

(٤٥) F.O., 800/113 - *Reports*, 1893-96 (in French)

(٤٦) ان ابرز ما جاء في هذه المناشير مهاجمة السلطان ذاته ، كما جاء في احدها :
« ايها السلطان عبد الحميد انك غير لائق للحكم . ان اعمالك البشعة وظلمك القاسي وسياستك التي تستهدف مصالحك الشخصية ، جميعها امور اكثر مما نستطيع تحمله . لم يعد لحكومتك اية كرامة وقد فقدت سيطرتها وهيبتها . واصبحت امتنا مهزلة العالم المتمدن ، في حين ان الامبراطورية تتدهور يوماً بعد يوم . ان شعبك يلعنك ، وها ان الجزرة تمر بمدننا وقرانا مخلفة وراءها الخراب واليأس والجوع . فان كنت حكيماً ، والوقت لم يفت بعد ، انزل عن العرش ، وان ابيت فانك ستقطع اربا اربا » . المصدر ذاته .

(٤٧) كان نجيب عازوري مارونياً نشأ نشأة افرنسية . وكان شديد الميل إلى فرنسا وإلى حضارتها ، فلم يكن في وضع يمكنه من ان يتكلم او ان يكتب بلسان العرب المسلمين . ولكنه كان يذم الاتراك ويمتدح العرب ، وكانت كتاباته تنم عن يقظة سياسية في وجدان الطبقة المثقفة من العرب . « في سنة ١٩٠٤ أسس « رابطة الحزب العربي » ... وكان نشاط الرابطة — هذا اذا كانت الرابطة قد برزت فعلا إلى الوجود — يقتصر على اصدار البلاغات والمناشير . وبعد ذلك اصدر في باريس مجلة شهرية لم تعش طويلا اسمها « الاستقلال العربي » (١٩٠٧ — ١٩٠٨) Hourani, pp. 277-278

(٤٨) راجع : Gooch, and Temperly, vol. V, *The Near East*, 1903-9, pp. 248-262 and 272-307; David, Wade Dewood, *European Diplomacy in the Near Eastern Question*, 1906-1909, pp. 60-61 Mears, E.G., *Modern Turkey*, pp. 476-490; Knight, E.F., *The Awakening of Turkey*, pp. 70-94 and Zaydan, G., *Al-Hilal*, vol, XVII (1908) pp. 3-31. Kuran, Ahmet Bedevi, *Inkilap Tarihimiz Ve "Jon Turkler"* (Istanbul, 1945) and *Inkilap Tarihimiz Ve Ittihad ve Terakki* (Istanbul, 1948); Tunaya, Tarik Z., *Turkiyede Siyasi*

Partilar, 1859-1952 (Istanbul, 1952) p. 91, and Ramsaur, Jr., E.E. *The Young Turks, Prelude to the Revolution of* 1908.

(٤٩) راجع : David, pp. 60-61

(٥٠) « كنتيجة للخلاف الذي وقع حول الاسلوب الذي ينبغي اتباعه انقسم المبعوثون إلى المؤتمر إلى حزبين . اما الوفد التركي فانفصل عن المؤتمر واسس « رابطة الاتحاد والترقي » . اما سائر الوفود ، وكانوا يمثلون الاقليات الناقمة ، فنظموا انفسهم في رابطة عرفت « برابطة الاحرار » برئاسة الامير صباح الدين ابن اخت عبد الحميد ، وكان منفياً . اما جمعية الاتحاد والترقي التي سبقت تأليف هذه الجمعية ، فقد كانت تقول بتغيير النظام الاداري تغييراً جذرياً كاملا وجعله وحدة مترابطة وذلك حرصاً على المحافظة على الامبراطورية ، من التجزؤ والتفكك. اما حزب « رابطة الاحرار » فكان هدفه تغيير النظام واصلاحه ولكن عن طريق اللامركزية بحيث يكون نظاماً يراعي الاعتبارات الدينيةوالاقليمية – راجع : Ahmed Niazi,*Khawatir Niyazi*,p. 29;*Al-Manar*,XI, p. 852 ff; Ismail, *The Memoirs of Ismail Kemal Bey* (London, 1920) pp. 306-8; G. Hanotaux, *La Politique de l'Equilibre*, (1907-1911, pp. 135-6, 319; A Hamilton, *Problems of the Middle East* (London, 1909) pp. 11-13; D. von Mikusch, *Gasi Mustafa Kemal*, pp. 43-5. - Ibid., p. 60, n.4.

(٥١) « تركيا الفتاة » تعني جماعة المطالبين بالاصلاح داخل الامبراطورية العثمانية . بينما جمعية « الاتحاد والترقي » تعني منظمة الاتراك الاحرار التقدميين الذين اصبحوا فيما بعد القوة الداخلية الدافعة التي ادت إلى الثورة . كذلك « اللجنة المركزية للاتحاد والترقي » تعني اللجنة الصغيرة التنفيذية داخل جمعية الاتحاد والترقي . وقد أنشىء حتى خريف ١٩٠٨ ، عدد من اللجان المركزية لجمعية الاتحاد والترقي . المصدر ذاته ، ص ٦٠ ، هامش ٥ .

(٥٢) « اصدرت جمعية الاتحاد والترقي في باريس مجلة رسمية « مشورت » لتنشر بواسطتها الدعوة إلى الافكار الثورية . وقد استرعت الروح الوطنية التي تتجلى في مقالاتها ، والعداء الشديد لاوربا انتباه عبد الحميد ذاته فأعجب بها . » راجع ، Tahsin Pasha, *Abdul-hamid ve Yildiz Hatiralari* (Istanbul, 1921), p. 295; Driault et l'Heritier, *Histoire diplomatique* de la Grèce V, 2-3" المصدر ذاته ، ص ٦٠ – ٦١ ، راجع كذلك Ramsaur, pp. 23-37.

(٥٣) إلى جانب لجنة « تركيا الفتاة » كان هناك لجان ثورية أخرى غير اسلامية وغير تركية : « ففي سنة ١٩٠٧ اجتمعت في جنيف وفود من ارمينيا ومقدونيا وبلغاريا وسربيا واليونان والبوسنه والهرسك واعربوا عن رغبتهم في ان تعلن السلطة استقلال مقدونيا وارمينيا والبانيا والبوسنة والهرسك استقلالا ذاتياً في اتحاد بلقاني ذي دستور واحد للجميع بما في ذلك المواطنون الاتراك في هذه

الاقطار . وقد انتشرت هذه الافكار وشاعت بين الناس فألهبت نفوس المسيحيين في الشرق . راجع Djuvara, T.G. *Cent Projets de Partage de la Turquie* (1281-1913), (Paris, 1914), p. 503. ويضيف دجوفارا (Djuvara) قائلا : « في هذه الآونة بالذات ، وعند منصرم سنة ١٩٠٥ وجه الامير صباح الدين مذكرة إلى وزارات الخارجية كؤر في آخرها دعوته الوطنية قائلا : « الامبراطورية العثمانية للعثمانيين » . كان هذا شعار تركيا الحرة وهو شعار من شأنه ، كما كانوا يقولون ، ان يوطد اركان السلام العالمي . وهذا شيء جميل ، ولكن بعد ست سنوات نشبت حرب البلقان » .

(٥٤) من الفروع خارج تركيا كان فرعا باريس وجنيف من اهم مراكز « تركيا الفتاة ». وفي جنيف اصدرت « تركيا الفتاة » من جملة ما اصدرته ، جريدة اسمها « عثمانلي » (Osmanli) . وقد جاء في اول عدد للملحق الانكليزي ، والمؤرخ في ١٥ تموز ، ١٨٩٨ ما يلي : « اننا نرغب في ان تكون هذه الجريدة منبرا يعبر عن المطالب الشرعية الحقة التي يطالب بها جميع العثمانيين بقطع النظر عن العرق او الدين . واما مطلبنا فهو مزيد من الاصلاح الضروري ، وليس الاصلاح الضروري المتقطع هنا وهناك ، وانما نريد اصلاحاً شاملا يتناول الامبراطورية كلها ...» وفي آخر هذا العدد الذي نتكلم عنه مقال يهاجم به صاحبه السلطان عبد الحميد بلغة عنيفة : « من بين جميع السلاطين الذين تسنموا عرش الامبراطورية العثمانية ، عبد الحميد هو السلطان الوحيد الخانع الحقير » .

(٥٥) راجع : F.O. *Further Correspondence Respecting the Affairs of Egypt*, *Egypt*, 1902, Part LX, Documents 44, pp. 114, 116-9: The Earl of Cromer to the Marquess of Lansdowne, dated Cairo, April 11 and 14, 1902.

(٥٦) راجع : Knight, p. 93

(٥٧) يحسن بنا ان نشير إلى اهمية « التلغراف » الذي ادخل حديثاً إلى تركيا ، كأداة سريعة للمواصلات ، والدور الذي كان له في انجاح الثورة . كانت البرقيات التي يبعث بها السلطان من قصر يلدز ضد اعضاء جمعية الاتحاد والترقي تقع فوراً في ايدي موظفين في ادارة البرق والسكك الحديدية كانوا اعضاء في هذه الجمعية . كان طلعت باشا – وهو احد زعماء الثورة – الوكيل العام لمكتب البرق في مدينة موناستير . وقد ارسلت برقية إلى السلطان نفسه يهدده بها مرسلوها قائلين له اذا لم يعد دستور سنة ١٨٧٦ فان جيش سالونيكا سيزحف إلى الاستانة .

(٥٨) راجع انيس الخوري المقدسي – الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ٣٤ – ٣٧ .

يقول الاستاذ المقدسي :

« وباعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين عموماً وابناء العربية خصوصاً نشوة حبور لم يعهد لها مثيل فعقدوا الحفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر .

وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بحسنات الانقلاب واعمال القائمين به . ولا نبالغ اذا قلنا انه ما من حدث حرك الاقلام العربية كهذا الحدث العظيم فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال وعرف باختباره شعور الناس وشاركهم غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة . خذ سوريا ولبنان مثلا وراجع صحفهما لذلك العهد فتدرك عمق ذلك الانفجار الادبي فيهما . ويكفي ان نلمح هنا إلى قصائد عبدالله البستاني ، ومحي الدين الخياط ، وشكيب ارسلان ، والياس فياض ، ونقولا فياض ، وفارس الخوري ، وامين ناصر الدين ، وعبد الرحمن سلام ، ومصطفى الغلاييني ، وشبلي ملاط ، وبشارة الخوري ، وسواهم من شعراء الوطن ، وسعيد شقير ، واسعد رستم ، والشاعر القروي ، وشبل دموس ونعوم مكرزل وامثالهم في مصر والمهاجر الغربية . هذا فضلا عن عشرات الاناشيد الوطنية والازجال العامية التي لبست من البيان مسحة لم نعهدها في عهود الاستبداد .

وما يصدق على سوريا ولبنان يصدق على العراق ايضاً . وهناك الزهاوي ، والرصافي ، والدجيلي ، والعبادي ، والشبيبي ، والهنداوي ، والازري ، والعبيدي ممن شهدوا هذا الانقلاب وكان كلامهم معبراً عن عواطف الامة .

وقد رسم لنا الزهاوي يومئذ صورة لبغداد تعد مثلا صادقاً لجميع المدن العثمانية . قال :

وقفت والعين تبكي من مسرتها ... امام شعب من الافراح عجاج
امام بحر من الافكار مضطرب ... امام جيش من الاصوات رجراج
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها ... كالبحر يضرب امواجاً بأمواج »

(٥٩) Jessup, Henry Harris, *Fifty-Three Years in Syria* vol. II, pp. 785-787.

جاء في المقتطفات البريطانية الرسمية المأخوذة عن التقرير السنوي حول تركيا لسنة ١٩٠٨ ما يلي : « يكاد يستحيل على المرء ان يقارن بين التقارير التي وصلت إلى هذه السفارة حتى اول تموز حول الوضع في سوريا ، وبين التقارير التي وصلتنا في الشهور المتبقية لتلك السنة . المفارقة بين هاتين المجموعتين من التقارير كبيرة جداً .

« في الشهور السبعة الاولى لا يجد المرء سوى الشكوى من كل نوع ، الشكوى من فقدان العدالة ، من الرشوة والفساد ، من الوالي نفسه (الذي يعتبرونه المجرم الاول) إلى ادنى موظف في الدولة . ولم يكن في البلاد أمن ، وكان التهريب على قدم وساق ، والغريب انه كان يجري بطريقة منظمة .

بعد اربعة اشهر من تسلم ناظم باشا ولاية سوريا أفلح في ضبط سير الادارة الحكومية في دوائرها المختلفة ، وادخل تحسيناً ملموساً في كفاءة الشرطة والجندرما مما كان له احسن النتائج المرضية في حكم البلاد . فاستتب الأمن وتوقفت جميع اعمال التهريب ، تهريب الاسلحة والتبغ والتمباك ، وكل ذلك جرى بدون ان يتدخل الجيش » .

راجع : Gooch, & Temperly vol. V p. 303

(٦٠) تدنت شعبية السلطان في فترة من الفترات ، وقل احترام الناس له حتى انه لم يعد يحضر صلاة الجمعة – وهي الصلاة التي كانوا يسمونها « السلاملك » في المسجد الحميدي . بعد ان منح الدستور تبدل كل شيء ، واصبح على الحرس السلطاني ان يحمي السلطان من حماسة الشعب ....» راجع : *The Illustrated London News*, April 22, 1908, p. 264

(٦١) المصدر ذاته

(٦٢) للاطلاع على ثورة سنة ١٩٠٨ ، وعلى جلسة البرلمان وخطاب عبد الحميد الذي افتتح به البرلمان راجع : Stitt, George, *A Prince of Arabia*, pp. 95-101

« دخل السلطان عبد الحميد قاعة الاجتماع وهو محدودب شاحب اللون وتقدم ببطء نحو كرسي العرش وراح يلقي نظرة عامة على جمهور الحضور وهو بحالة من التوتر العصبي . وقف الحضور وحيوا السلطان الذي رد التحية ، ثم اشار إلى سكرتيره ان يقرأ خطاب العرش .... » ومن جملة ما قاله السلطان « ... الآن ، وقد بلغ شعبنا درجة عالية من الوعي والتقدم الفكري فاننا مقتنعون ان الوقت قد حان لمجلس الامة ان يجتمع كضمانة لخير بلادنا وازدهارها الآن وفي المستقبل ... وقد وطدنا العزم الأكيد على ان نحكم البلاد بموجب القانون والدستور ، وعزمنا هذا لا رجوع عنه (تصفيق) ونضرع إلى الله ، سبحانه ان يكون في عوننا كي ننجح في مساعينا لخدمة الوطن وخيره . المصدر ذاته ص ٩٩ – ١٠١ .

(٦٣) وقد اصدر شيخ الاسلام فتوى شرعية موافقة للقرار وتصديقاً له .

(٦٤) طلب السلطان ان يسمح له ان يقضي بقية حياته في قصر جيراغان على الشاطىء الاوربي للبوسفور ، ولكن طلبه رفض – وفي سنة ١٩١٢ ارجع إلى قصر بيلربي في استانبول على البوسفور حيث مات في العاشر من شهر شباط سنة ١٩١٨ . من اراد الاطلاع على حياة عبد الحميد في ساعاته الاخيرة التي قضاها في قصر يلدز فليراجع كتاب *Babam, Abdulhamid* الذي الفته ابنته عائشة عثمان اوغلو ، ونشر في استانبول في سنة ١٩٦٠ .

الفصل الخامس

(١) Heyd, Uriel, *Foundations of Turkish Nationalism*

يقول هنري مورغنتو (Henry Morgenthau) ، السفير الاميركي ، عن اعضاء تركيا الفتاة « انهم لم يكونوا دولة بالمعنى الصحيح ، بل كانوا حزباً غير مسؤول ، او نوعاً من الجمعيات السرية التي تسلمت الوظائف الحكومية العالية عن طريق الدسائس والترويع والاغتيال . » وللاطلاع على كامل رأيه في هذه

الجمعية راجع : Morganthau, Henry, ... *Ambassador Morgenthau's Story* (New York, 1918), pp. 11-19.

(٢) « لم تعرف تركيا الفتاة حتى كيف تكسب ثقة السكان العرب ، مع العلم ان العرب المسلمين كانوا اكثر سكان الامبراطورية عدداً . وفي هذه الفترة كانت القبائل السورية والعراقية في حالة غليان مستمر وكانت حركة الاستقلال الذاتي في نمو متزايد بين المثقفين من الشباب العرب » — Mandelstam, A., *Le Sort de l'Empire Ottoman*, p. 30 : راجع

(٣) « في حلب تعرفت إلى تركيا ، تركيا الجديدة التي برزت إلى الوجود في ٢٤ تموز ، سنة ١٩٠٨ . لم يكن هناك من اوربي واحد ، ولست استثني الاوربيين الذين كانوا يعطفون العطف كله على النظام التركي الجديد ، يستطيع ان يقول انه يعرف الرأي العام ، فيما يتعلق بالنظام الجديد ، خارج الاستانة وسالونيكا . ان الحوادث المثيرة التي وقعت في الشهور الستة المنصرمة لم تكن واضحة المعالم ، ولم يكن امرؤ يستطيع ان يقول انه ادرك مغزاها وملابساتها . فانني انا مثلا ، ما ان وصلت إلى بيروت حتى رحت اطبق نظرياتي الاوربية ، وافتش عبثاً عن القيم التي تتضمنها شعارات الثورة كما يفهمها الشرقي لا كما افهمها أنا . فانني جالست في حلب رجالا عديدين يمثلون اعلى الطبقات الاجتماعية وأدناها ، من العالم الجليل إلى العامل البسيط ، وعندها استطعت ان ادرك جانباً مما كان يجول في افئدة الناس في آسيا من امل وخوف وحيرة . فلقد اشتركت جماهير الناس باقامة حفلات ومهرجانات حماسية احتفاء باعلان الدستور — وكانت فترة مضمخة بالآمال ، وبالأحلام الشاردة. اذ بدا للناس ان مشاكل الامبراطورية العثمانية المتأصلة الجذور قد حلت بضربة قلم . ولكن سرعان ما خفت الحماسة وعاد الناس من عالم الاحلام إلى عالم الواقع المرير حتى ظهر لهم ان طبيعة الانسان هي هي لم يطرأ عليها تبديل . فانقلب الرأي العام . فانهم كانوا يترقبون تغييراً وتبديلا ولكن التغيير كان بطيئاً ، فوقعوا في حيرة ، وداخلتهم المخاوف من ان يتبدل كل شيء وهم في غفلة من امرهم . ولكن خفت مظالم الحكم حيناً وكان لهذا اثر في نفوس الناس هنا وهناك ، ولكن الناس لم يشعرو بالطمأنينة والأمن . نعم ، شعروا بشيء من الحرية الشخصية ، وزال عنهم شبح الجواسيس في الدوائر الرسمية فزال الخوف عن المحكوم عليهم بالنفي من قبل السلطان عبد الحميد إلى عواصم الولايات النائية ، لعلة ما او لغير علة . وظهرت جرائد جديدة ، ودخلت الكتب الاجنبية والجرائد حوانيت باعة الكتب بدون رقابة البريد . والقيود القاسية الصبيانية التي فرضها السلطان على المسيحيين من رعاياه زالت ، كذلك رفع عن الأرمن فرض الاقامة الجبرية في مكان معين واصبحوا احراراً يقيمون حيث يشاؤون ويسافرون إلى حيث يشاؤون ...

وكنت تسمع الناس في كل مجتمع ، مسيحياً كان ام اسلامياً ، يوجهون النقد اللاذع للمعاملات الرسمية الحكومية ، ولكن قل ان تسمع نقداً بناء . فان الحكومة ظلت في نظر الناس قوة مستقلة متسلطة لا تربطها بالمحكوم اية رابطة .

فقد يشكو المرء من ظلمها وجورها فيلعنها كما يلعن العاصفة الثلجية التي تخرب مزرعته ، ولكن هذا المرء لم يشعر انه هو مسؤول عن هذه الحكومة ، او انه يستطيع اسداء النصح لها او كبح جماحها ، بل كان يقف مكتوف اليدين تماماً كما يقف ازاء العاصفة الثلجية التي لا يد له فيها ، انما يلعنها . وكثيراً ما رحت افتش عن تلك الخاصة التي يتميز بها الانكلوسكسون ، اعني تحملهم المسؤولية العامة فيما يتعلق بشؤون الدولة ، فلم اجدها . وانما استطيع ان اقول ان شيئاً من هذه الخاصة يتميز بها المجتمع التركي الريفي والنظام القبلي عند العرب والأتراك . ولكنها لا تتعدى الامور الصغيرة المحلية ، ولكن عندما كنت اسأل عن هذه الناحية ، ناحية مسؤولية الفرد تجاه الحكم ، كنت اسمع الاجوبة لا تختلف عن جواب فتوح عندما سألته مرة عن الانتخابات وكيف انتخب . قال لي : « تعرفين ، سعادتك ، اني سائق عربة فما لي وللحكومة ؟ غير اني اقول لك ان الحكومة الجديدة ليست بأفضل من الحكومة القديمة. فها هي حلب، هل يسود فيها العدل اكثر من ذي قبل ؟ والله لا .... » راجع : Bell, Gertude Lothian, *Amurath to Amurath* pp. 3-5

(٤) راجع : *Handbooks*, No. 96c & d, pp. 21-22

(٥) Gooch and Temperly, vol. IX, Part I (No. 38), Confidential, enclosure in F.O. 371/1014, pp. 208-209.

(٦) المصدر ذاته F.O. 371/1014 (No. 635) Confidential, p. 207

(٧) راجع : Handbooks, No. 96a & b, p. 68

(٨) المصدر ذاته ص ٥٦ — ٦٦

(٩) المصدر ذاته ص ٦٨ نقلا عن *Mechroutiette*

(١٠) المصدر ذاته ص ٦٨ — ٦٩ (Paris, December, 1913) p. 58

(١١) Paris, Bibliothèque Nationale, Library index No. 80 2g/779

(١٢) راجع : *Handbooks*, No. 96 a & b, p. 67

(١٣) راجع : *Handbooks*, No. 96 c & d, p. 18

(١٤) Seton-Watson, *the Rise of Nationality in the Balkans* (London, 1917), pp. 135-136

ويضيف ستون — وتسون قائلا : « ان اصحاب العقول المحركة وراء الحركة فقد كانوا يهوداً او مسلمين من اصل يهودي . واما العون المالي فكان يجيئهم عن طريق « الدونمة » ويهود سالونيكا الاثرياء ، كما انه كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدولية او الشبيهة بالدولية — من فينا وبودابست وبرلين وربما من باريس ولندن .» المصدر ذاته ، ص. ١٣٤—١٣٥ .

«كان يهود سالونيكا ، ويعرفون « بالدونمه » (اي المرتدون) شركاء الثورة التركية الحقيقيين . وهؤلاء هم من العرق اليهودي ولكن معتقدهم قد لا يكون يهودياً اصيلا . والاعتقاد الشائع بين الناس هو انهم مسلمون بالاسم

اما بالفعل فانهم من اتباع توراة موسى .... وفي تلك الفترة التي نحن بصددها لم يعرف احد من الناس شيئاً عنهم سوى قلة من العلماء المختصين بدراسة الشرق الادنى ، ولم يكن احد من الناس يجرؤ ان يتنبأ ان هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة « بالدونمه » ستلعب دوراً رئيسياً في ثورة كان لها نتائج خطيرة في سير التاريخ . » راجع : ص ١٥ – ١٦ Herbert, Aubrey, *Ben Kendim*,

(١٥) يعتقد ان الفكرة مستمدة من كتاب لعالم افرنسي : M. Léon Cahun - *Introduction à l'histoire de l'Asie: Turcs et Monogols dès origines à 1405.*

حيث يرى « كاهون » ان « الطورانيين » كانوا فيما مضى من الزمن شعباً ذكياً ممتازاً لكنه اخذ بالتقهقر والانحلال عندما تخلى عن الخصائص التي كان يتميز بها في صحارى آسيا الوسطى واعتنق الاسلام ديناً وحضارة . ويقال ان الدكتور ناظم ، وكان عضواً بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي ، اعتنق « الطورانية » مذهباً بعد اطلاعه على هذا الكتاب الذي اعاره اياه القنصل الافرنسي العام في سالونيكا – راجع : *Handbooks*, No. 96 d & c, p. 23 n. 1
راجع ايضاً امين احمد ، ص . ١٨٧ – ١٩٩

(١٦) وهو اسم مستعار يخفي وراءه اسم كاتب يهودي من سالونيكا : البرت كوهين (Albert Cohen) .... راجع *Handbooks*, No. 96 c & d, p. 18

(١٧) بالإضافة إلى عدد من المقالات التي ظهرت له في الصحافة التركية ، فان اقجورا اوغلو (Akçuraoglu) نشر *Uç Terzi Siyaset* (القاهرة ١٩٠٣ ، اسطنبول ١٣٢٧ هجرية) .

(١٨) Heyd, See also Hostler, Charles W., *Turkism and the Soviets*, (London, 1957), pp. 115-146

(١٩) لمراجعة مقتطفات من كتاب « قوم جديد » انظر المنار ، المجلد ١٧ ، الجزء ٧ ، حزيران ١٩١٤ ، ص ٥٣٩ – ٥٤٤ .

(٢٠) Toynbee and Kirkwood, *Turkey*, p. 57.
ويضيف توينبي (Toynbee) وزميله كركود (Kirkwood) قائلين : « يتضح لنا مغزى هذه الدعاية اذا تذكرنا ان ثلثي الشعب الذي يتكلم التركية في العالم كله لا يقطن البلاد التركية ، بل نجده داخل الحدود الروسية ، فكأن القصد من الحركة الطورانية هو ان تكون عاملا في تقويض الامبراطورية الروسية . » ص ٥٧

(٢١) *Handbooks*, No. 96 c & d, pp. 45-47
للاطلاع على السياسة المناوئة للعرب وللاسلام التي كانت تنتهجها جمعية الاتحاد والترقي راجع النصوص العربية في كتاب ثورة العرب (المؤلف مجهول) ص ١٣٨ – ١٦١ .

(٢٢) الهلال ، مجلد ٢٧ ، جزء ٧ نيسان ١٩٠٩ ص ٤١٥

(٢٣) تقسم القبائل العربية في الجزيرة العربية ، بوجه عام ، إلى قسمين رئيسيين :

عرب الشمال وعرب الجنوب . اما عرب الشمال فيعرفون بالعدنانيين ، والجنوبيون يعرفون باليمنيين . وبموجب رأي النسابين العرب كان قحطان الجد الاعلى لليمنيين .

(٢٤) من اراد مزيداً من الاطلاع على هذه الجمعيات ومؤسسيها واهدافها ونشاطها عليه ان يراجع سعيد ، أ : الثورة العربية الكبرى ، القاهرة بدون، تاريخ، المجلد الاول ص ٦ – ٥٠ وانطونيوس ص ١٠٧ – ١٢١

(٢٥) انطونيوس : ص ١١١

(٢٦) المصدر ذاته ص ١٠٩

(٢٧) يذكر جورج انطونيوس في كتابه باللغة الانكليزية : *The Arab Awakening* (ص ١١١ ، هامش ٢) ان توفيق الناطور « اعدم شنقاً على يد الاتراك في اثناء الحرب .... » والواقع ان المجلس العرفي الذي كان يلتئم في عاليه اصدر عليه حكماً بالاعدام شنقاً . ولكن اطلق عليه الرصاص وهو على باب زنزانته في السجن فجرح جرحاً خطيراً.وعندما حان وقت شنقه كان في المستشفى العسكري في بيروت . وعليه نفي بقية حياته إلى قرية نائية في الاناضول . والمؤلف مدين لتوفيق الناطور في كثير من المعلومات القيمة التي أمده بها حول جمعية تركيا الفتاة .

(٢٨) حرف الضاد هو الحرف الخامس عشر في حروف الهجاء العربية ويعتقد العرب ان ليس هناك من امة لها في هجائها هذا الحرف. ولذا يكون النطق بالضاد نطقاً صحيحاً من المقاييس التي يعرف بها العربي من الاعجمي .

(٢٩) راجع عثمان العظم ، مجموعة آثار رفيق بك العظم ، ص ١٣٦ – ١٤٤

(٣٠) راجع Edib, Halidé, *Conflict of East and West in Turkey* (lahore, India, 1935) p. 98

(٣١) راجع : Heyd, p. 131

(٣٢) راجع ايضاً المنار المجلد ١٦ الجزء ٧ (في ٤ تموز ١٩١٣) ص . ٥٤٧

(٣٣) الهلال المجلد ١٧ ، ص ١٧ – ٢٦ وراجع كذلك – Tunaya ص ٣١٥– ٣٤٤ .

(٣٤) Mandelstam, pp. 14-16

(٣٥) كان رئيسها رفيق بك العظم وهو من عائلة دمشقية معروفة . توفي سنة ١٩٢٥ . للاطلاع على تاريخ الجمعية ودستورها ومنهاجها راجع المنار ، المجلدين ١٦ ، و ١٧ ، ١٩١٣ – ١٩١٤ ، وفيها مقالات بقلم محمد رشيد رضا وغيره . وراجع : سعيد ، المجلد الاول ص ١٤ – ١٨ ،انطونيوس، ص . ١٠٩ – ١١٠

(٣٦) راجع المنار ، المجلد ١٦ الجزء ٣ (٨ آذار ١٩١٣) ص . ٢٢٩ – ٢٣١

(٣٧) Pears, Sir Edwin, *Forty Years in Constantinople*, p. 271

(٣٨) راجع مذكرات الدكتور عبد الرحمن شهبندر المنشورة تحت عنوان الثورة الوطنية (دمشق ١٩٣٣) ص ٢ – ٣

(٣٩) راجع الايات القرآنية في سورة « يوسف » الاية (١) وسورة « الشعراء »

الاية ١٩٤ وسورة « فصلت » الاية ٤٣ .

(٤٠) ولم يتحد النبي الأنس ليأتوا بمثله بل الجن ايضاً : « قل ان اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . » سورة الأسراء ، الاية ٩٠ .

(٤١) وقبل هذا بأعوام قليلة حاول جمال الدين الافغاني عبثاً ان يقترح على السلطان عبد الحميد استبدال التركية باللغة العربية « لغة الدين الحنيف » اي الاسلام . وكان يقول له انه اذا فعل هذا فان الامبراطورية العثمانية كدولة اسلامية ، والسلطان كخليفة للمسلمين ، يزدادان قوة ومنعة ونفوذاً في العالم العربي والاسلامي . وكان جمال الدين الافغاني يعتقد ان الاتراك يقترفون خطأ مميتاً اذا ما حاولوا تتريك العرب — المخزومي ، م : خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

ان جميع زعماء الاصلاح من العرب ، وجميع الجمعيات الاصلاحية كانوا ينادون بضرورة جعل اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية الداخلة في الامبراطورية العثمانية . راجع الهلال مجلد ١٨ ، الجزء الثالث ، شهر كانون الاول ، ١٩٠٩ ص ١٦١ — ١٦٣ ، والمقتبس مجلد ٤ ، جزء ٢ (دمشق ١٩٠٩) ص ١٠٩ — ١١٢ .

(٤٢) في شهر كانون الاول ، ١٩١٢ ، بعث والي بيروت ببرقية إلى حكومته يقول فيها : لقد وقعت هذه المنطقة تحت مؤثرات وتيارات عديدة . ومن اجل تحسين الاحوال التي لم تعد تطاق اتجهت انظار فئة من السكان إلى بريطانيا او إلى فرنسا . واني ارى اننا اذا لم نبادر إلى تحسين الحالة فوراً فاننا سنخسر البلاد . » خير الله ، ص ٣٩ .

(٤٣) كان من بينهم « ٤٢ مسلماً و ١٦ من الروم الارثوذكس و ١٠ (١٢ ؟) من الموارنة و ٦ من الروم الكاثوليك واثنان من الانجيليين واثنان من السريان الكاثوليك واثنان من الارمن الكاثولياك واثنان من الطائفة اللاتينية ويهوديان . »
F.O. 195/2451 - Despatch No. 8 of British Consul - General Cumberbatch to the British Ambassador in Constantinople, Sir Gerard A. Lowther, dated Beirut, January 24, 1913.

(٤٤) وهم مختار بيهم ، الدكتور ايوب ثابت ، سليم علي سلام ، خليل زينية ، جان تويني ، كامل الصلح ، بترو طراد ، محمد ابراهيم الطياره ، ابراهيم حكيم ، احمد حسن طباره ، محمد الفاخوري ، جان نقاش ، رزق الله ارقش ، سليم البواب ، حسن الناطور ، جميل الحسامي ، جرجي رزق الله ، البر بسول ، حبيب فرعون ، عبد الحميد الغندور ، البر يوسف سرسق ، عبد الباسط فتح الله ، يوسف الهاني ، فؤاد حنش ، جان بسترس . —
راجع المقطم ، عدد ٧٢٣٨ ، السبت في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩١٣ ، ص ١

(٤٥) راجع المنار ، مجلد ١٦ جزء ٤ ، نيسان ٧ ، ١٩١٣ ص ٢٧٥ — ٢٨٠

(٤٦) F.O. 195/2451 Despatch No. 26

(٤٧) F.O. 195/2451 - Despatch No. 28 of March 27, 1913
بعث مراسل جريدة « الطان » *Temps* الافرنسية في بيروت في ١٨ آذار ، برسالة إلى جريدته جاء فيها : « دعي شكري بك عسلي ، نائب دمشق السابق ، واحد زعماء الاصلاح في مدينة دمشق ، إلى بيروت لمقابلة الوالي الذي اقترح عليه قبول منصب نائب حاكم اللاذقية . فأجاب عسلي بك قائلا : انها ليست قضية مناصب تدر علينا المنافع تلك التي نسعى نحن العرب وراءها انما نحن دعاة اصلاح جوهري ضروري تقوم به الدولة العلية .

« وهذه الكلمة التي رد بها عسلي بك على كلام الوالي هي التي يرددها السوريون والسكان الضاربون على ضفاف الفرات وشواطىء البحر الاحمر . »
خير الله ، ص ٤٠

(٤٨) 195/2451, Despatch No. 31 . راجع ايضاً جريدة المقطم عدد ٧٣٠٨ ، نهار الجمعة في ١١ نيسان سنة ١٩١٣ ص ٣ . وقد جاء في الأمر الذي اصدره الوالي الجديد ، حازم بك ، ان تأسيس « جمعية الإصلاح » مخالف للقانون المتعلق بشأن تأسيس الجمعيات . ان هذا القانون ، بحسب نصه يمنع قيام مثل هذه الجمعية ، وبعض المطالب التي يطالب بها اعضاؤها تخالف نصوص الدستور . مثال على ردة الفعل في الصحف في بيروت التي اكتفت بنشر الأمر في الصفحة الأولى فقط. راجع لسان الحال عدد ٧٢٠٧ في ٩ نيسان سنة ١٩١٣ . وتجد صورة فوتغرافية لهذا الأمر في ملحق هذا الكتاب .

(٤٩) عندما امر الوالي باقفال نادي جمعية الاصلاح البيروتية ذهب بعض اعضائها إلى القنصلية البريطانية ومن ثم إلى القنصلية الفرنسية ليحتجوا على عمل الوالي . وفي القنصلية البريطانية قيل لهم انهم يستطيعون ان يعقدوا اجتماعاتهم في قاعة الكلية السورية الانجيلية (وهي الآن الجامعة الاميركية في بيروت) لانهم ، في تلك الحقبة من الزمن ، كانوا يعتبرون مجتمعين على ارض اجنبية حيث يكون لهم ملء الحرية بعقد اي اجتماع من اجتماعات الجمعية هناك . وقد وافق القنصل الفرنسي على هذا التدبير ونصح لهم ان يتصرفوا بموجبه . وعليه « عقدت جمعية الاصلاح في قاعة المدرسة الاميركية بناء على رغبة الشعب الذي الح عليها في عقد جلستها والاقرار على خطة يتبعها البيروتيون ازاء فعل واليهم. فتقرر بعد مناقشات طويلة الاتفاق على اقفال محلاتهم ومخازنهم لتوقيف الحركة المالية والتجارية في ذلك الثغر التجاري .

« نزل قرار الجمعية برداً وسلاماً على قلوب الاهلين واصبحت المحلات التجارية يوم السبت وكلها مقفلة لا يرى المار في شوارع بيروت الا بعض الحوانيت الصغيرة فاتحة ابوابها ... » — المقطم، عدد ٧٣١٢، في ١٦ نيسان ١٩١٣ ، ص ١٠٢

(٥٠) « نشر في ملحق المقطم الذي وزعناه امس صباحاً صورة التلغراف الذي اتانا من بيروت وهو :
بيروت السبت في ١٢ ابريل

اقفل جانب من مخازن بيروت وعطل بعض الاعمال فيها احتجاجاً على امر الوالي بالغاء الجمعية الاصلاحية

المحامي توفيق الناطور
سعدالله عيتاني

« ولما وقف حزب اللامركزية الادارية في مصر على ما جرى في بيروت اجتمعت لجنته العليا، وارسلت تحتج إلى فخامة الصدر الأعظم بهذا التلغراف :

« ان مصادرة والي بيروت لجمعيتها الاصلاحية في عملها القانوني استبداد منكر مضيع لآمال الامة وموجب للتقاطع بين الهيئتين فتداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله ولا تسنوا الشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين » .

رفيق العظم

– المقطم ، عدد ٧٣١٠ ، في ١٤ نيسان سنة ١٩١٣ ، ص ٥

(٥١) هذا نص الجواب الذي بعث به الصدر العالي ، سعيد باشا ، على البرقية الموقعة من قبل ١٣٠٠ من اعيان بيروت والمرسلة إلى والي بيروت : « لقد تسلمنا برقية من بيروت موقعة من قبل عدد غفير من السكان يطلبون فيها من السلطة ان تسمح لجمعية الاصلاح بعقد اجتماعاتها من جديد . اذا شاء الأهلون ان يطلبوا مطالب تتعلق بالاصلاح عليهم ان يتقدموا بمطالبهم هذه إلى مجلس المبعوثان ، واذا وافقت الاكثرية في مجلس الاعيان على استعداد لتحقيقها . اما اذا شاء الاهلون ان يؤسسوا جمعيات وان يتقدموا بمطالب تخالف الدستور والقوانين المعمول بها فان الحكومة ليست على استعداد ان تنظر في مطالبهم . Aboussouan, Benoît, *Le Problème Politique Syrien*, p. 61.

راجع ايضاً المقطم عدد ٧٣٠٩ ، السبت في ١٢ نيسان سنة ١٩١٣ ، وعدد ٧٣١٤ ، نهار الجمعة في ١٨ نيسان سنة ١٩١٣ ، وخير الله ، ص ٤٠

(٥٢) راجع لسان الحال، عدد ٧٢٧٥، نهار السبت في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٣، ص ٢

(٥٣) كانت اللجنة التي قامت بتنظيم المؤتمر والإعداد له تتألف من « الجالية العربية » في باريس اي من السوريين واللبنانيين المنتخبين التالية اسماؤهم . شكري غانم ، عبد الغني العريسي ، ندرة مطران ، عوني عبد الهادي ، جميل مردم ، شارل دباس ، محمد محمصاني ، وجميل معلوف . اما الذين يمثلون حزب اللامركزية فكانوا : عبد الحميد زهراوي واسكندر عمون . وكان وفد الجمعية الاصلاحية البيروتية يتألف من سليم علي سلام واحمد مختار بيهم وخليل زينية والشيخ حسن طباره والدكتور ايوب ثابت والبرت سرسق . ووجهت الدعوة ايضاً إلى وجيهين من بعلبك هما محمد وابراهيم حيدر . وقد مثل العراق توفيق السويدي وسليمان عنبر ،وكانا يعيشان في باريس . وقد حضر المؤتمر ايضاً اربعة ممثلين عن المهاجرين السوريين واللبنانيين في الولايات المتحدة والمكسيك. راجع المؤتمر العربي الاول ص ، ٣ – ٨ و ص ١٤ – ١٦ .

(٥٤) المصدر ذاته ، ص ١٠

(٥٥) للاطلاع على المقررات التي اتخذها المؤتمر راجع باب الملاحق في هذا الكتاب. كذلك

Khairallah, K.T., *Les Regions Arabes Libérées*, pp. 48-54.

(٥٦) المؤتمر العربي الاول ، ص ١٠٣ – ١٠٤

(٥٧) حاول شريف علي حيدر – وكان رجلا يحترمه الاتراك لانه اخلص لهم ، وفي الوقت ذاته كان يشعر بعطف على قضية العرب ومطالبهم الحقة – ان يوفق بين وجهتي نظر الفريقين . فنصح زعماء جمعية الاتحاد والترقي ان يذعنوا لبعض المطالب العربية . – راجع المنار مجلد ١٦ ، جزء ٨ في ٢ آب سنة ١٩١٣ ص ٦٣٦ – ٦٣٩ ، وراجع مذكرات جمال باشا "*Memories of a Turkish Statesman*" ص ٥٨–٥٩. فيما يتعلق بشريف علي حيدر راجع Stitt, George, *A Prince of Arabia*: The Emir Shereef 'Ali Haidar (London, 1937)

(٥٨) المقطم عدد ٧٣٨٨ ، نهار الثلاثاء في ١٥ تموز ، ١٩١٣ ، ص ٥ . راجع ايضاً المؤتمر العربي الاول . .

(٥٩) المقطم عدد ٧٤١٢ نهار الثلاثاء في ١٢ آب ، ١٩١٣ ، ص ١ . راجع ايضاً داغر ، اسعد : مذكراتي ، ص ٦١ ، ٦٢

(٦٠) داغر ، اسعد – ص ٦٢ – ٦٣

(٦١) « ... وفي ٢٣ اغسطس حظي اعضاؤه بمقابلة السلطان محمد رشاد فاعربوا له عن تعلق العرب بالعرش العثماني ورجوا منه ان يأمر الحكومة بتنفيذ الاصلاح على جناح السرعة لانه هو الطريق الوحيد لترقية البلاد وانماء ثروتها واسعاد سكانها . فشكرهم ووعدهم خيراً . » – داغر ، ص ٦٣

(٦٢) « ... وفي ٢٧ اغسطس زار اعضاء الوفد ولي العهد فقابلهم بعطف وحفاوة عظيمين وخطب سليم سلام بالتركية معرباً عن تعلق العرب بسموه لما يسمعونه عن محبته لهم . ثم عقبه عبد الكريم الخليل فتكلم بالمعنى نفسه . وخطب احمد طباره بالعربية فاستهل كلامه بهذه العبارة :

اخاطب سموكم بلسان عربي مبين . لسان القرآن الكريم والنبي العربي العظيم القائل « من احب العرب فيجبن احبه » . وقال : ان ما سمعه عن حب سموه للعرب تحققه هو الان بنفسه ، وتمنى لو يزور سموه سورية . فشكر سموه للوفد هذه العواطف شكراً جزيلا ووعد بان يبذل قصارى جهده لاصلاح الحال في البلاد العربية .

« واولمت جمعية الاتحاد والترقي في مساء يوم الاربعاء ٢٧ اغسطس وليمة شائقة للشبيبة العربية دعت اليها وفد الاصلاح وجميع الوزراء العثمانيين وبعض عظماء الترك والعرب في الاستانة ولما فرغوا من الطعام وقف فتحي بك فتكلم باسم جمعية الاتحاد والترقي قائلا ما ترجمته :

« في اجتماع مضى كهذا الاجتماع تبودلت عواطف السرور بالاتفاق الذي تم بين العرب والترك فاعيد الآن ما ابديته من السرور في ذلك الاجتماع امام اعضاء وفد المؤتمر العربي المؤلف من سليم افندي سلام والشيخ احمد طباره ومختار بك بيهم . واشكر لهم مساعيهم الحميدة وغيرتهم الصادقة . وارجو ان يكون هذا الاتفاق مقدمة عهد سعيد للامة والدولة ... »

« ورد عليه عبد الكريم الخليل بكلمة طيبة ثم تلاه الشيخ احمد طباره فتكلم باسم وفد المؤتمر .... وقال في الختام :

« ويتساءل فريق من الناس ... ايها السادة قائلين : اتظهر الحكومة هذه الاصلاحات من حيز الوعود إلى عالم الوجود ... فالذي اراه انه ليس من مصلحة الدولة البر بالوعد فقط ، بل ان تسبق اعمالها اقوالها من الان ، وان تعتمد على الله وعلى نفسها وعلى الامة في انجاح الوطن فتصبح الامة العثمانية على اختلاف مذاهبها يداً واحدة في انهاض الوطن واسعاده . ولنا في عظيم استعداد ابنائنا خير كفيل للنجاح في اقرب آن » المصدر ذاته ص ٦٣ – ٦٥

(٦٣) « اهل العراق العربي» – لمكاتب المقطم من بغداد في ١٨ مارس ١٩١٣ – اهل البصرة ودار السلام (بغداد) قائمون هذه الايام قاعدون يعقدون الاجتماعات ويلقون الخطب في وجوب اجراء الاصلاح ويقولون ان لا اصلاح ولا فلاح الا بمنح اللامركزية للبلاد .

اما في بغداد فالحركة اوسع منها في البصرة بفضل النادي الوطني العلمي الذي يرئسه عطوفة السيد طالب بك النقيب (« بطل العراق العربي ») . فان هذا النادي عقد اجتماعاً حضره جمع كبير ...

– المقطم ، عدد ٧٣٠٢ ، السبت في ٥ نيسان ١٩١٣ . ص ١٠

(٦٤) F.O. 424/240 Part XII - *Further Correspondence Respecting the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia* - enclosures 1 and 2 in No. 13 of Mr. Charles M. Marling's despatch to Sir Edward Grey from Constantinople, on September 25, 1913.

(٦٥) المصدر ذاته رقم ١٤

ويتهم البيان جمعية الاتحاد والترقي بانهم موالون للصهيونية وبانهم يناوئون الاسلام والعرب . يقول البيان : « ... ان جمعية الاتحاد والترقي هي التي كانت وراء الحركة الصهيونية وهي التي اقترحت بيع فلسطين لليهود لتكون لهم وطناً قومياً مستقلا ... ان اعضاء هذه الجمعية ليسوا بمسلمين وحاشا ان يكونوا ، بل انهم كفار خدعوا الاسلام وحاولوا تمزيقه وتقويضه من اساساته ... وهم الذين يحاولون تتريكنا والقضاء على لغتنا العربية ... »

(٦٦) F.O. 424/240, No. 14

(٦٧) المصدر ذاته رقم ١٣

(٦٨) والواقع ان المادة الاولى والثالثة من المنهاج الذي وضعته الجمعية في البصرة يوضح هذه الحقيقة ايضاحاً لا لبس بعده . فان المادة الأولى تقول : « ان وطننا العزيز سيكون ملكية عثمانية يرفرف عليها علم الهلال العثماني . » وتنص المادة الثالثة على « ان الدولة العلية دولة اسلامية على رأس السلطة فيها خليفة المسلمين » . للاطلاع على برنامج جمعية الاصلاح البصراوية راجع : - F.O. 195/2451 Despatch: No. 51 of August 28, 1913,

(٦٩) للمزيد من المعلومات راجع : المقطم رقم ٧٤٣٠ نهار الخميس في ٤ ايلول ،

١١٣ ص ١ وداغر ، اسعد ، « مذكراتي » ص ٦٧ – ٧١ . وداغر نفسه حضر اجتماعاً سرياً عقد في الاستانة في ٧ كانون الثاني سنة ١٩١٤ الغاية منه ازالة سوء التفاهم بين الفريقين واجراء المصالحة العامة . والجدير بالملاحظة توكيد داغر على ان العرب ، في تلك الحقبة ، لم يخطر لهم ببال ان ينفصلوا عن السلطة العثمانية ، بل كان الأمر على نقيض هذا ، فانهم كانوا شديدي الرغبة في تقوية الامبراطورية العثمانية عن طريق تقوية العناصر العربية الداخلة في الامبراطورية ، وعن طريق الاصلاح الضروري في الادارة لحمايتها من الاخطار التي كانت تهدد الامبراطورية بالضعف والانحلال .

(٧٠) F.O. 424/240, No. 13.

(٧١) واليك نص البرقية :

« نحن الموقعين اسماءنا ادناه ، علماء المدينة المنورة ووجهاءها ترامى إلى مسامعنا ان جماعة من الخونة لدينهم عقدوا اجتماعاً في مصر واسسوا جمعية تعرف « باللامركزية » ، وان بعض الصبية الجهلاء بالاتفاق مع بعض الطلبة قرروا عقد مؤتمر في باريس . وفي الواقع ان هاتين الفئتين ليس لهم هدف سوى تركيز النفوذ الاجنبي وترسيخه في سوريا وفي سائر الاقطار العربية . انهم خونة باعوا دينهم ووطنهم .

عسى الله ان يخيب آمالهم في مشاريعهم هذه وان يجازيهم بما يستحقون من قصاص . نحن ، مرسلي هذه البرقية اليكم ، اقرب الناس إلى النبي ، ونحن الزعماء الذين بيدنا سلطة لا يملكها غيرنا من العرب ، نعلن ان هؤلاء الصبية ليس لديهم اية سلطة تخولهم ان يدعوا تمثيل الامة العربية او ان يتكلموا بلسانها . وعليه لا تربطنا بهذه الفئة وشركائها اية رابطة ، ولسنا نطلب مطلباً يخرج عن اطار ما تمنحنا دولتنا العلية – ادام الله عزها – من كرم وعطف نحونا . والدولة هي التي تعلم احسن من غيرها ما تحتاج اليه الامة . والشعب العربي من اخلص الشعوب للسلطان واحرصها على الخلافة . وهذه الامة العربية ليس لها من هدف سوى حماية الاسلام والحفاظ عليه هذا الدين الذي حماه آل عثمان الأماجد وحافظوا عليه طوال ست مئة سنة » .

راجع *La Vérité Sur la Question Syrienne* (الذي نشر غفلا من اسم مؤلفه احمد جمال باشا (في اسطنبول سنة ١٩١٦) ص ٨٧ – ٨٩ .

(٧٢) Marriott, H.A.R. *The Eastern Question* (Oxford University Press, 4th edition, reprinted, 1947) p. 452.

(٧٣) *Handbooks*, No. 96 c & d p. 19 يجب ان نتذكر انه ، بعد الانقلاب العسكري الذي وقع في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩١٣ عندما قتل ناظم باشا وزير الحربية وعندما ارغم كامل باشا ، الصدر الاعظم ، على الاستقالة ، قويت جمعية تركيا الفتاة وتولت مقدرات تركيا .

(٧٤) بعد ان صدر كتاب « قوم جديد » ظهر في الجريدة التركية الشهيرة « اقدام » مقال عنيف ضد العرب ونقد لاذع لهم . وقد احدث المقال ضجة وأثار غضبة

الطلاب العرب الذين كانوا يقيمون في الاستانة . فقاموا بتظاهرة وساروا إلى مكتب تحرير جريدة « الاقدام » وهاجموا البناية بالحجارة وكسروا زجاج نوافذها . ثم اصدروا بياناً وبعثوا بنسخة منه إلى الصدر الاعظم وفيه احتجاج على صدور المقال المهين للعرب . وكان للمقال هذا اثر سيء في نفوس العرب في الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية . وانبرت صحف سوريا والعراق للرد عليه وللدفاع عن العرب . وقد هاجمت الصحافة العربية الاتراك بعنف مظهرين غضبهم واستياءهم الشديد .

راجع الاعظمي : القضية العربية ، ص ١٠٣ – ١٠٩

راجع ايضاً Tunaya ، ص ٣٧٥ – ٣٨٦ .

(٧٥) ان الاستاذ برنارد لوس لا يصدر بحق تركيا الفتاة حكماً قاسياً ، ولكنه يسلم « بأنهم يلامون على امور عديدة قاموا بها » كذلك يقول « ان سجل السنوات العشر ، من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ ، يبدو لاول وهلة ، سجلا قاتماً » ثم انه يتابع كلامه فيقول : « ان الثورة التي قامت بها تركيا الفتاة كانت حركة وطنية قام بها مسلمون اتراك . وكان معظمهم من الجنود الذين كان هدفهم زحزحة السلطان العاجز والاستعاضة عنه بحكومة قوية تستطيع ان تحمي الامبراطورية وتحافظ عليها ازاء الاخطار التي كانت تهددها . اما العثمانيون الرعايا من غير المسلمين فلم يسهموا في الحركة وكان دورهم في الحركة وفي الحكومات المتعاقبة دوراً هزيلا لا شأن له . اما الأجانب فلم يكن لهم اي اثر في هذه الحركة . ولم يكن الضباط الشباب يعنون بالعقائديات ولا بالادوية الاجتماعية المسكنة ، بل كان همهم الاكبر البقاء ، بقاء الامبراطورية العثمانية التي كرس لها آباؤهم واجدادهم جهودهم وولاءهم . وكانت أعمالهم ، وكانت مناقشاتهم تدور حول هذه القضية الأساسية : الابقاء على الامبراطورية ولكن كيف يمكن الأبقاء عليها ؟

« ان اهمية الثورة التي قامت بها تركيا الفتاة – بالرغم من خيبة الأمل التي منيت بها ، وبالرغم من تقصيرها وعجزها – بالنسبة للتطورات التي طرأت على تركيا الحديثة ، هي في الحلول والمخططات التي وضعتها لحل مشكلة بقاء الامبراطورية او زوالها . فانه ، في السنوات القليلة التي نعموا بها بشيء من الحرية بعد زوال حكم عبد الحميد الغاشم ، فسح المجال لهم للبحث والنقاش والاختبار بحرية لم يكن لهم عهد بها من قبل . فراح الكتاب يناقشون في المجلات والجرائد التي عمت البلاد مشكلات الدين والقومية والحرية وولاء الفرد في الدولة العصرية . وراح الاتراك ، بعد قيام النظام التمثيلي الذي جاء في اعقاب الثورة ، يدخلون اساليب جديدة في الحكم والادارة ليختبروا صلاحيتها . وبالرغم من ان هذا الجو الحر في النقاش أسفر عن لا شيء ، وبالرغم من ان التجارب التي قاموا بها انتهت بهم إلى الديكتاتورية فان الثورة جددت الأمل في النفوس وأثارت الرغبة في التجديد وهذا امر لا يمكن انكاره .

راجع : Lewis, Bernard, *The Emergence of Modern Turkey* (Oxford University Press, 1961) pp. 208-209

(٧٦) De Contenson, Avant-Propos, pp. 3 ed. 68

الفصل السادس

(١) راجع : *The Memoirs of Raymond Poincaré* ترجمه وعدل فيه السير جورج ارثر (Arthur) ، لندن ١٩٢٦ ، المجلد الاول، ص ٣٣٦ ، و ٣٣٨ . اما النص الافرنسي لهذه المذكرات فتجده في كتاب *Au Service de la France* (١٠ مجلدات) باريس ١٩٢٦ ..... ١٩٣٢

(٢) راجع Gooch and Temperley, Vol. IX, *The Balkan Wars*, p. 404

(٣) راجع *The Times Documentary History of War*. (London, 1919) Vol. IX, part 3, pp. 3-4

(٤) راجع Gooch and Temperly, Vol. X, Part I, pp. 456-466

(٥) المصدر ذاته ص ، ٤٨١

(٦) راجع Churchill, Winston S., *The World Crisis*, 1911-1918 (London, 1939) Vol. I, p. 495

(٧) راجع *Grey*, E., *Twenty-Five Years*, Vol. II, p. 236: Despatch of Sir Edward Grey to Sir F. Bertie, dated "Foreign Office, March 23, 1915."

(٨) راجع Great Britain, *Mesopotamia Commission*-appointed under an "Act of Parliament" in August 1916 (London, H.M.S.O., 1917) p. 12

(٩) راجع : Temperley, H.W.V., *A History of the Peace Conference of Paris*, Vol. VI, p. 178.

(١٠) Lloyd George, D., *War Memoirs*. (London, 1933-36) Vol. IV, pp. 1802-1803

(١١) ومن الطريف ان نذكر انه قبل بدء العمليات الحربية بعث الشريف حسين برسالة شخصية إلى السلطان محمد رشاد يتوسل فيها اليه الا يدخل الحرب إلى جانب المانيا في حربها ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا . راجع : عبدالله بن الحسين (ملك) ، مذكراتي ، ص ٩٨ – ٩٩ .

(١٢) في الواقع انه كان هناك مجلس نيابي تركي يحكم البلاد ، على الاقل من وجهة نظرية . وكان هذا المجلس هو الثالث بعد اعادة دستور سنة ١٩٠٨ ، وتم انتخابه قبيل نشوب الحرب العالمية الاولى . وعقد اول اجتماع له في ١٤ ايار ، سنة ١٩١٤ ، بحضور السلطان . وكان من بين اعضائه ، وعددهم ٢٤٥ ، ٦٩ نائباً عربياً ، وكان عدد الأعضاء الاتراك ١٤٢ ، اما الباقون فكانوا من الارمن والاروام واليهود. اما من حيث المذهب فقد كان ٢٠٩ منهم من المسلمين و ٣٦ من المسيحيين . الهلال مجلد ٢٢ ، الجزء التاسع ، ١ حزيران سنة ١٩١٤ ص ٧٠٨ .

(١٣) عندما استولت تركيا الفتاة على مقاليد الحكم حاولت الغاء « الامتيازات الاجنبية » (Capitulations) ولكن الضغط الذي مارسته الدول الغربية ، وظروف الحرب في البلقان حالت دون القيام بمثل هذا العمل . ولكن عند نشوب الحرب العالمية الاولى ابلغ الصدر الاعظم سفراء الدول الاجنبية يوم التاسع من شهر ايلول سنة ١٩١٤ عزم الحكومة التركية على الغاء الامتيازات بدءاً من اول تشرين الاول . وقد رفضت الدول الاجنبية قبول هذا القرار ولكن رفضهم لم يغير شيئاً من عزم تركيا على الالغاء وبالفعل الغيت الامتيازات الاجنبية في اليوم المحدد له . وفيما بعد ، الغيت رسمياً بناء على المادة الثامنة والعشرين من معاهدة لوزان ، في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٣ .

(١٤) راجع : Presland, John, *Deedes Bey, A Study of Sir Wyndham Deedes*, 1883-1923, (London, 1942), pp. 139-140.

(١٥) راجع : Churchill, Vol. I, p. 435

(١٦) المصدر ذاته ، ص ٤٣٣ – ٤٣٤

كتب طلعت باشا إلى السيد اوبري هربرت (Aubrey Herbert) عضو البرلمان البريطاني يقول : « صواباً كان ذلك منكم ام خطأ فان الواقع انكم قد صادقتم روسيا ، وهذه كانت سياستكم في بلادكم وفي سفارتكم في الاستانة ... واذا كان الزعماء (عندما قمنا بثورتنا) قد احبوكم فان الجماهير كادت ان تعبدكم ، فانهم عندما رأوا عربة سفارتكم تمر في الشارع حلوا سيور الخيل وجروا العربة انفسهم إلى دار السفارة .... اننا نحن ، تركيا الفتاة ، قدمنا لكم تركيا على طبق ولكنكم رفضتم التقدمة » .

راجع : Herbert, Aubrey, pp. 310 and 312-313

(١٧) « في شهر نيسان ، سنة ١٩١٤ ، جرت مقابلة في القاهرة على غاية من خطورة الشأن حتى اننا للآن لا نقدر خطورتها بالنسبة للحرب وبالنسبة لمصير الشرقين الادنى والاوسط . ذلك ان الامير عبدالله ، وهو الابن الثاني للشريف حسين، شريف مكة ، وصل القاهرة قادماً من استانبول وحل ضيفاً عند خديوي مصر ، واستقبله اللورد كتشنر .... غير ان استانبول اوعزت الينا ان مثل هذه المقابلات غير مرغوب فيها لان الباب العالي غير راض عنها ، لاسيما وانه ينظر نظرة ريبة وحذر إلى المؤامرات العربية في الحجاز وسوريا ... كانت الأحاديث تدور في جو من الغموض ... وفجأة وجدت نفسي أمام سؤال لا يقبل التأويل : هل تقبل بريطانيا ان تزود شريف مكة باثني عشر ، او بستة رشاشات للدفاع ... ضد هجمات الاتراك ؟ ولم اكن بحاجة إلى تعليمات تأتيني من حكومتي للرد على هذا الطلب بل اني قلت له فوراً اننا لا نستطيع ابداً ان نمد احداً بالسلاح لاستخدامه ضد دولة صديقة . وما كان لعبدالله ان يسمع جواباً غير هذا الجواب ، ولذلك افترقنا على احسن ما يفترق صديقان ». Storrs, R. *Orient-ations* pp. 122 - 123 . ويذكر ستورز نص رسالة شخصية بعث بها كتشنر من القاهرة إلى السير و. تيرل (Tyrell) : في ٢٦ نيسان ، ١٩١٤ ، وقد جاء فيها :

« الشريف عبدالله ... وقد ارسل إلى ستورز قائلا انه يريد مقابلته . ان ستورز بناء على تعليمات مني قال له ان عرب الحجاز ينبغي الا ينتظروا منا تشجيعاً وان مصلحتنا الوحيدة في الحجاز لا تتعدى رغبتنا في ان نرى الحجاج من الهند يذهبون إلى الحج بسلام واطمئنان ...»

راجع ايضاً : Gooch and Temperley, Vol. X, pp. 826-829

(١٨) يقول ويفل (Wavell) : « ان فكرة استمالة عرب الحجاز إلى المعسكر البريطاني وضمهم اليه تعود في بادىء امرها إلى اقتراح تقدم به السير جون مكسول (Sir John Maxwell) في شهر تشرين الاول ، سنة ١٩١٤ » . وكان مكسول قائد الجيش البريطاني في مصر في شهر ايلول ، سنة ١٩١٤ راجع : Wavell, A.P. *The Palestine Campaigns* (London, 1928)

(١٩) راجع : Storrs, p. 149

(٢٠) المصدر ذاته ص ١٥٢ . جدير بالذكر ان دعوة كتشنر لعرب الحجاز في مد «يد العون لبريطانيا في مجهودها الحربي» لم تكن دعوة وحيدة من نوعها. يقول لورنس (Lawrence) : « ان عزير المصري ، منافس انور ، والذي كان مديناً بالفضل لمصر ، كان معبود الضباط العرب . فقد اتصل به كتشنر عند بدء الحرب آملا ان يستميل القوات التركية في العراق إلى جانب بريطانيا » .

Lawrence, T.E., *Seven Pillars of Wisdom*, p. 59

اما فيما يتعلق بعزيز المصري الذي توفي في ١٦ حزيران ١٩٦٥ فراجع : Gooch and Temperley, Vol. X part II, p. 832-838

راجع ايضاً : Khadduri,Majid, "Aziz 'Ali Misri" and the Arab Nationalist Movement" in St. Antony's Papers, Number 17: *Middle Eastern Affairs*, Number Four. (Ed. Albert Hourani - Oxford University Press, 1965) pp. 140-165.

وفضلا عن هذا فان الزعيم العراقي طالب النقيب نفسه مع جماعة من النواب العرب ، توسلوا ، سنة ١٩١١ ، إلى الشريف حسين ان « ينفض نير الاتراك عن كواهل العرب ويخلصهم من الظلم والاستعباد » . Khairallah, pp. 32-33

وقد تكرر هذا التوسل سنة ١٩١٥ . « في شهر كانون الثاني ، سنة ١٩١٥ بعث ياسين رئيس الاركان في العراق ، وعلي رضا رئيس الاركان في دمشق ، وعبد الغني العريسي ممثلا السكان المدنيين في سوريا ، إلى الشريف حسين باقتراح محدد واضح وهو القيام بثورة عسكرية في سوريا ضد الاتراك . كان سكان العراق وسوريا المضطهدون إلى جانب اللجنتين اللتين تمثلان « العهد » و « الفتاة » يطلبون اليه ان ينجيهم من دسائس طلعت وجمال بصفته أبا العرب ، وزعيم الاسلام ، واعظم امير عربي ، وأجل نبيل » .

راجع : Lawrence, p. 50

(٢١) عين السير هنري ماكماهون معتمداً بريطانياً في مصر في شهر كانون الاول سنة ١٩١٤ . « كان نحيف الجسم ، اشقر اللون ، صغير السن وان كان عمره

ناهز الثانية والخمسين ، بشوشاً محبباً إلى النفوس ، وعلى غاية من التهذيب وحسن الروية » . Storrs, p. 191

(٢٢) المصدر ذاته ص ١٥٢ . ان المكاتبات التي جرت بين الشريف وماكماهون من ١٤ تموز ، ١٩١٥ إلى ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩١٦ ، تشكل جزءاً من المخابرات السرية المعقدة التي املتها ظروف الحرب القاسية على الحلفاء لكي يربحوا الحرب . وقصة هذه المكاتبات ونصوصها قد ظهرت في عدد من المؤلفات. راجع : Lawrence, chapters IV, V and VI; Antonius, pp. 164-183 and Appendix A, pp. 413-427; Storrs, chapter VIII, *Cmd.* 5957 (Miscellaneous No. 3: Correspondence between Sir Henry McMahon, His Majesty's High Commissioner at Cairo and the Sherif Hussein of Mecca, July 1915-March 1916, London, 1939), and *Cmd* 5974: Report of a Committee set up to Consider Certain Correspondence between Sir Henry McMahon (His Majesty's Commissioner in Egypt) and the Sherif of Mecca in 1915 and 1916 (London, 1939). See also Howard, H.N., *The Partition of Turkey*, pp. 187-193

للاطلاع على هذه المخابرات وعلى المفاوضات مع ابن سعود وشيخ الكويت ، وبصورة عامة على كافة العلاقات بين بريطانيا والشعوب العربية في اثناء الحرب ، راجع : Temperley Vol. VI, pp. 118-133

(٢٣) راجع Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman* pp.137-138.

(٢٤) المصدر ذاته . « ... صرح جمال نفسه ، قبل ان يتحرك به القطار ، قائلا : لن اعود إلى استانبول قبل ان احتل مصر » . Morgenthau, p. 171

(٢٥) راجع Djemal Pasha, p. 201

(٢٦) المصدر ذاته ، ص ١٩٩ — ٢٠١

(٢٧) U.S.A., Department of State, Telegram (1821) from the Charge d'Affaires in Turkey (Philip) to the Secretary of State (Lansing). See *Papers Relating to the Foreign Relations of the United States, Supplement - The World War*, 1914-1918 (Washington, 1928-1933) 1916 Supplement, p. 851.

(٢٨) الحكيم ، يوسف : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ، ص ٢٥٠ — ٢٥٢ .
المقدسي ، جرجس الخوري : اعظم حرب في التاريخ ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢٩) الحكيم ، ص ٢٤٩ ، والمقدسي ، ص ٤٨

(٣٠) راجع : *La Vérité Sur la Question Syrienne*, (اسطنبول ١٩١٦) وقد صدر كذلك باللغتين التركية والعربية في وقت واحد .

(٣١) « في اليوم الذي وصلت فيه إلى دمشق اخبرني خلوصي بك ، حاكم سوريا العام انه يرغب في مقابلتي لامر خطير . وقد اجتمعنا في الليلة ذاتها في دار الحكومة .

فناولني بعض الوثائق الهامة التي عثر عليها في القنصلية الفرنسية ، وقال ان هذه الوثائق تدين عدداً من كبار وجهاء المسلمين وزعمائهم في كل من دمشق وبيروت وغيرهما من المدن ... واذا كان لي ان اصدر حكماً بناء على هذه الوثائق فانه لا يخامرني ادنى شك في ان الثوريين العرب كانوا يعملون لحساب فرنسا وتحت حمايتها . »

راجع : Djemal Pasha p. 197

برقية سرية من الوزير في برن ، سويسرا ، رقم ٣٣٨ ، في ٢–١٥ حزيران ١٩١٦

بالاشارة إلى رسالتي رقم ٣٢٩ :

لقد طلب السيد (Mandelstam) ان نبعث اليكم بالمعلومات التالية : « على اثر الحوادث التي وقعت في سوريا وصلتني معلومات اضافية وهي ان جمال باشا اذاع على الشعب السوري بياناً اتهم فيه الحلفاء بانهم يسعون إلى تقسيم الامبراطورية العثمانية فيما بينهم . واوضح ايضاً في البيان نفسه ان اعدام السوريين كان بناء على اكتشاف مؤامرة كانوا يدبرونها قبل الحرب ، مؤامرة تهدف إلى ضم سوريا إلى فرنسا . ويقال ان الاتراك عثروا في السفارة الفرنسية في دمشق على مراسلة تثبت انه كان هناك علاقات سرية بين سوريا وفرنسا . واذا كان الامر كذلك فان هذا يعني ان هذه الوثائق كانت في يد الحكومة التركية منذ اوائل الحرب ، وبالرغم من هذا فانهم لم يستخدموها سلاحاً في يدهم ضد السوريين الا في المدة الاخيرة . لذلك لنا ان نفترض انه قد وقعت خلال الايام الاخيرة احداث جديدة دفعت بالاتراك إلى اتخاذ خطوة حاسمة ضد السوريين من شأنها ان تحكم عليهم بالخيانة . ومهما يكن من امر فان استمرار اصدار الاحكام بالاعدام والنفي ضد السوريين سيثير عاصفة عنيفة من النقمة والكراهية ضد الاتراك في جميع الاقطار الاسلامية وسيزيد من سخطهم على تركيا الفتاة . والجدير بالذكر ان جمال باشا لعب الدور الاول في اصدار هذه الاحكام القاسية ، ويبدو انه قد تخلى نهائياً عن فكرة التعاون مع الحلفاء » .

راجع : Marchand, René (ed), *Un Livre Noir, Diplomatie d'avant-guerre et de guerre d'après les documents des archives Russes* (1910-1917), Tome Troisième, Livre III, avril à septembre 1916, (Paris, 1922-34), p. 67.

راجع ايضاً ، ثورة العرب ، ص ١٦٤ — ١٦٧ .

(٣٢) يقال ان عبد الكريم الخليل ، الذي كان اول من أعدم قال وهو واقف عند المشنقة : « انا اعرف لماذا يشنقني جمال باشا ، وسيعرف العالم ايضاً الحقيقة في يوم ما . » سعيد ، المجلد الاول ، ص ٨٥

(٣٣) كانت الامبراطورية العثمانية زمن جمال باشا قد اخذت بالانحلال تماماً كما حدث للامبراطورية الرومانية زمن انطوني ، وقد ظن جمال انه سيصبح يوماً وريثاً لولاية او اكثر من ولاية ، وانه ربما سيؤسس عائلة تتوارث العرش

من بعده . كذلك كان جمال يعتقد ان الحملة العسكرية التي كان على رأسها ستجعل منه فاتحاً يفتتح احسن ولاية تركية ، لا بل ستجعل منه شخصية من اقوى شخصيات العالم . morgen thau, p. 172

(٣٤) لهذه المفاوضات اهمية عظمى في تاريخ تلك الحقبة . ولقد كان بالامكان ان تصبح النتائج المترتبة عليها ذات شأن خطير في مقدرات البلدان العربية مما يدفعنا إلى اعطاء القارىء خلاصة موجزة عنها . ان اول وثيقة مؤرخة في ٢٦ تشرين الاول ، سنة ١٩١٥ ، وهي رسالة بعث بها سازانوف (Sazanov) وزير خارجية روسيا إلى السفارة الروسية في كل من باريس وروما ويقول فيها انه تلقى معلومات من « مصادر اميركية » في اسطنبول مؤداها ان جمال باشا يرغب في القيام « بعمل عدائي » نحو الباب العالي ، في حال قبول شروطه . – وقد كان شرطه الاول انه – ومن بعده اولاده واحفاده – يصبح « سلطاناً » على دولة اتحادية تضم سوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية وقيليقيا وارمينيا وكردستان – ويضمنها له الحلفاء . وفي شهر كانون الاول ، ١٩١٥ ، استمرت معلومات عن هذا الامر الخطير تصل إلى مدينة بطرس برج ومن ثم إلى باريس من ممثلين روسيين في بلدان اجنبية . غير ان فرنسا لم تكن تعطف على مشروع جمال لانه مشروع من شأنه ان يرضي روسيا لانه يمنحها مدينة استانبول والمضائق ولانه يحرم فرنسا من حلم كانت تحلم به وهو الاستيلاء على سوريا وفلسطين وعلى قسم من قيليقيا . وفي وثيقة اخرى مؤرخة في ١٧ كانون الثاني يذكر سازانوف ان السير ادوارد غراي (وزير خارجية بريطانيا) يعتقد انه من المفيد لفرنسا ان تدخل في مفاوضات مباشرة مع جمال باشا . وفي ٢٧ كانون الثاني سنة ١٩١٦ اعلمت الحكومة البريطانية السفير الروسي بنكندورف (Benkendorff) ان ليس عندها رغبة في الدخول في مفاوضات مع جمال ، وانها على اتصال مباشر مع العرب وهذا من شأنه ان يعود بالخير على العرب انفسهم وعلى بريطانيا . واوضحت بريطانيا انها تعتمد اولا على العرب انفسهم ، وذلك لان الظرف ملائم ، اذ أن شعور العرب العدائي نحو الاتراك ونحو جمال باشا الذي شنق زعماءهم آخذ بالازدياد . وآخر رسالة منشورة من سجل الوثائق الروسية مؤرخة في ١٣ آذار سنة ١٩١٦ تشير إلى فشل المفاوضات وذلك بسبب المعارضة التي ابدتها كل من فرنسا وبريطانيا .

راجع, Polonsky, J. *Documents Diplomatiques Secrets Russes*, 1914-1917 (Paris, 1928) Section IV, pp. 249-331 and particularly document No. 1999 of December 30,

راجع ايضاً سعيد ، المجلد الاول ، ١٦٨ – ١٧٥

وقد كتب ايضاً فيروز كاظم زاده يقول : « في شهر كانون الاول سنة ١٩١٥ اخبر زافريف (zavriev) الروس ان جمال باشا ، وهو احد اهم ثلاث شخصيات سياسية في تركيا ، لم يكن راضياً عن الحكومة وربما كان يود ان يقوم بحركة انقلاب ضدها ... عندها ابرق وزير الخارجية الروسية ، السيد

سازانوف إلى (سفير روسيا في باريس) ايزفولسكي (Izvolski) وسفير روسيا في لندن ، الكونت بنكندروف – (Benkendorf) وإلى السفير الروسي في روما ، جيرز (Giers) ، ان جمال باشا على وشك اعلان الثورة ضد حكومته وضد الالمان شريطة ان يوافق الحلفاء على الشروط التالية : اولا قيام دولة تركية اسيوية حرة مستقلة تتألف من ولايات ذات استقلال ذاتي تحت امرة السلطان وتشمل سوريا والعراق وارمينيا وقيليقيا وكردستان. ثانياً ان يكون السلطان عليها جمال باشا . ثالثاً يزحف جمال على اسطنبول ويعلن ان السلطان الحالي والحكومة مخلوعين بصفتهم اسرى في قبضة الالمان . رابعاً في اثناء زحفه على استانبول يتلقى جمال عوناً عسكرياً من قبل الحلفاء . خامساً بعد انتهاء الحرب يتلقى جمال عوناً مالياً . سادساً يتنازل جمال، بعد انتهاء الحرب عن استانبول والمضائق . سابعاً يتخذ جمال اجراءات فورية لسلامة الارمن الاتراك واطعامهم حتى نهاية الحرب . واضاف سازانوف يقول : حتى انه في حال فشل جمال في الاستيلاء على استانبول وقلب الحكومة فان محاولة من هذا القبيل ستكون جزيلة الفائدة ذلك انه من شأنها ان تخلق حالة فوضى واضطراب في صفوف الاعداء».

راجع : Kazemzadeh, Firuz, *The Struggle for Transcaucasia*, 1917-1921 (New York and Oxford, 1951) pp. 28-29 citing Adamov, E.A. *Razdel Aziatskoi Turtsii* (Moscow, 1924)

راجع ايضاً : Pingaud, Albert, *Histoire Diplomatique de la France pendant la Grande Guerre*, Tome III: *les Neutralités et les Tentatives de Paix* (Paris, 1940) p. 228

حيث يقول انه في اثناء المفاوضات التي سبقت توقيع اتفاقية سيكس بيكو (Sykes-Picot) كان جمال يحاول سراً ان يجتاز إلى معسكر الحلفاء « لو انهم تعهدوا له عند عقد الصلح باقامة دولة له في اواسط آسيا الصغرى » .

(٣٥) بعث الجنرال ليمان فون ساندرز (Liman von Sanders) بتقرير مؤرخ في ٢٥ تشرين الاول سنة ١٩١٦ إلى الجنرال لودندورف (Ludendorff) يقول فيه : « ان الاجراءات الصارمة القاسية التي اتخذها جمال باشا بحق العرب جعلتهم يتخلون عن تركيا وافقدتهم كل عطف نحو الاتراك . فقد وقعت في دمشق في هذا الشهر احداث على غاية من الخطورة استدعت تدخل القوات المسلحة » . وعند كلامه عن فيصل يقول : « ان سياسة الحكومة التركية المؤسفة والمحزنة نحو البلدان العربية قد جعلت من العرب اعداء الداء». Sanders, Liman von, *Cinq ans de Turquie* (Paris, 1923) pp. 166 and 240

« لم يقتصر اثر الحكم الظالم الذي مارسه جمال في سوريا على حرمان السوريين من قادة وزعماء ثوريين بل انه عمل على خلق روح الثورة في صفوف الشعب ضد الاتراك . وكانت نتيجة هذا الطغيان فشل سياسة التتريك التي اتبعها الاتراك مدة سبع سنوات . *Handbook*, No. 88., *Turkey in Asia*, p. 16

(٣٦) ولكن ، ومهما يكن من امر ، فانه كان هناك زعماء من العرب في الشرق

الادنى ، في سنة ١٩١٦ ، ينظرون إلى الانفصال عن تركيا بكثير من القلق والأسى . وها هو سليمان فيضي ، الذي كان احد النواب في مجلس المبعوثان ، ينقلب على تركيا الفتاة وينضم إلى حركة طالب النقيب ضد والي البصرة . ولكن بالرغم من عدائه للاتراك فانه رفض ، في اثناء لقاء بينه وبين لورنس في البصرة في ٧ نيسان سنة ١٩١٦ – وكان اجتماعهما في مكتب مور (C.C. More) من دائرة الاستخبارات العسكرية – ان يقوم بثورة ضد الاتراك مما أدهش لورنس لانه لم يكن يتوقع مثل هذا الرفض . فقد قال فيضي للورنس : « اني شخصياً لست ارى مبرراً إلى للانتقام من الترك ... اما نضالنا في السر والعلن ضد الحكومة العثمانية فكان في نطاق الشؤون الداخلية ولغرض الحصول على بعض الحقوق المشروعة التي كانت الحكومة قد انكرتها على الشعوب العربية وللمطالبة بالاصلاح الداخلي ... فلو ان الترك تساهلوا في تحقيق هذه المطاليب لزال الخلاف بيننا وبينهم ...» راجع سليمان فيضي – في غمرة النضال ص . ٢١٨ – ٢١٩ .

(٣٧) Lloyd George, *War Memoirs*, vol. IV, p. 1810

(٣٨) راجع Sanders, Liman von, pp. 44-45

(٣٩) Edib, Halidé, *Turkey Faces West*, (New Haven, 1930), p. 141

(٤٠) راجع : عبدالله بن الحسين (الملك) ، ص ١٠٨ – ١٥٢ . ايضاً ، سعيد المجلد الاول ، ص ١٤٥ – ١٦٥
للاطلاع على نص البيان الذي اذاعه الشريف حسين في ٢٦ حزيران على « جميع اخوانه المسلمين » راجع سعيد ، ص ١٤٩ – ١٥٧ . والجدير بالملاحظة ان الشريف حسين ، بعد سرده الاسباب التي دعته للقيام بالثورة ، يذكر الغاية التي قامت الثورة من اجلها ، وهي : « الانفصال التام عن حكومة جمعية الاتحاد والترقي واعلان استقلال البلدان العربية » . وهدف هذه الثورة « حماية الاسلام ورفع شأن المسلمين ... » على اسس الشرع الاسلامي الذي « هو مصدر كل قوة وهداية » .

(٤١) يذكر رونالد ستورز (Storrs) ان مجموع نفقات الثورة العربية التي تكبدتها الخزينة البريطانية بلغ ١١ مليوناً من الجنيهات الاسترلينية وكتب يقول : « بالاضافة إلى المبلغ الاول الذي تسلمته من الخزينة فان الشريف حسين كان يتسلم ، بدأ من ٨ آب سنة ١٩١٦ ، كل شهر ١٢٥ الف ليرة استرلينية ، ومجموعها اقل من مليون استرليني بشيء قليل . اما العشرة الملايين الباقية فقد كانت نفقات الاعمال الحربية والمواد الغذائية التي كانت تبعث بها بريطانيا– راجع Storrs, P. 153, n. 2 وينبغي القول ايضاً ان الحكومة الفرنسية تحملت قسطها من المساعدات التي ، بالرغم من انها كانت مساعدات محدودة ، فانها ، كما يقول السير رجينالد وينغت (Wingate) ، كانت على جانب خطير اذ انها « كانت سبباً من اسباب نجاح العمليات الحربية المشتركة التي لعب فيها الفرنسيون دوراً بارزاً وبطولة رائعة » . ففي ٢٠ ايلول من سنة ١٩١٦ وصلت إلى ميناء جدة بعثة فرنسية يرأسها الكولونيل برموند (Brémond) تتألف

من بعض اعيان المسلمين من الجزائر وتونس ومراكش ومن غربي افريقيا الفرنسية ، ومعهم مبلغ ١,٢٥٠,٠٠٠ فرنك افرنسي ذهباً قدموها للشريف حسين . وبعد وقت قصير وصلت كتيبة فرنسية معها عدد قليل من الرشاشات الفرنسية الصنع ومدافع الميدان والبنادق . وقد استقبلها الشريف حسين استقبالا حاراً . راجع : Brémond, *Le Hedjaz dans la Guerre Mondiale* (Paris, 1931) PP.48-53, 64-67, and 348-349

(٤٢) راجع : Presland, J., pp. 244-245

(٤٣) للاطلاع على النص الرسمي والوثائق الرسمية المتعلقة باتفاقية سيكس بيكو (Sykes - Picot) راجع : Woodward, E.L. and Butler, Rohan, *Documents on British Foreign Policy* 1919-1939, First Series, vol. IV, 1919 (London, 1952), pp. 241-251

(٤٤) راجع : U.S.A., Department of State, *Papers Relating to the Foreign Relations of the United States: The Lansing Papers*, 1914-1920, (Washington, 1940), vol. II, p. 23

(٤٥) راجع : *Iraq - Memo No. 20 dated* July 25,1917 and written by "The Chief Political Officer in charge Iraq Section, Arab Bureau, Baghdad" to "the Officer in Charge, Arab Bureau, c/o Director, Military Intelligence, Cairo."

(٤٦) وقد زادت هذه القضايا تعقداً مريراً بعد اعلان « وعد بلفور » الصادر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ والمتعلق « بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين »

(٤٧) The four signatories were Vice-Admiral Sir S.A. Cough Calthorpe, British Commander-in-Chief in the Mediterranean; Ra'uf Bey, Turkish Minister of Marine; Rashad Hikmat Bey, Turkish General Staff. - See Falls, Captain Cyrill, *History of the Great War, Military Operations, Egypt and Palestine, from June* 1917 *to the End of the War*, Part II (London, 1930) p. 625.

(٤٨) المصدر ذاته ، ص ٦٢٧

(٤٩) المصدر ذاته ، ص ٦٢٦

(٥٠) « في اقل من ستة اسابيع اسر جيش الجنرال اللنبي ٧٥ الف اسير تركي و ٣٦٠ مدفعاً وتقدم مسافة ٣٥٠ ميلا» راجع: Wavell, Viscount, *Allenby, Soldier and Statesman*, (London, 1946), p. 245.

الفصل السابع

(١) راجع : Chirol, Sir Valentine and others, *Reawakening of the Orient and other Essays*, (Yale, 1925), p. 3.

(٢) سورة التوبة ، آية ١٢٧
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٠٩
(٤) سورة طه ، آية ١١٢
(٥) سورة الشورى ، آية ٦
(٦) سورة فصلت ، آية ٢
(٧) سورة الانبياء ، آية ٩١
(٨) سورة الحجرات ، آية ٩
(٩) المراجع التالية هي بعض ما ظهر من مؤلفات عن القومية العربية والوحدة العربية منذ سنة ١٩٥٨ . والمؤلفون جميعهم من العرب المسلمين ، وجميعهم يؤكدون في كتاباتهم ان نشأة القومية العربية ونموها لا ينفصلان عن الاسلام :
الكتاني ، ادريس : المغرب المسلم ضد اللادينية ، ص ١٧١ ، ١٧٣ – ١٧٤
المبارك، محمد: الامة العربية في معركة الذات، ص ٦٤، ٦٧، ١٠٠، ١٣١، ١٣٦
امين ، احمد : يوم الاسلام ، ص ٤٩
الباقوري ، احمد حسن : عروبة ودين ص ٦٦
الخربطلي ، علي حسن : محمد والقومية العربية ، ص ٤٩، ٦٧، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٣ .
الغزالي ، محمد : كفاح دين ، ص ٦ ، ١١ ، ٢١٢
الغزالي ، محمد : حقيقة القومية العربية ص ٩ – ١٠ .
الدوري ، ، عبد العزيز : الجذور التاريخية للقومية العربية ، ص ١٢ – ١٤
مقدمة في تاريخ صدر الاسلام، ص ٣٧ – ٣٨، ٤١، ٤٤ ، ٤٦ ،
باشميل ، محمد احمد : صراع مع الباطل ، ص ٦٥ ، ٧٤ ، ١٢٩ ، ٢١٠
ب محمد احمد القومية في نظر الاسلام ، ص ٤٦
سرور طه عبد الباقي : دولة القرآن ص ٩٧
شلتوت ، محمود : الاسلام – عقيدة وشريعة ، ص ٤٤٥ – ٤٤٧ ،
راجع ايضاً بنت الشاطىء : « التفسير الديني لتاريخنا » في جريدة الاهرام ، الجمعة في ٩ آب ، ١٩٦٣ ص ١٣ . وعبد الرحيم ، مدثر : « الاسلام والقومية في الشرق الاوسط » في مجلة حوار مجلد ١ ، عدد ٦ ، ايلول – تشرين الاول ، ١٩٦٣ ص ٥ – ١٣ .
(١٠) زيدان ، جرجي : تاريخ التمدن الاسلامي الجزء الرابع (مطبعة الهلال ، مصر ١٩٣١) ص ٦٢ نقلا عن العقد الفريد ، ٧٣ ج ٢
(١١) راجع عبدالله بن الحسين ، « مذكراتي » ص ٢٢ . كذلك المنار ، مجلد ١٦ ، الجزء العاشر ، ص ٧٣٥ – ٧٥٤
(١٢) راجع Miller, D.H. *My Diary at the Peace Conference* 1918-1919 (New York, 1924) vol. IV. Document 250, pp. 297-299.
(١٣) المصدر ذاته ، ص ٣٠٠

مراجع الكتاب

ابراهيم بك حليم – كتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، القاهرة، ١٩٠٥
احمد امين – يوم الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٨
احمد امين – زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، القاهرة ١٩٤٨
احمد حسن الباكوري – عروبة ودين ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
احمد سعيد – القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩
احمد عزت الاعظمي – القضية العربية ، بغداد ، ١٩٣١ .
احمد نيازي – خواطر نيازي ، القاهرة ١٩٠٩ . (ترجمه من التركية وليد الدين يكن)
ادريس الكتاني – المغرب المسلم ضد اللادينية ، الدار البيضاء ، ١٩٥٨ .
ادكن عبادى – محنة القومية العربية ، بيروت ، ١٩٦٢ .
اسعد داغر – مذكراتي ، القاهرة ، (بدون تاريخ)
الامير مصطفى الشهابي – محاضرات عن القومية العربية ، القاهره ، ١٩٥٩ .
امين الريحاني – ملوك العرب ، المجلد الثاني ، بيروت ١٩٢٩ .
امين شاكر ، سعيد العريان ، ومحمد مصطفى – تركية والسياسة العربية ، الكتاب العاشر في سلسلة « اخترنا لك » ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
انيس زكريا نصولي – اسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، بيروت ، ١٩٢٦ .
انيس صائغ – تطور المفهوم القومي عند العرب ، بيروت ، ١٩٦١ .
انيس الخوري المقدسي – الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، بيروت ، ١٩٥٢
بولس مسعد – الدولة العثمانية في لبنان وسوريا ، ١٥١٧ – ١٩١٦ ، القاهرة ، ١٩١٦ .
بولس مسعد – لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده ، المجلد الاول ، القاهرة ، ١٩٢٩ .

توفيق علي برو – العرب والترك في عهد الدستور العثماني ، ١٩٠٨ – ١٩١٤ ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
جرجس الخوري المقدسي – اعظم حرب في التاريخ ، بيروت ، ١٩٢٨ .
الحكم دروزه وحمدي الجبوري – مع القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
خالد محمد خالد – من هنا نبدأ ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
سليم سركيس – سر مملكة ، القاهرة ، ١٨٩٥ .
سليمان البستاني – الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، بيروت ، ١٩٠٨ .
سليمان فيضي – في غمرة النضال ، مذكرات سليمان فيضي (بغداد ١٩٥٢) .
شاكر صبري – طريق الصداقة بين العراق وتركية ، بغداد ، ١٩٥٥ .
الشيخ عبدالله العلمي – اعظم تذكار للعثمانيين الاحرار ، او الحرية والمساواة والمبعوثان . بيروت ١٣٢٦ هجرية .
الشيخ محمد عبدو وجمال الدين الافغاني – العروة الوثقى لا انقسام لها ، القاهرة ، ١٣٢٨ هجرية .
صبحي محمصاني – الاوضاع التشريعية في الدول العربية ، ماضيها وحاضرها ، بيروت ، ١٩٥٧ – ١٩٦٢ .
طه عبد الباقي سرور – دولة القرآن ، القاهرة ، ١٩٦١ .
عادل الصلح – سطور من الرسالة ، تاريخ حركة استقلالية قامت في الشرق العربي سنة ١٨٧٧ ، بيروت ، ١٩٦٦
عبد الرحمن عزام – الرسالة الخالدة ، القاهرة ، ١٣٦٥ هجرية ، ١٩٤٦ ميلادية .
عبد الرحمن الكواكبي – ام القرى ، حلب ، ١٩٥٩ .
عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، القاهرة (بدون تاريخ)
عبد الرزاق نوفل – الاسلام دين ودنيا ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
عبد الرزاق – الاسلام واصول الحكم ، القاهرة ، ١٩٢٥ .
عبد العزيز الدوري – مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦١ .
عبد العزيز الدوري – الجذور التاريخية للقومية العربية ، بيروت ، ١٩٦٠ .
عبد الكريم غرايبي – العرب والاتراك ، دمشق ١٣٨١ هجرية ، ١٩٦١ ميلادية .
عبدالله بن الحسين (ملك) – مذكراتي ، القدس ، ١٩٤٥ .

عثمان العظم (المحرّر) – مجموعة آثار رفيق بك العظم ، القاهرة ، ١٣٤٤ هجرية .
عزيز بك – سوريا ولبنان في الحرب العالمية (ترجمه من التركية فؤاد ميداني) بيروت ، ١٩٣٣ .
علي حسني الخربطلي – محمد والقومية العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
اللجنة العليا لحزب اللامركزية – المؤتمر العربي الاول (عقد في باريس حزيران ١٨ – ٢٣ ، ١٩١٣) ، القاهرة ، ١٩١٣ .
لطفي عبد الوهاب يحي – الكيان العربي ، بين المقومات والامكانيات (١٩٦٥) .
ماهر حسن فهمي – القومية العربية والشعر المعاصر (رقم ٦ في سلسلة عنوانها مع العرب) ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
محمد ابو زهرة – الوحدة الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
محمد احمد باشميل – القومية في نظر الاسلام ، بيروت ، ١٩٦٠ .
محمد احمد باشميل – في صراع مع الباطل ، بيروت ، ١٩٦٠ .
محمد احمد باشميل – لهيب الصراحة يحرق المغالطات ، بيروت ، ١٩٦١ .
محمد البهي – الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
محمد بيهم – العرب والترك ، بيروت ، ١٩٥٧ .
محمد عبدالله العربي – ديمقراطية القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
محمد الغزالي – كفاح دين ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
محمد الغزالي – حقيقة القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ .
محمد كرد علي – خطة الشام ، مجلد ٢ ، ٣ ، ٥ ، دمشق ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٧ .
محمد المبارك – الامة العربية في معركة تحقيق الذات ، دمشق ، ١٩٥٩ .
محمد المجذوب – القومية العربية امام تصارع الاضداد ، بيروت ، ١٩٦٠ .
محمد المخزومي – خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني ، بيروت ، ١٩٣١ .
محمود شلتوت – الاسلام عقيدة وشريعة ، القاهرة (بدون تاريخ)
م . ر. الخالدي – الانقلاب العثماني وتركية الفتاة ، القاهرة ، ١٩٢٦ ميلادية
معروف الدواليبي – القومية العربية في حقيقتها ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
الملك عبدالله – الآمالي السياسية ، عمان ، ١٩٣٩ .
ميخائيل الدمشقي – تاريخ حوادث الشام ولبنان ، بيروت ، ١٩١٢ .
يوسف الحكيم – بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ، بيروت ، ١٩٦٤ .
يوسف كمال حتاته – مذكرات مدحت باشا ، القاهرة (بدون تاريخ)
(مؤلف مجهول) – ثورة العرب ، القاهرة ، ١٩١٦ .
(مؤلف مجهول) – ما هنالك ، القاهرة ، ١٨٩٦ .

مؤلفات بلغات اجنبية

Adams, Charles C., *Islam and Modernism in Egypt*. London, 1933.

Ahmad, Jamal Mohammed, *The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism*. London, 1960.

Antonius, George, *The Arab Awakening*. London, 1938... 1945.

Bailey, Frank Edgar, *British Policy and the Turkish Reform Movement*. - 1826-1853. Harvard University Press, 1942.

Barker,Edward B.B.,*Syria and Egypt under the Last Five Sultans of Turkey*, 2 vols. London, 1876.

Bell, Gertrude L., *Amurath to Amurath*. London, 1911.

Bell, Gertrude L., *The Desert and the Sown*. London, 1907.

Brockelmann, Carl, *History of Islamic Peoples*. English Ed. London, 1949. New York, 1947.

Chirol, Sir Valentine, *Fifty Years in a Changing World*. London, 1927.

Churchill, (Colonel) Charles Henry, *The Druzes and the Maronites Under the Turkish Rule from* 1840-1860. London, 1862.

Coulson, Noel J., *A History of Islamic Law. Islamic Surveys* 2 - General Editor: W. Montgomery Watt - Edinburgh

Cumming, Henry H., *Franco-British Rivalry in the Post-War Near East*. London, 1937.

David, Wade Dewood, *European Diplomacy in the Near Eastern Question*, 1906-1909. Urbana, 1940.

Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman*, 1913-1919, London, n.d.

Dodwell, Henry, *The Founder of Modern Egypt. A Study of Mohammed Ali*. Cambridge, 1931.

Emin, Ahmed, *Turkey in the World War*. New Haven, 1930.

Farley, J. Lewis, *Turks and Christians*. London, 1876.

Farley, J. Lewis, *Modern Turkey*. London, 1872.

Farley, J. Lewis, *The Resources of Turkey* - Considered with Special Reference to the Profitable Investment and Capital in the Ottoman Empire. London, 1863.

Gibb, H.A.R., *Modern Trends in Islam*. Chicago, 1947.

Gibb, H.A.R. and Bowen,Harold, *Islamic Society and the West*, Vol. one, Part I,Oxford University Press, 1950. Part II. Oxford University Press, 1957.

Gooch, G.P. and Temperley, Harold (Edit.), *British Documents on the Origins of the War*, 1898-1914, vol. V: *The Near East*, 1903-9. London 1928; and vol. X, Part I: *The Near and Middle East on the Eve of the War*. London, 1936; and Part II: *The Last Years of Peace*.

Goodell, Rev. William, (Prime, E.D.G. Edit.) *Forty Years in the Turkish Empire*. New York, 1876.

Graves, Sir R.W., *Storm Centres of the Near East*, 1879-1929. London, 1933.

Great Britain, Admiralty, Geographical Section of the Naval Intelligence, *A Handbook of Syria* (including Palestine) London, n.d.

Great Britain, Admiratly, *A Manual on the Turanians and Pan-Turanianism*. London, n.d.

Great Britain, Foreign Office, *Correspondence Relating to the Affairs of Syria*, 1860-61. London, 1861.

Great Britain, Foreign Office Handbooks, Prepared Under the Direction of the Historical Section of the Foreign Office: No.96a & b, *The Rise of Islam and the Caliphate* (and)*The Pan-Islamic Movement*. London, January, 1919.
No. 96c & d, *The Rise of the Turks* (and) *The Pan-Turanian Movement*. London, February, 1919.
No. 88, *Turkey in Asia*. London, March, 1919.

Grunebaum, G.E. Von, *Islam - Essays in Nature and Growth of a Cultural Tradition*. London, 1955.

Heyd, Uriel, *Foundations of Turkish Nationalism*. London, 1950.

Herbert, Audrey, *Ben Kendim - A Record of Eastern Travel*. London, 1924.

Hourani, A.H., *Syria and Lebanon*. London, 1946.

Hourani, A.H., *Minorities in the Arab World*. London, 1947.

Hourani, A.H. *Arabic Thought in the Liberal Age*, 1789-1939. Oxford University Press, 1962.

of 1908. Princeton, 1957.
Sa'ab, Hassan, *The Arab Federalists of the Ottoman Empire*. Amsterdam, 1958.
Stitt, George, *A Prince of Arabia: The Emire Shereef 'Ali Haider*. London, 1948.
Stoddard, Lothrop, *The New World of Islam*. London, 1921.
Stripling, G.W.F., *The Ottoman Turks and the Arabs*. Urbana, University of Illinois Press, 1942.
Susa, Nasim, *The Capitulary Regime of Turkey. Its History, Origin and Nature*. Baltimore, 1933.
Temperley, H.W.V. (Ed.), *The History of the Peace Conference of Paris*, vol. VI. London, 1924.
Urquhart, David, *The Lebanon* (*Mount Souria*). *A History and a Diary*. London, 1860.
Urquhart, David, *The Spirit of the East*, 2 vols. London, 1839.
Van Dyck, Edward A., *Report of Edward A. Van Dyck Upon the Capitulations of the Ottoman Empire Since the Year* 1150. Part I. Washington, Government Printing Office, 1881.
Wortabet, Gregory M., *Syria and the Syrians, or Turkey in the Dependencies*, 2 vols. London, 1856.
Young, George, *Nationalism and War in the Near East*. Oxford, 1915.
ANONYMOUS:
An Oriental Student,*The Modern Syrians*.London, 1844.
A Diplomatist, *Nationalism and War in the Near East*. Oxford, 1915.
A German Diplomat,*The Near East from Within*. London, 1915.
Aboussouan, Benoît, *Le Problème Politique Syrien*. Paris, 1925.
Arminjon, Pierre, *De la Nationalité dans l'Empire Ottoman*. Paris, 1903.
Azoury, Négib, *Le Réveil de la Nation Arabe dans l'Asie Turque*. Paris, 1905.
Brémond, Général Ed., *Le Hédjaz dans la Guerre Mondiale*. Paris, 1931.
Contenson, Baron Ludovic de, *Les Réformes en Turquie d'Asie - La Question Arménienne*,
La Question Syrienne. Paris, 1913.

Howard, Harry N., *The Partition of Turkey - A Diplomatic History*, 1913-1923. *Norman*, University of Oklahoma Press, 1931.
Ireland, Philip W. (Edit.), *The Near East - Problems and Prospects*. University of Chicago Press, 1942...1945.
Jessup, H.H., *Fifty-Three Years in Syria*. New York, 1910.
Kirk, George E., *A Short History of the Middle East*. London, 1952.
Knight, E.F., *The Awakening of Turkey. A History of the Turkish Revolution*. London, 1909.
Kohn, Hans, *A History of Nationalism in the East*. London, 1929.
Kohn, Hans, *The Idea of Nationalism* A Study in its Origin and Background. New York, 1944.
Lawrence, T.E. *Seven Pillars of Wisdom*. Oxford, 1925.
Lewis, Bernard, *The Middle Eeast and the West*. London, 1964.
Longrigg, H.S., *Four Centuries of Modern Iraq*. Oxford, 1925.
Longrigg, H.S., *Iraq*, 1900 *to* 1950. A Political, Social, and Economic History. London, 1953.
Lybyer, A.H., *The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent*. Harvard University Press, 1913.
Madden, Richard Robert, *The Turkish Empire in its Relations with Christianity and Civilization*. London, 1962.
Mears, E.G., *Modern Turkey*. New York, 1924.
Midhat Bey, 'Ali Haydar, *The Life of Midhat Pasha*. London, 1903.
Miller, William, *The Ottoman Empire and its Successors*, 1901-1922. Cambridge, 1923.
Napier, Lieut.-Col. E., *Reminiscences of Syria and the Holy Land*, 2 vols. London, 1947.
Nuseibeh, H.Z., *The Ideas of Arab Nationalism*. Cornell University Press, 1956.
Pears, Sir Edwin, *Life of 'Abdul-Hamid*. New York, 1917.
Pears, Sir Edwin, *Forty Years in Constantinople*, 1873-1915. New York, 1916.
Presland, John, *Deedes Bey - A Study of Sir Wyndham Deedes*, 1883-1923. London, 1942.
Porter, J., *Five Years in Damascus*. London, 1870.
Ramsaur, Jr., E.E., *The Young Turks - Prelude to the Revolution*

Djémal Pacha, *La vérité sur la question Syrienne* (Istanbul), 1916.
Guinet, Vital, *Syrie, Liban et Palestine*. Paris, 1896.
Engelhardt, Ed., *La Turquie et le Tanzimat*. Paris, 1882.
France, Ministère des Affaires Etrangères, *Documents Diplomatiques*, 1860. Paris, 1861.
France, *Archives du Ministères des Affaires Etrangères - Turquie* (19e siècle).
Freycinet, G. de, *La Question d'Egypte*. Paris, n.d.
Gaulis, B.G., *La Question Arabe*. Paris, 1930.
Gouilly, Alphonse, *L'Islam devant le Monde Moderne*. Paris, 1904.
Guys, M. Henry, *Esquisse de l'Etat Politique et Commercial de la Syrie*. Paris, 1862.
Homsy, Mgr. Basile, *Les Capitulations et la Protection des Chrétiens au Proche-Orient*. Harissa, Liban, 1956.
Jouplain, M., *La Question du Liban*. Paris, 1908.
Jung, Eugène, *Les Puissances devant la Revolte Arabe*.Paris, 1906.
Jung, Eugène, *La Révolte Arabe*, Paris, 1924.
Khairallah, K.T., *Les Regions Arabes Libérées*. Paris, 1919.
Mandelstam, André, *Le Sort de l'Empire Ottoman*. Paris, 1917.
Montagne, R., *L'Evolution Moderne des Pays Arabes*. Paris, 1935.
Nerval, Gérard de, *Voyage en Orient*, 1851. Paris, 1927.
Pichon, Jean, *Le Partage du Proche-Orient*. Paris, 1938.
Rivoyre, Denis de, *Les Vrais Arabes et leur Pays*. Paris, 1884.
Saba, Jean S., *L'Islam et la Nationalité*. Paris, 1931.
Samné, Georges, *La Syrie*. Paris, 1920.
Young, George, (Ed.), *Corps de Droit Ottoman*, 7 vols. Oxford, 1905.

نشوء القومية العربية

الدكتور زين نور الدين زين هو إستاذ تاريخ الشرق الأدنى الحديث في الجامعة الاميركية في بيروت . نال شهادة الدكتوراه من جامعة لندن ، وطاف كثيراً في أوروبا والشرق الأوسط بحثاً عن الوثائق والحقائق الرسمية المختلفة ، المكتوب منهـا والشفهي .

وفي هذا الكتاب يعالج الدكتور زين موضوع العلاقات التركية العربية ونشوء القومية العربيـة في أواخر عهد السلطنة العثمانيـة ، ويصحح بالوثائـق والمستندات، بعض الأخطاء التي علقت بالاذهان عن موضوع خطير كهذا ، له أثره في تطور البلدان العربية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .

وقد توفق المؤلف في معالجـة الموضوع ، بفضل معرفته العميقة بتاريخ الشرق وبلغاته العربية والتركية والفارسية ، وخبرته الواسعة في البحث عن المصادر العربية والتركية والأوروبية .

لذلك ، فلا يمكن فهم بعـض قضايا الشرق الأدنى الأساسية وتقديرها حق قدرها ، بدون هذه الدراسة العلمية الدقيقة التي يحتويها هذا الكتاب .